أحسن تفسير للقرآن الكريم في تاريخ الإسلام بفيض من الله عز وجل

معالم الإيمان في تفسير القرآن

الجزء الثامن والعشرون

سورة البقرة الآيات (١٦٥ – ١٧١)

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح الطائي

أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الحمد شعيرة في الأرض، ونداء إستغاثة وشكراً متجدداً يجري على أفواه المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها فيصعد في طبقات السماء وتتلقاه الملائكة ليكون من عمومات رد الله عز وجل عليهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، حينما إحتجوا على جعل آدم خليفة في الأرض.

ومن الشواهد على أن الحمد لله مصداق لهذا الرد تفضل الله بجعل الحمد أول كلام لآدم إذ عطس حينما نفخ الله فيه من روحه فقال الحمد لله.

وجعلها الله خاتمة دعاء أهل الجنة قال تعالى ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، وفيه شاهد بأن الحمد لله دعاء ومسألة وحاجة ومقام قرب تنال به الرغائب، ومن البداية والخاتمة أبى الله ألا يغادر الحمد له سبحانه الأرض وليكون حاضراً في عالم الآخرة.

الحمد لله الذي بعث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[3]، وتجلت هذه الرحمة بنزول القرآن واللامتناهي من العلوم التي في ثنايا آياته وكنوز المعرفة التي تفيض من تلاوتها والإنصات لها وتفسيرها.

---

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة يونس ١٠.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

ولا تخلو آية من آياته من الوعد الكريم لأهل الإيمان سواء في منطوقها أو مفهومها أو الجمع بينها وبين آية أخرى متحدة أو مختلفة معها في الموضوع، وإلى جانب الوعد الكريم بالثواب العظيم جاءت آيات القرآن بالوعيد للكافرين.

وإبتدأ هذا الجزء وهو الثامن والعشرون من معالم الإيمان في تفسير القرآن بآية تتضمن الوعد والوعيد مجتمعين، الوعد للمؤمنين الذين يحبون الله لله وللمعرفة به سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[1]، ليفوزوا بهذه المحبة بمراتب من الكمال الإنساني والحسن الذاتي وهو شاهد على نفاذ البصيرة والبصر والتفكر في مخلوقات الله كما في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[2].

وجاءت ذات الآية بالذم والوعيد للكفار الذين يحبون آلهتهم والطواغيت، وتتجلى في هذا الجزء البراءة المتبادلة بين الكفار يوم القيامة، وهي من وجوه الخصومة والشقاق بينهم، قال تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[3].

ليكون من مصاديق الآية السابقة ببيان وهن وضعف حب الكفار لآلهتهم وميل بعضهم لبعض إذ أن هذا الحب والميل لا يدوم فهو زائل بفضح ودك الأصنام، أو بزوال سلطان الظالم أو هلاك الطاغوت ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[4] ، وقال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[5].

---

(١) سورة الزخرف ٨٤.

(٢) سورة البقرة ١٦٥.

(٣) سورة ص ٦٤.

(٤) سورة المدثر ٣١.

(٥) سورة آل عمران ١٤٠.

وبعد بيان حال البؤس والحسرة للكافرين يوم القيامة وتبرأ بعضهم من بعض جاءت الآية التالية لها بالخطاب العام للناس جميعاً والذي يتضمن الرحمة والفضل الإلهي بسعة رزقهم وقربه ودنوه منهم وأنه ييتصف بأنه حلال طيب مباح ليكون الرزق على وجوه :

الأول : إنه رزق كريم ولطف من الله .

الثاني : إنه مناسبة للإيمان بالله والتصديق بأنبيائه وكتبه.

الثالث : فيه دعوة للشكر لله سبحانه، وما في هذا الشكر من منسأة في الأجل وزيادة في الرزق كماً وكيفاً، قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

ومن إعجاز القرآن مجئ التحذير من إتباع الشيطان عقب الخطاب والبشارة بالرزق الكريم، ومجئ كل من الرزق والتحذير خطاباً عاماً للناس جميعاً، وفيه رحمة بهم وحجة عليهم، قال تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[2]، وهذا الجزء سياحة في عالم الملكوت، وكل آية يتناولها بالبيان والتفسير موعظة وعبرة ومدرسة في الصلاح والتقوى، وأختتم هذا الجزء بتفسير قوله تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]، لتكون مدرسة فقهية وعقائدية وإرتقاء للمسلمين في سلم المعارف الإلهية، وزاجراً عن الشرك وباعثاً للنفرة منه في النفوس والمجتمعات وهل هذا الزجر مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[4]، أم أن القدر المتيقن من الآية هي الفرائض العبادية ، الجواب هو الأول .

---

(١) سورة ابراهيم ٧.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

(٣) سورة البقرة ١٧١ .

(٤) سورة الحشر ٧.

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ الآية ١٦٥

القراءة

قرأ نافع وابن عامر ويعقوب (ولو ترى الذين ظلموا) بالتاء على الخطاب)[١]، أي ان الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطته للأمة، وهذه الواسطة من تشريف وإكرام المسلمين (وقرأ ابن عامر ﴿يُرون﴾ بضم الياء)[٢].

والباقون يرون بفتح الياء وهي القراءة المرسومة في المصاحف، ونسبة الرؤية لأنفسهم لبيان تمام الحجة، ومنهم من قرأ (إن) بكسر الهمزة، وأكثر القراء على فتح الألف.

وفي قراءة ترون وجوه:

الأول : قرأ الحسن وقتادة وشيبة وابو جعفر ويعقوب: ولو ترى، وفيه خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وإرادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الخطاب هو الأصح وبواسطته الأمة والسامعون.

وقيل المراد، ولو ترى أيها السامع نزول العذاب بالظالمين لعلمت أن القوة لله جميعاً.

الثاني : قرأ نافع (إذ ترون) [٣]، أي جاءت الآية بلغة الخطاب وإرادة

---

(١) المحرر الوجيز ١٨١/١.

(٢) المحرر الوجيز ١١٨/٢.

(٣) أنظر البحر المحيط ١١٨/٢.

المسلمين والمسلمات وهو من مصاديق البيان والموعظة في القرآن.

الثالث : قراء الكوفيون وأبو عمرو وابن كثير: ولو يرى.

الرابع : قرأ ابن عامر: إذ يُرون بضم الياء.

الخامس : الباقون بالفتح في قوله تعالى﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾.

السادس : قرأ (إن القوة) بكسر الهمزة كما هو مرسوم في المصاحف، وبفتح الهمزة.

الإعراب واللغة

ومن الناس: الواو إستئنافية، من الناس: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم.

من يتخذ: من: اسم موصول في محل رفع مبتدأ مؤخر، يتخذ: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، والجملة الفعلية لا محل لها لأنها صلة الموصول.

من دون الله: جار ومجرور متعلقان بيتخذ.

أنداداً: مفعول به، يحبونهم: فعل مضارع مرفوع، والواو: فاعل، والضمير "هم" مفعول به.

كحب: جار ومجرور في موضع حال.

الله: مضاف إليه، بإضافة المصدر الى مفعوله.

والذين: الواو: إستئنافية، أو حالية، الذين: اسم موصول مبتدأ.

آمنوا: فعل ماضٍ، والواو: فاعل، والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول، أشد: خبر الاسم الموصول.

حباً: تمييز منصوب، لله: جار ومجرور متعلقان بحباً.

ولو: الواو: استئنافية، لو: شرطية غير جازمة.

يرى: فعل مضارع، الذين: اسم موصول، فاعل.

ظلموا: فعل ماضٍ، الواو: فاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل

لها من الإعراب، إذ: ظرف لما مضى من الزمان.

يرون: فعل مضارع، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة الظرف إليها.

العذاب: مفعول به منصوب بالفتحة، أن القوة: أن وإسمها.

لله: جار ومجرور، في محل خبر.

جميعاً: حال من الضمير المستكن في الخبر، منصوب بالفتحة.

وأن الله شديد العذاب: الواو: حرف عطف ، وأن وإسمها .

شديد: خبر(إن) مرفوع، العذاب: مضاف إليه مجرور.

والأنداد: جمع ند - بكسر النون - وهو الضد والمثل والنظير والشبيه[١] وليس لله عز وجل ند ، قال تعالى﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢].

وعذبته تعذيباً: عاقبته وأصله الضرب ثم استعمل في العقوبة المؤلمة، واستعماله في الأمور الشاقة على نحو الإستعارة والمجاز كما ورد عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ[٣].

كحب الله: من إضافة المصدر إلى مفعوله، وقد يأتي ذات اللفظ من إضافة المصدر إلى فاعله، ويعرف المراد منه بالقرينة وجاءت القرينة في آية البحث لإفادة الإضافة إلى المفعول على نحو متكرر وسابق لذات اللفظ ومتأخر عنه من جهات:

الأولى : قوله تعالى﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ ونسبة الفعل إلى فريق من الناس.

الثانية : تعقب(يحبونهم) بحرف التشبيه الكاف(كحب).

الثالثة : بيان حب المسلمين لله بقوله تعالى﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ وفيه آية في الثناء على المسلمين بلحاظ كبرى كلية وهي أن المراد

---

(١)أنظر لسان العرب ٣/٤٢٠.

(٢)سورة الشورى ١١.

(٣) مسند أحمد ١٤/٤٦٨.

من(الذين آمنوا) هم الذين صدقوا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأطاعوا الله ورسوله، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1].

وكأن معنى إضافة المصدر إلى المفعول مثل معنى الفعل المبني للمجهول والفاعل محذوف.

ويحتمل وجوهاً:

الأول : حب الكفار لله أي أنهم يحبون الأنداد كما يحبون الله سبحانه.

الثاني : حب المسلمين والموحدين لله عز وجل.

الثالث : إرادة التقدير واللازم في حب العباد لله عز وجل، أي:كما يجب أن يحبوا الله.

الرابع : الحد الأدنى من حب الناس لله عز وجل.

الخامس : المراد الطاعة والإمتثال، إذ يجب إتيان الفرائض والطاعات حباً لله وبقصد القربة.

والصحيح هو الثالث والخامس، إذ جاءت الآية للبيان والحجة والموعظة ووجوب تجلي حب الله بطاعته وطاعة رسوله، وهو من مصاديق قوله تعالى في الثناء على القرآن﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وفي الآية إعجاز يتجلى ببيان حال الكفار من دون الخشية على الناس من الإفتتان بهم، لذا ذكرت الآية إنفراد الله عز وجل بالقوة والسلطان، وأن مشيئته مطلقة وكل الأشياء حاضرة عنده مستجيبة له.

---

(١) سورة النساء ٨٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٣٨.

في سياق الآيات

بعد أن بينت الآيات السابقة بديع صنع الله تعالى والآيات الكونية العظيمة، جاءت هذه الآية بياناً ووعيداً وتوبيخاً لأولئك الذين تتوجه قلوبهم الى حب غير الله وبياناً لمحبة المؤمنين لله عز وجل.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة وهي على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (إستعينوا بالصبر)[1]، وبين هذه الآية ، وفيه مسائل:

الأولى: دعوة المسلمين لإتخاذ الصبر سلاحاً لمواجهة المشركين وأهل الضلالة.

الثانية: الصبر واقية من أسباب الشرك.

الثالثة: التحلي بالصبر دعوة للناس للهداية والإيمان.

الرابعة: إجتماع الصبر والصلاة شاهد على حب المسلمين لله عز وجل.

الخامسة: الصلاة عمود الدين وعبادة بدنية وإعلان عن الإنقطاع للخشوع والخضوع لله، وهو سر ديمومة الحياة في الأرض، وفي الصلاة ترغيب بالإسلام.

السادسة: الصبر والصلاة تنزه عن الظلم.

السابعة : بشارة نصر الإسلام، وهزيمة الكفار لأن الله عز وجل مع المسلمين لصبرهم وتقواهم ، قال تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

---

(١)الآية ١٥٣.

اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

الثاني: الصلة بين آية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: أحب المسلمون الله عز وجل فتفضل وهداهم للقول الحميد.

الثانية: من حب المسلمين لله تعالى خروجهم للجهاد واستشهاد بعضهم في سبيل الله.

الثالثة: الذين يقتلون في سبيل الله، إنما يتعدى عليهم ويقتلهم الكفار الذين يتخذون أنداداً لله، وفيه شاهد على قبح وسوء فعل الكفار.

الرابعة: من شدة حب الذين آمنوا لله تضحيتهم وبذلهم النفوس في سبيل الله عز وجل.

الخامسة: لقد تاب الله عن الذين قتلوا في سبيله فهم أحياء عند الله، أما الكفار فإنهم خالدون في النار.

السادسة: حياة الشهداء عند الله من الجزاء العظيم الذين لا يقدر عليه إلا الله، وفيه توبيخ للكفار، وزجر عن الكفر والضلالة.

السابعة: دعوة المسلمين للحيطة والحذر من الكفار ، لأن بعضهم يجتهد في المكر ويستبسل في الدفاع لحبه للضلالة والطواغيت.

الثامنة: جاءت الآية أعلاه بالثناء على الشهداء خاصة والمسلمين عامة، وجاءت خاتمة هذه الآية (إن الله شديد العذاب) بالإنذار والوعيد للكفار.

التاسعة : نيل الشهداء مرتبة الشفاعة ، وعن الصحابي (عن حذيفة بن

---

(١) سورة القصص ٥.

(٢) سورة البقرة ١٥٤.

اليمان ، عن أبي بكر الصديق قال : أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم ، فصلى الغداة ، ثم جلس حتى إذا كان من الضحى ضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجلس مكانه حتى صلى الأولى والعصر والمغرب والعشاء كل ذلك لا يتكلم ، حتى صلى العشاء الآخرة ، ثم قام إلى أهله ، فقال الناس لأبي بكر : سل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنه ؟

صنع اليوم شيئا لم يصنعه قط ، فسأله ، فقال : نعم ، عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام ، والعرق يكاد يلجمهم ، فقالوا : يا آدم أنت أبو البشر اصطفاك الله ، اشفع لنا إلى ربك ، فقال : لقد لقيت مثل الذي لقيتم ، فانطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم ، إلى نوح (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ، فينطلقون إلى نوح ، فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فإنه اصطفاك الله ، واستجاب لك في دعائك ، فلم يدع على الأرض من الكافرين ديارا ، فيقول : ليس ذاكم عندي ، فانطلقوا إلى إبراهيم ، فإن الله اتخذه خليلا ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : ليس ذاكم عندي ، فانطلقوا إلى موسى ، فإن الله قد كلمه تكليما ، فيقول موسى : ليس ذاكم عندي ، ولكن انطلقوا إلى عيسى ابن مريم ، فإنه يبرئ الأكمه ، والأبرص ، ويحيي الموتى ، فيقول عيسى : ليس ذاكم عندي ، ولكن انطلقوا إلى سيد ولد آدم ، فإنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، انطلقوا إلى محمد ، فليشفع لكم إلى ربكم . قال : فينطلقون وآتي جبريل ، فيأتي جبريل ربه ، فيقول الله : ائذن له وبشره بالجنة . قال : فينطلق به جبريل ، فيخر ساجدا قدر جمعة ، ثم يقول الله تبارك وتعالى : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فيرفع رأسه ، فإذا نظر إلى ربه خر ساجدا قدر جمعة أخرى ، فيقول الله : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فيذهب ليقع ساجدا ، فيأخذ جبريل بضبعيه ، ويفتح الله عليه من الدعاء

شيئا لم يفتحه على بشر قط ، فيقول : أي رب جعلتني سيد ولد آدم ولا فخر ، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، حتى إنه ليرد على الحوض يوم القيامة أكثر ما بين صنعاء ، وأيلة . ثم يقال : ادع الصديقين فيشفعون ، ثم يقال : ادع الأنبياء فيجيء النبي معه العصابة ، والنبي معه الخمسة والستة ، والنبي ليس معه أحد ، ثم يقال : ادع الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله جل وعلا : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئا ، فيدخلون الجنة ، ثم يقول الله تعالى : انظروا في النار هل فيها من أحد عمل خيرا قط ، فيجدون في النار رجلا ، فيقال له : هل عملت خيرا قط ، فيقول : لا غير أني كنت أسامح الناس في البيع ، فيقول الله : اسمحوا لعبدي كإسماحه إلى عبيدي ، ثم يخرج من النار آخر يقال له : هل عملت خيرا قط ، فيقول : لا ، غير أني كنت أمرت ولدي ، إذا مت فاحرقوني في النار ، ثم اطحنوني ، حتى إذا كنت مثل الكحل ، فاذهبوا بي إلى البحر ، فذروني في الريح . فقال الله : لم فعلت ذلك ؟

قال : من مخافتك . فيقول : انظروا إلى ملك أعظم ملك ، فإن لك مثله وعشرة أمثاله ، فيقول : لم تسخر بي ، وأنت الملك ؟ فذلك الذي ضحكت منه من الضحى)[1].

الثالث: الصلة بين آية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[2]، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: يبتلي الله عز وجل المسلمين بصنوف من الإمتحان وهم يجتهدون في طاعة الله.

---

(١) صحيح ابن حبان ٤٨٤/٢٦ .

(٢) سورة البقرة ١٥٥.

و(عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا ابتلى الله المؤمن ببلاء في جسده قال للملك : أكتب له صالح عمله الذي كان يعمل ، فإن شفاه غسله وطهره ، وإن قبضه غفر له ورحمه)[١].

الثانية: ينال المسلمون الثواب والأجر على الإبتلاء، أما الكفار فلا ثواب لهم ، قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٢].

الثالثة: الإبتلاء الذي يأتي للناس عامة والمسلمين خاصة من الشواهد على ما جاء في هذه الآية (أن القوة لله جميعاً)[٣].

الرابعة: من الشواهد على حب المسلمين لله عز وجل تحليهم بالصبر عند الإبتلاء ومطلقاً.

عن أنس بن مالك (قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله إذا أحب عبداً أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً ، ويحثه عليه حثاً ، فإذا دعا قالت الملائكة عليهم السلام : صوت معروف قال جبريل عليه السلام : يا رب عبدك فلان اقض حاجته . فيقول الله تعالى : دعه إني أحب أن أسمع صوته . فإذا قال يا رب . . قال الله تعالى ، لبيك عبدي وسعديك . وعزتي لا تدعوني بشيء إلا استجبت لك ، ولا تسألني شيئاً إلا اعطيتك . أما أن أعجل لك ما سألت ، وأما أن أدخر لك عندي أفضل منه ، وأما أن أدفع عنك من البلاء أعظم منه . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : وتنصب الموازين يوم القيامة ، فيأتون بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصيام فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ويصب عليهم الأجر

---

(١) الدر المنثور ٢٨٣/٩.

(٢) سورة ابراهيم ٥.

(٣) سورة البقرة ١٦٥.

صباً بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية أنهم كانوا في الدنيا تقرض أجسادهم بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل . وذلك قوله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1])[2].

الرابع: الصلة بين آية ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يتجلى حب المسلمين لله عز وجل عند المصيبة بإظهار الصبر والإسترجاع ، وفي حال السراء أيضاً.

الثانية: عجز الكفار عن الإسترجاع وقول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ وحرمانهم من منافعه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من أصيب بمصيبة فأحدث استرجاعاً وان تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثل يوم أُصيب)[4].

ومن خصائص الإسترجاع تعدد منافعه المالية والآجلة على الفرد والجماعة ، فهو مدرسة بالإيمان والخلق الحميد والصبر وهل فيها حرب على الإرهاب ، الجواب نعم ، لما فيها من تفويض الأمور إلى الله.

الثالثة: ظهور التباين بين المسلمين والكفار في حال المصيبة، وكيف أن حب الله سبب لبعث السكينة في النفوس، وأن إتخاذ الأنداد يملأ النفس باليأس والقنوط.

---

(١) سورة الزمر ١٠.

(٢) الدر المنثور ٤٣٨/٨ .

(٣) سورة البقرة ١٥٦.

(٤) الثعلبي / الكشف والبيان ٢٧٧/١.

الخامس: الصلة بين آية ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[١]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: من فضل الله على من يحبونه نزول الصلوات والرحمة عليهم.

الثانية: حب العبد لله شاهد على هدايته ورشاده.

الثالثة: نزول الصلوات والرحمة على المسلمين كأمة وأفراد، وهو من البركات التي تتغشاهم.

الرابعة: الكفار في مصيبة متجددة لإختيارهم الظلم لأنفسهم قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢].

السادس: الصلة بين آية (أن الصفا والمروة)[٣]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل :

الأولى: من حب المسلمين لله عز وجل تعاهدهم لفريضة الحج.

ومن الإعجاز في فريضة الحج توجه الخطاب التكليفي بالحج إلى الناس جميعاً ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[٤].

الثانية: الشوق إلى الله والإقرار بالرجوع إليه يبعث على زيارة البيت الحرام ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾[٥].

الثالثة: أن الله عز وجل شاكر للمسلمين قيامهم بأداء وتعاهد الحج

---

(١) سورة البقرة ١٥٧.

(٢) سورة النحل ١١٨ .

(٣)سورة البقرة ١٥٨.

(٤) سورة آل عمران ٩٧.

(٥) سورة السجدة ٩.

والعمرة.

ومن حب الله عز وجل جواز النيابة في أداء الحج عن العاجز وصاحب المرض المزمن ، والقضاء عن الميت.

و(عن ابن عباس أن امرأة من خثعم سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستمسك على الراحلة، فهل يجزي أن أحج عنه.

فقال : نعم .

فقالت : فهل ينفعه ذلك.

فقال عليه السلام : أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته أما كان يجزي.

قالت : نعم.

قال : فدين الله أحق)[1].

الرابعة: يجتمع المسلمون في موسم الحج كل عام ، أما الكفار فإن حبهم للطواغيت والأصنام سبب لصدودهم عن شعائر الله، وتخلفهم عن الوظائف الشرعية ، وانفاقهم المال بالباطل وهل هو سبب لتجهيزهم الجيوش لمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر وأحد والخندق ، الجواب نعم.

السابع : الصلة بين آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إظهار البينات من حب الله ، قال تعالى ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ

(١) الثعلبي / الكشف والبيان ٣/٢٠٦ .

(٢) سورة البقرة ١٥٩.

اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[١].

الثانية: من حب الله عز وجل للناس بيان الآيات في الكتاب ولكن الكفار يسعون في إخفاء هذه الآيات.

الثالثة: من الهدى الذي ذكرته الآية أعلاه بيان حب المسلمين لله عز وجل.

الرابعة: ترغيب الناس بإظهار البينات، وبيان قبح إخفائها ، قال تعالى ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[٢].

الخامسة: إخفاء البينات من الظلم، وجاءت هذه الآية بالوعيد والإخبار عن العذاب الشديد للذين ظلموا.

السادسة: من أسباب كتمان البينات إتخاذ الأنداد.

السابعة: إخفاء البينات والبشارات من الظلم للنفس والغير ومنع من التحذير من الشرك والضلالة.

الثامنة: كتمان وإخفاء البينات كفر وجحود ، وهل إظهار العلامات والبينات والبراهين الدالة على التوحيد ، ووجوب عبادة الله والمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣]، أم أن القدر المتيقن هو أداء الفرائض العبادية ، الجواب هو الأول .

---

(١) سورة الحج ٣٢.

(٢) سورة الحجرات ٧.

(٣) سورة الذاريات ٥٦.

والمراد أداء الفرائض ومقدماتها لوجوب المقدمة لوجوب ذيها.

ولورود الآية بصيغة الجمع لإفادة التعاون والتآزر في أداء الفرائض وإزالة الموانع عنها ، قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

التاسعة: إنذار الذين يخفون البينات بالعذاب الأليم يوم القيامة.

الثامن: الصلة بين آية ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢)، وهذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: التوبة شاهد على حب الله للعبد ، وحب العبد لله عز وجل.

الثانية: يبعث حب الله على الصلاح، وتهذيب النفوس والأعمال.

الثالثة: بيان الآيات وكشف الحقائق والإعلان عن البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من حب الله.

الرابعة: إن الله عز وجل يتوب على الذين يحبونه ويخلصون في عبادته.

التاسع: الصلة بين آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٣)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى : بيان التباين والتضاد بين المؤمنين الذين يحبون الله، وبين الكفار الذين يصرون على الشرك والضلالة.

ويتجلى هذا التضاد بوضوح في عالم الآخرة بالفعل التام بين المؤمنين

---

(١) سورة آل عمران ١٠٤.

(٢) سورة البقرة ١٦٠.

(٣) سورة البقرة ١٦١.

حيث يقيمون في الجنة ، وبين الكفار الذي تكون النار مثوى لهم ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١). وقوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(٢).

الثانية: إنذار الكفار بالعذاب الأليم ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(٣).

الثالثة: من يتخذ إنداداً من دون الله عليه لعنة الله والملائكة والناس جميعاً.

الرابعة: بيان ضلالة وجهالة الذين كفروا الذين يشركون بالله مع أن القوة جميعاً لله عز وجل.

الخامسة: عجز الأنداد عن نفع المشركين.

العاشر: الصلة بين آية ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(٤)، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: قيام الحجة على الكفار، وعدم إتعاظهم من الآيات.

---

(١) سورة الزمر ٧١.

(٢) سورة الزمر ٧٣.

(٣) سورة الاسراء ١٠٥.

(٤) سورة البقرة ١٦٣ .

الثانية: بيان ضلالة الذين كفروا بإتخاذهم الأنداد ، وتقديسهم وعبادتهم للأصنام.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين الملازمة بين التوحيد وحب الله.

الرابعة: الثناء على المسلمين لإقرارهم بالتوحيد، وإخلاصهم العبادة لله عز وجل وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(١).

الخامسة: أختتمت آية ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾(٢) باسمين من أسماء الله وهما(الرحمن الرحيم) وفيه ترغيب للناس جميعاً بالنهل من رحمة الله والإنقطاع إليه تعالى، ومن رحمته تعالى نزول هذه الآية، وهداية الناس إلى محبته.

الحادي عشر: الصلة بين الآية السابقة آية ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٣) وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى : ذم الذين كفروا لعدم إتعاظهم بالآيات الكونية العظيمة التي تدل على وجوب عبادة الله عز وجل.

الثانية: الآيات الكونية دعوة للناس لحب الله عز وجل.

الثالثة: تجعل الآيات الكونية والتدبر في خلقها وعظمتها الإنسان ينفر من

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة البقرة ١٦٣ .

(٣) سورة البقرة ١٦٤.

الشريك والضلالة وإتخاذ الأنداد ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١) لبيان مسألة وهي عدم إنحصار لفظ ﴿بَدِيعُ﴾ بابتداء الخلق والصنع بل يشمل إنصياع الخلائق لطاعته ، وتدبر الناس في الآيات الكونية ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢).

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين فضح الكفار، وبيان سوء فعلهم بإتخاذ الشريك والند لله عز وجل.

الخامسة: جاءت هذه الآية ببيان حقيقة وهي(أن القوة لله جميعاً) الشواهد عليها بلحاظ الآية أعلاه وجوه:

الأول: خلق السماوات وما فيها من اللامنتهي من الآيات.

الثاني: خلق الله عز وجل للأرض، وما فيها من الجبال وحال الإنبساط وخروج الثمرات.

الثالث : الملك المطلق لله عز وجل للسموات والأرض ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤)(٥).

---

(١) سورة البقرة ١١٧.

(٢) سورة آل عمران ١٩١.

(٣) سورة البقرة ١٦٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨٩.

(٥) أنظر الجزء الرابع والعشرين بعد المائتين من هذا السِفر والذي أختص بتفسير هذه الآية .

إعجاز الآية

في الآية دراسة مقارنة بين المؤمنين والكفار ، وتظهر إعتبار مفاهيم الحب في العقيدة وأثره في العمل، والملازمة بين الغفلة عن ذكره تعالى وبين الظلم.

وفي الآية بيان لقرب الآخرة وكأن وقائعها تدنو بسرعة حتى تحس بها بواسطة البيان وتقريب المدركات العقلية بلغة المحسوسات والظهور التفصيلي لصور عذاب الكافرين، وما ينتظر المؤمنين من النعم وكأنها تدعوهم إليها.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإبتلاء، ومن وجوه الإبتلاء ما يأتي من ذات الإنسان وإفتتان بعض الناس ببعض، فجاءت آية البحث للزجر عن إتباع أهل الغواية والتحذير من سنن الضلالة .

وهذا التحذير من عمومات رد الله على الملائكة حينما إحتجت على جعل الإنسان خليفة في الأرض ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1] .

فمن علم الله عز وجل بيان القرآن لقبح الكفر وفضح الذين ينقطعون إلى حب الأنداد وأهل الشرك وبما يؤدي إلى نفرة النفوس من الكفر الضلالة والغواية، وتبين الآية موضوعية الإعتقاد والحب في عواقب الأمور، ووجود أمة مؤمنة تتعاهد حب العباد لله عز وجل ، وهل هذه الأمة موجودة في كل زمان ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

وبين حب الله وحب غيره من الأنداد والطواغيت تباين في كل فعل وأثر من آثار الحب يتجلى بوضوح لذات المحب ولغيره من الناس من وجوه:

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

الأول : من يحب الله يتوكل عليه، أما غيره فلا يصح التوكل عليه ولا يقدر على الأمر والنهي، وفي إبراهيم عليه السلام وإحتجاجه على إنعدام الإحساس عن الأنداد وعجزهم عن الكلام والإخبار والهداية ورد قوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[1].

الثاني : من يتوكل على الله يفوز بحبه تعالى قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2]، أما الأنداد فانهم لا يفقهون ولا يعلمون بحب غيرهم لهم.

الثالث : حب الله طريق إلى الجنة، وحب الأنداد يقود إلى النار.

الرابع : حب الله إرتقاء في سلم المعرفة تترشح عنه العلوم المكتبسة التي تنفع الإنسان في النشأتين، أما حب الأنداد فانه جهالة وضلالة وعمى يقود إلى الجحيم، قال تعالى ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3].

ومن معاني ورشحات الحب في المقام الإنقياد ليكون في الآية إنذار وتحذير من إتباع الطواغيت والظالمين الذين يأمرون بما لا يريده الله عز وجل.

وفي إخبار الآية عن حال الحب عند الناس والتباين فيه دليل على علم الله عز وجل بما في القلوب وفي التنزيل ورد الثناء على الله ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء ٦٣.

(٢) سورة آل عمران ١٥٩.

(٣) سورة الأسراء ٧٢.

(٤) سورة طه ٧.

ويمكن تسمية هذه الآية الكريمة آية (كحب الله) ولم يرد لفظ(حب الله) في القرآن إلا في هذه الآية.

الآية سلاح

في الآية توكيد على موضوعية الحب ورسوخ الإيمان، وحث على الإرتقاء في منازل المحبة لله تعالى، وإرشاد ودروس للمسلمين في معرفة عقائد الناس وأفكارهم وكيفية القسمة وإرتكازها على التوحيد، وليس على إعتبارات قبلية أو جاهلية، أي أنها تؤسس قواعد جديدة للصلات الإجتماعية والقرب أو البعد أو المقت بين الناس، وفيها دلالة على ترشح الحب عن المعرفة.

وعن أنس أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَتَى السَّاعَةُ، قَالَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ: حُبَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ[1].

لقد ذكرت آية البحث طائفتين من الناس بينهم تناقض وتضاد، وهو مقدمة وإشارة إلى التباين في الإقامة الدائمة للمؤمنين في النعيم، ولبث الكفار في سجن الجحيم ، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [2].

---

(1) مسند أحمد ٣٥٣/٢٥.

(2) سورة هود ١٠٦-١٠٩.

وبدأت الآية بذكر الكفار وإتخاذهم الشريك وحبهم له لتأكيد قبح هذا الفعل، ولزوم أخذ الحيطة والحذر منه ومن أصحابه، ثم ذكرت الآية حال أهل الإيمان وشدة حبهم لله عز وجل وفيه مسائل:

الأولى : تنمية ملكة حب الله في نفوس المسلمين ، وحب العبد لله من الإيمان ، وبين إسلام العبد وإيمانه عموم وخصوصمطلق ، فالإسلام أعم ، قال تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

الثانية : تأكيد علو شأن المؤمنين بأن حبهم لله عز وجل أشد حباً من حب الكفار للأنداد، وهو من مصاديق خطاب الله للمسلمين ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾[2].

الثالثة : دعوة الكفار للتوبة والإنابة والكف عن الميل النفسي والهوى للأصنام والأنداد وكبراء أهل الشرك ، ومحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالسيوف والإفتراء ، وفي التنزيل ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[3].

□

(١) سورة الحجرات ١٤.

(٢) سورة آل عمران ١٣٩.

(٣) سورة الدخان ١٤.

مفهوم الآية

تظهر الآية موضوعية وأهمية الحب في المسائل الكلامية والملاكات العقائدية وتنبه إلى أثر الكيفية النفسية والملكات وتدعو إلى تنمية السجايا الحميدة وتهذيب النفوس وتربيتها وقهرها على حب الله تعالى.

ومن مفاهيم الآية ان حب العبد لله من اهم الأسلحة في ميادين الصبر والدفاع وهوعلى وجوه :

الأول : إنه ملازم للإيمان .

الثاني : هو عون على الفرائض .

الثالث : إنه حرز من الشبهات .

الرابع : له منافع ذاتية وغيرية .

ومن المنافع الذاتية الإرتقاء في عالم المعرفة والسياحة في عالم الملكوت والشوق إلى لقاء الله تعالى وعدم الغفلة، أما الغيرية فهو على وجوه :

الأول : إنه حرب على الكفر .

الثاني : فيه تحد للكافرين .

الثالث : فيه منعة للإسلام ودعوة لدخوله.

وقد أكّد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خطبه الأولى في المدينة على وجوب حب الله ، وأمر المسلمين بأن يحبوا من أحب الله ، وأمر المسلمين بأن يحبوا من أحب الله من غير أن يقيده بالملة والمذهب (عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : كانت أولى خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليضعفن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب

يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم . فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإن بها يُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته ، ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الحمد لله أحمده وأستعينه نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه ، وأدخله في الإِسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس أنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله تعالى وذكره ، ولا تقسوا عنه قلوبكم فإنه من كل يختار الله ويصطفي فقد سماه خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوا الله حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) [1].

وتبين الآية منزلة المؤمنين عند الله ورضاه سبحانه عنهم وعلمه تعالى بما يخفي الإنسان مطلقاً في نفسه مما يعني في مفهومه لزوم الإستحياء منه تعالى والإجتهاد في صفاء السريرة ومنع تسرب الشك والريب وسوء النية والقصد إلى النفس ومحاربة خطرات الشيطان الطارئة على النفس.

وتدعو الآية إلى توظيف الحب والميل النفسي في مرضاة الله وعدم جعله سبباً للشرك ومادة للكفر والضلالة .

---

(١) الدر المنثور ١٨٢/٤.

ومن الإعجاز القرآني ان ترى الحالة النفسية تتداخل في الآية الكريمة مع الوعيد والتخويف للكافرين، لأن الخوف وجه من وجوه التأديب ولكنه جاء للمؤمنين بالإخبار عن لحوقه وتعلقه بغيرهم ليكون درساً وموعظة للمسلمين أي ان المسلمين يؤدبون بتخويف غيرهم لا بمعنى قذف الفزع والرعب في قلوبهم بسبب إدراكهم لما يصيب غيرهم بل بالعكس فإنهم يرون الخوف يدّب في صفوف عدوهم والعذاب ينتظره فتسكن نفوسهم ويرضون بما قسم الله لهم وما وفقهم إليه من الهداية فيزدادون تمسكاً بالإيمان وولاء للإسلام، لذا قالت الآية ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [١] .

ترى ما هي النسبة بين ذكر الله وحب العبد لله ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق ، فحب الله فرع ومصداق لذكر الله ، قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٢] وفي الآية أعلاه ورد عن الإمام علي عليه السلام (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لما نزلت هذه الآية { ألا بذكر الله تطمئن القلوب }[٣] قال : ذاك من أحب الله ورسوله ، وأحب أهل بيتي صادقاً غير كاذب ، وأحب المؤمنين شاهداً وغائباً ، ألا بذكر الله يتحابون)[٤].

فالسلطان مطلقاً بيد الله عز وجل وهو غاية كل مقصد كما إن شدة حب العبد لربه سبب للإتيان بما يوافق إرادته سبحانه ويكون موجباً لمرضاته وقاهراً لعدوه وهو من القوة الغيبية للإسلام إذ يكون للكيفية النفسية الإيمانية أثر خارجي يترجل بازاحة الكفر عن منازله ومنعه من الإتساع والتأثير على النفوس، وفي حبه تعالى إنحسار لسلطان النفس البهيمية والغضبية.

---

(١) سورة البقرة ١٦٥.

(٢) سورة الرعد ٢٨.

(٣) سورة الرعد ٢٨.

(٤) الدر المنثور ٦/٦.

وهل يصح دعاء العبد وسؤاله الله أن يجعل محبته في قلبه وأن يحبه ويجعل الناس يحبونه ، الجواب نعم، فالحب نوع مفاعلة من أطراف :

الأول : المُحب .

الثاني : موضوع الحب .

الثالث : المحبوب .

وفي حب الله أطراف مباركة أخرى منها :

الأول : زيادة الحب كماً وكيفاً بالدعاء .

الثاني : ترشح الأخلاق الحميدة عن حب الله .

الثالث : الأجر والثواب على حب الله .

وتدعو الآية الكافرين الى نزع حب رؤسائهم من النفوس ليتمكنوا من رؤيتهم بحالتهم الحقيقية البائسة ويعرفوا خطأ وسوء ما يفعلون ، وهو من التدارك والنجاة من حال البراءة بينهم يوم القيامة، قال تعالى﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾(١).

الآية لطف

كما أن الدنيا دار إمتحان وإختبار فانها دار الأمان إذ أن طرق الأمن والسلامة فيها أكثر من أن تحصى ومنها إختيارية ومنها ما هو خارج عن إرادة الإنسان وكله من لطف الله عز وجل، ومن هذه اللطف حب العبد لله عز وجل الذي يكون برزخاً دون الفزع والخوف، قال تعالى في الإنسان

---

(١)سورة البقرة ١١٦.

وإكرامه من عند الله ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[١] .

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكل بالمؤمن ثلثمائة وستون ملكاً ، يدفعون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك[٢]، وأخرج ابن جرير عن أبي مجلز قال : جاء رجل من مراد إلى الإمام علي وهو يصلي فقال : احترس؛ فإن ناساً من مراد يريدون قتلك . فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر! فإذا جاء القدر ، خليا بينه وبينه، وأن الأجل جنة حصينة[٣].

لقد جاءت آية البحث بأمرين متضادين يتفرع عن كل واحد منهما أمور ومواضيع كثيرة منها حب الله ويتفرع عنه سجايا وخصال حميدة منها:

الأول : حب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : الرغبة في العمل بأحكام السنة النبوية، قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[٤].

الثالث : قراءة القرآن والإنصات لآياته.

الرابع : إتيان الفرائض في أوقاتها.

الخامس : المبادرة إلى فعل الخيرات، والسعي في فعل الصالحات ، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١].

---

(١) سورة الرعد١١.

(٢) الدر المنثور ٥/٤٨٢.

(٣) الدر المنثور ٥/٤٨٣.

(٤) سورة آل عمران ٣١.

السادس : إيجاد الرضا بالصبر، وإتخاذه منهجاً، ورؤية التجليات التي تترشح عنه، وفي التنزيل ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (٢).

أما الكافر فانه يجزع عند المصيبة، ولا يطيق الأذى والضرر، وهذا الجزع سبب إضافي في ضلالته.

السابع : من يحب الله عز وجل يحب المؤمنين ويجتهد في مسائل :

الأولى : النصح للمؤمنين والمؤمنات في الإستشارة أو النصح ابتداء (عن تميم الداري أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّما الدين النصيحة ثلاثاً) (٣). بالنصح لهم، والتعاون معهم، والسعي في مصالحهم، ودفع الأذى عنهم ويتزين بلباس التقوى ويتجنب المعصية، أما الذي يحب الأنداد فانه يتبع الهوى ويتخذ الإسراف منهجاً.

الثانية: ذكر الله في السراء والضراء ، ورجاء فضله وإحسانه ، ويمكن تسمية الحياة الدنيا دار الرجاء ، لذا تفضل الله عز وجل وجعل كل مسلم ومسلمة يتلوان سورة الفاتحة سبع عشرة مرة في اليوم والليلة ،وعلى نحو الوجوب العيني ، وبحال الوضوء والطهارة والخشوع ،ومن الإعجاز أن كل آية من آياتها رجاء وأمل ودعاء وهي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران ١٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١٤٦.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٢٢٣/١٣.

(٤) سورة الفاتحة ١-٧.

الثامن : يبعث حب الله على الإنفاق في سبيله طلباً لمرضاته، ورجاء النماء والبركة ، أما حب الأنداد فانه طريق للسعي للدنيا وإيثار الذات بالحق والباطل.

التاسع : ترشح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن حب الله عز وجل.

العاشر : يبعث حب الله السكينة في النفس، قال تعالى﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] ، ويجعل حب الأنداد الصدر ضيقاً وتملأ النفس الحسرة.

الحادي عشر : حب الله عناية بالنفس ودرأ للأخطار عن الذات الإنسانية، أما حب الأنداد وإختيار الضلالة فهو مجلبة للأذى والضرر المتصل، وهذا الأذى من رحمة الله بالناس من جهات:

الأولى : إبتلاء الكافر بما يجعله يدرك قبح الكفر، ويصده عن التمادي في الغي.

الثانية : دعوة الناس للتوبة والإنابة.

الثالثة : دفع الإنسان للجوء إلى الله في حال الشدة والضراء ليكون مقدمة لذكره لله في حال الرخاء والسراء.

الثاني عشر : الذي يحب الله يشتاق للآخرة، ويعمل لها، ولا همّ لمن يحب الأنداد إلا الدنيا وزخرفها، قال تعالى﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[2].

إفاضات الآية

(1) سورة الرعد ٢٨.

(2) سورة الشورة ٢٠.

تجعل الآية موضوعية للحب والميل النفسي في باب العقائد وسنخية الأعمال، فالذين آمنوا أشد حباً لله لأنهم يتقيدون بأداء الوظائف العبادية، ويأتمرون بأمر الله ويجتنبون ما نهى عنه، أما الحب بين الكفار والأنداد فلا يقوم إلا على الهوى والجهالة والظلم وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1] .

وفيه آية بأن الفرد والجماعة إذا ظلموا أنفسهم فان الله عز وجل لا يتركهم في غيهم، بل يتفضل بأمور:

الأول : ذم الكفر وحب الشريك والطواغيت.

الثاني : حب الأنداد من ظلم للنفس.

الثالث : الإخبار عن العذاب الأليم للكفار يوم القيامة.

الرابع : بيان الحسن الذاتي للإيمان وحب العبد لله عز وجل، وتترشح عن هذا الحب مصاديق لاتحصى من الرحمة والتراحم بين الناس والصلاح والسعي في مقامات التقوى، وهو من أسرار نفخ الله من روحه في آدم، قال تعالى ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾[2].

ومن دلالات آية البحث منع الإصغاء إلى أرباب الضلالة وإتيان الأفعال التي يقود لها الشرك ومنها الإنقطاع إلى الدنيا واللهث وراء مباهجها والكسب الحرام، ومن خصائص الحب إيلاء عناية خاصة بالمحبوب حتى في حال غيابه وفراقه، فاذا إنزوت عن الكافر الدنيا فانه يشتد في السعي لها بظلم النفس والغير ومقدمة الحرام حرام.

---

(١) سورة التوبة ٧٠.

(٢) سورة السجدة ٩.

فجاءت آية البحث لتنزيه الناس عن الكسب الحرام، ويتجلى هذا التنزه بوجوه :

الأول : حب الله ورسوله.

الثاني : إتيان الفرائض العبادية والتحلي بمكارم الأخلاق لإستحالة إجتماع الضدين ، بدليل قوله تعالى ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (1) فأداء الصلاة والواجبات العبادية برزخ وواقية من الكسب لحرام ، ومن التعدي والظلم ، وحاجل دون الإرهاب .

الثالث : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بالإضافة إلى المسارعة في الخيرات بالمتيسر ولو الكلمة الطيبة والصدقة والمودة العامة بين الناس (عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله ، من أين نتصدق وليس لنا أموال؟

قال : أن من أبواب الصدقة التكبير ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله واستغفر الله ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعزل الشوك عن طريق الناس ، والعظم والحجر ، وتهدي الأعمى ، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه ، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشدة ذراعيك مع الضعيف ، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك ، ولك في جماعك زوجتك أجر ، قال أبو ذر : كيف يكون لي أجر في شهوتي؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أرأيت لو كان لك ولد فأدرك فرجوت أجره فمات أكنت تحتسب به؟

قلت : نعم .

---

(1) سورة العنكبوت ٤٥.

قال : فأنت خلقته؟

قلت : بل الله خلقه .

قال : فأنت هديته؟

قلت : بل الله هداه .

قال : فأنت كنت ترزقه؟

قلت : بل الله كان يرزقه .

قال : فكذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامه ، فإن شاء الله أحياه وإن شاء أماته ولك أجر) [١].

و(عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض) [٢].

الرابع : التقيد بسنن التقوى والخشية من الله عز وجل ، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٣]وعن عبد الرحمن بن الحارث بن أبي قراد السلمي قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعا بطهور ، فغمس يده فيه ، ثم توضأ ، فتتبعناه ، فحسوناه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما حملكم على ما صنعتم ؟

قلنا ، حب الله ورسوله قال : فإن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا ائتمنتم ، واصدقوا إذا حدثتم ، وأحسنوا جوار من جاوركم[٤].

---

(١) الدر المنثور٢/٢٢١.

(٢) الدر المنثور ٢/٤٦٩.

(٣) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني ١٤/٢٨٣.

فذكر الصحابة حبهم لله ورسوله فذّكرهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلزوم السعي إلى نيل حب الله ورسوله والفوز بمرضاة الله بالأخلاق الحسنة التي هي مرآة الإيمان ودعوة للناس لدخول الإسلام.

إن شوق النفس إلى الله عز وجل ولقائه باعث للسرور والغبطة، وواقية من الكآبة والحزن وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]، بلحاظ المعنى الأعم للآية أعلاه وعدم إختصاصها بالدار الآخرة فتشمل أيام الحياة الدنيا.

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بحرف العطف (الواو) مما يدل على إتصال موضوعها بموضوع الآية السابقة التي تتضمن بديع صنع الله وعظيم قدرته وسلطانه في خلق السموات والأرض وجريان أنظمتها بدقة متناهية تدعو إلى عبادة الله وحبه والثناء عليه .

ولكن شطراً من الناس إتخذوا الأنداد جحوداً بالنعم وإصراراً على الضلالة ليكون من أسرار العطف في المقام بيان قبح الكفر والضلالة، وبعث الناس على التفكر في ظلم الكفار لأنفسهم وقيام الحجة بالبراهين الكونية عليهم ، قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾[2].

---

[1] سورة البقرة ٢٧٧.

[2] سورة فصلت ٥٣.

وجاءت الآية بصيغة التبعيض (من الناس) وذكر كفرهم وضلالتهم باتخاذ الأنداد، وفيه تحذير للمؤمنين من الكفار، قال تعالى﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾[1].

وتلك آية في صيغة الجملة الخبرية بأن تكون من دلالتها ومفهومها إحتراز المسلمين من أسباب الضلالة وأهل الجحود، وتضمنت الآية التفصيل في حال الكفار من جهات :

الأولى : إتخاذ الكفار أنداداً.

الثانية : الإخبار عن كفر المشركين لأنهم يعبدون ويطيعون الأنداد من دون الله سبحانه.

الثالثة : حب الكفار للأنداد من الأصنام والطواغيت كما يجب عليهم من حب الله والإنقطاع إلى أوامره ونواهيه .

وتكرر موضوع الحب في الآية ثلاث مرات مع التباين في موضوعه، وذكر حب الله مرتين، وبصيغة الإسم، التي تعني الإستدامة بينما ذكر حب الكفار للأنداد مرة واحدة وبصيغة الجملة الفعلية المتزلزلة، وهل لآية البحث موضوعية في تزلزلها الجواب نعم، من جهات:

الأولى : صيرورة الكفار في حال حسرة وندامة في إختيارهم حب الأنداد.

الثانية : إخبار الناس عن جهالة الكفار من أهل الشرك لما فيه من الضلالة والجحود، قال تعالى﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2].

---

(1) سورة آل عمران ١١٨.

(2) سورة الفرقان ٤٤.

الثالثة : دعوة الناس للإقتداء بالمؤمنين في الإنقطاع لحب الله وما يترشح عنه من الانقياد لأوامره واتباع رسله.

الرابعة : زجر الكفار والناس جميعاً عن حب الأنداد للغة التخويف والوعيد التي تتضمنها آية البحث، والتي بينت قانوناً ثابتاً ومستديماً وهو أن حب المؤمنين لله أشد حباً من حب الكفار للأنداد والطواغيت وفيه وجوه :

الأول : إنه حجة دائمة على الخلائق .

الثاني : فيه شاهد على أهلية الإنسان للخلافة في الأرض كما في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]

الثالث : فيه مدح للمؤمنين وإخبار عن إخلاصهم في طاعة الله.

ثم إنتقلت الآية لذكر عالم الآخرة وشدة عذاب الكفار يوم القيامة، ومن الإعجاز أن موضوع الآية هو حب الكفار للأنداد وحب المؤمنين لله، إلا أنها ذكرت نزول العذاب بالذين ظلموا، وبينهم وبين الذين يحبون الأنداد عموم وخصوص مطلق، إذ أن الذين ظلموا أكثر وأعم وهو من إعجاز القرآن، قال تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2].

وتخبر الآية عن كشف الحقائق وبيان سنخية الأفعال في الآخرة، وعجز الأنداد عن نصرة أتباعهم والذين أحبوهم أو الشفاعة لهم، قال تعالى في ذم وتوبيخ الظالمين ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[3].

وتكررت مادة (يرى) مرتين في الآية، ويتعلق كل منهما بالكفار وحال العذاب والحسرة التي يلاقون في الآخرة.

---

(1) سورة البقرة ٣٠.

(2) سورة الشعراء٢٢٧.

(3) سورة الأنبياء ٩٨.

وتبين الآية أن العذاب الشديد لا يقدر عليه إلا الله، ويدل في مفهومه على أن المؤمنين في أمن وسلامة منه، وتكرر لفظ الجلالة خمس مرات في الآية الكريمة مما يجعل لها خصوصية بين آيات القرآن، وفيه مسائل:

الأولى : مجئ الآية بمضامين التوحيد.

الثانية : الدلالة على أن حب الله من أفراد ومصاديق عبادته.

الثالثة : يريد الله عز وجل من عباده أن يحبوه، ويتركون الأنداد و(عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي) [١].

الرابعة : ذكرت الآية الأنداد مرة واحدة، وبصيغة المفعول به وبخصوص الحب وحده، مما يدل على وهن وعجز الأنداد، وتكرر لفظ (العذاب) في الآية مرتين ويتعلق بما يلقاه الكفار، وفي هذا التكرار مسائل:

الأولى : في هذا التكرار تنبيه إضافي ودعوة للناس جميعاً للنفرة من حب الأنداد ، قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [٢] وقال ابن عطية (وقوله تعالى : { واصبر على ما يقولون } الآية ، قيل هي موادعة منسوخة بآية السيف ، والمراد بالآية قريش . وقال بعض العلماء : قوله { واهجرهم هجراً جميلاً } منسوخ) [٣] .

ولا دليل على النسخ ونسبة القول بالنسخ إلى بعض العلماء ليس بحجة والأصل هو عدم نسخ الآية .

الثانية : إنه باعث على الإعراض عن الطواغيت .

---

(١) الدر المنثور ٦٧/٩.

(٢) سورة المزمل ١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤٤١/٦.

الثالثة : العزوف عن مفاهيم الشرك والضلالة.

الرابعة : من معاني التكرار والإعادة التأكيد لجعل الناس يستحضرون عالم الآخرة، وشدة عذاب الظالمين حينئذ ، قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (١).

الخامسة : طرد الغفلة والجهالة عن الناس، وهو من رحمة الله، وفي الآية دلالة بأن الله يرحم الناس جميعاً في الدنيا فحتى في حال ميل الكفار إلى حب الأنداد فان شآبيب الرحمة تصل إليهم بالتنزيل بلزوم الإلتفات إلى وظائفهم العبادية وقبح ما هم عليه من الضلالة.

وبين العذابين في آية البحث عموم وخصوص مطلق، فلفظ العذاب الأول ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ (٢) خاص بالظالمين ومنهم الذين يحبون ويطيعون الأنداد .

أما العذاب الثاني فهو أعم ويراد بيان شدة العذاب الذي ينزل بالذين ظلموا والكفار والذين حملوا الناس على طاعتهم في الظلم والتعدي وأسباب الجحود.

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : بيان خصلة قبيحة عند فريق من الناس وهي حبهم للأنداد والأوثان ، ليكون من غايات نزع هذا الحيف من النفوس سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من هجوم المشركين عليهم ، فان قلت قد هجموا في معركة بدر وأحد والخندق بجيوش عظيمة لإرادة قتل النبي محمد

---

(١) سورة البقرة ١٧١.

(٢) سورة البقرة ١٦٥.

صلى الله عليه وآله وسلم ووقف التنزيل واستئصال الإسلام ، الجواب هذا صحيح ولا يعلم منافع هذه الآيات في عزوف الناس عن نصرة رؤساء الكفر إلا الله عز وجل ، وهل لهذا المنافع موضوعية في القطع ، وكبت الكفار بقوله تعالى ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾[1].

الثانية : الإنذار والتحذير من الجحود والكفر.

الثالثة : حرمة إتخاذ الإنداد، وأخذ الحائطة من مفاهيم الشرك والضلالة، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله تعالى﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ قال : فأخبرني ليث بن أبي سليم ، عن ابن محمد ، عن حذيفة بن اليمان ، عن أبي بكر إما حضر ذلك حذيفة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أبي بكر ، وإما حدثه إياه أبو بكر ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل .

قال أبو بكر : يا رسول الله ، وهل الشرك إلا ما عُبِدَ من دون الله ، أو ما دعي مع الله؟! .

قال : ثكلتك أمك ، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ، ألا أخبرك بقول يذهب صغاره وكباره؟ أو قال : لصغيره وكبيره؟

قال : بلى .

قال : تقول كل يوم ثلاث مرات :اللهم اني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك لما لا أعلم . والشرك ، أن تقول أعطاني الله وفلان والند ، أن يقول الإنسان : لولا فلان ، قتلني فلان [2].

الرابعة : بيان العقاب الأليم الذي يترتب على حب الكفار للأنداد.

---

(1) سورة آل عمران ١٢٧.

(2) أنظر الجزء الواحد والثمانين من هذا السِفر الذي أختص بتفسير هذه الآية الكريمة .

الخامسة : حب الأنداد ظلم للنفس، وسبب لنزول العذاب.

السادسة : ثناء الله عز وجل على نفسه والإخبار عن إنحصار القوة به تعالى وهو سبحانه قادر على كل شئ، وفي هذا الإخبار أمور:

الأول : الترغيب بالإيمان ، قال تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [1].

الثاني : الدعوة للإسلام بالحجة والبرهان ، ومنه بيان عظيم صنع الله ، وقربه من الناس ، واستجابته الدعاء وبغضه للكافر ، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [2].

الثالث : الإنقياد إلى الله في أحكام الحلال والحرام.

الرابع : نفرة النفوس من حب الأنداد.

الخامس : إنقطاع العبد للدعاء وسؤال الحاجات من عند الله، وفي التنزيل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [3].

---

(1) سورة محمد ١٤.

(2) سورة النحل ١٢٥.

(3) سورة الفاتحة ٥.

ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية وجوب قراءة كل مسلم ومسلمة لهذه الآية سبع عشرة مرة على نحو الوجوب العيني ، وفي حال خشوع وخضوع في الصلاة اليومية بلحاظ أن مجموع الصلاة اليومية سبع عشرة ركعة وهي كالأتي:

أولاً : صلاة الصبح ركعتان .

ثانياً : صلاة الظهر أربع ركعات .

ثالثاً : صلاة العصر أربع ركعات .

رابعاً : صلاة المغرب ثلاث ركعات .

خامساً : صلاة العشاء أربع ركعات .

السابعة : الثناء على المؤمنين لحبهم لله عز وجل وإخلاصهم في طاعته، وصيرورة هذا الحب والثناء عليه حجة على الناس ودعوة لهم لدخول الإسلام.

الثامنة : تذكير الناس بعالم الآخرة ووجوب الإستعداد له بحب الله وطاعته، ونبذ مفاهيم الشرك والضلالة.

التاسعة : الملازمة بين الظلم في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ويكون في المقام وفق القياس الإقتراني:

الكبرى : يلقى الظالم العذاب يوم القيامة.

الصغرى : الذي يحب الأنداد ظالم.

النتيجة : يلقى الذي يحب الأنداد العذاب يوم القيامة.

العاشرة : تعقب الندامة والحسرة والخسارة لحب الأنداد لأنه ظلم للنفس قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾[1].

---

(1) سورة الفرقان ٢٧.

معالم الإيمان/ج٢٨ـــــــ

التفسير

قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾

الأولى : الآية دعوة للإهتمام والإلتفات إلى خطابات القرآن بصيغة ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وما فيها من وجوه الإنذار والوعد والوعيد.

الثانية : توهين الشرك لوروده على نحو التبعيض سواء كان تبعيضاً مقيداً بزمان مخصوص او مطلقاً.

الثالثة : الآية إخبار سماوي عن واقع متخلف ووثني وذم للشرك الصريح ، وفي التنزيل ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [1] لبيان وجوب تأديب الناس أبنائهم على نبذ الشرك ، والتنزه عن مفاهيم الكفر ، ولم يرد لفظ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

الرابعة : تبين الآية منعة وعز الإيمان لأن بعض الناس يتخذ الضلالة منهجاً، أي أن الآية في مفهومها تدل على رجحان لغة الإيمان.

الخامسة : الآية بشارة إتساع رقعة الإسلام لأن حصر الشرك بالبعض والطائفة من الناس إخبار عن كثرة أهل الإيمان.

السادسة : مع وجود وكثرة الآيات الكونية العظيمة فان الناس مشارب شتى والمائز بينهم ما تقدم في الآية السابقة وهو التدبر وتوظيف العقل في معرفة هذه الآيات.

السابعة : هل الكافرون من العقلاء، الجواب: نعم، ولكنهم تركوا إستعمال العقل لما خلق له، وعطلوه عن عمله الأساسي ومسؤولياته، فتسلل

---

(١) سورة لقمان ١٣.

الكفر والجحود إلى نفوسهم.

الثامنة : الإثم في الآية مركب فمع الكفر والشرك يكون الحب للباطل، وهذا الحب يميت القلب ويجعل عليه غشاوة تحول دون الإستبصار ورؤية هذه الآيات الكونية العظيمة ، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

التاسعة : التشبيه لبيان لزوم حب الناس لله عز وجل بدرجة رفيعة ومتداخلة وتجتمع فيها مضامين العبودية واللجوء والإستجارة والإستعانة مما يجعل النفوس تنقطع إليه تعالى وتتجلى مفاهيم شدة الحب بالصلاح والتقوى.

العاشرة : هل تعني الآية إن الكفار يحبون الأنداد كحبهم لله بعرض واحد، أم أنهم يحبونهم من دون الله عز وجل ولا ينشغلون إلا بحب الأنداد، الظاهر هو الأول، فلا بد من مرتبة لحب الله ثابتة في النفوس وأن كان الكفر وإتخاذ الإنداد برزخاً دون ظهورها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

الحادية عشرة : (من) في ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ تفيد التبعيض أي شطر وطائفة من الناس، وهل المراد بالناس هنا الإطلاق فيشمل كل إنسان كما في قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ فيخرج المسلمون منه بالتخصيص، الجواب: نعم، وكأن في الآية موضوع جهاد بين جنس الإنسان للأخوة في الخلق والغاية الإلهية

---

(١) سورة الجاثية ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء ٩١.

منه قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[1].

الثانية عشرة : التقسيم في الآية لم يذكر إلا فريقين ، وهناك أكثر من قسيم يمكن ان يكون معهما مثلاً:

الأول : فريق يتخذ من دون الله أنداداً ولا يحبونهم.

الثاني : يحبونهم أقل مما يحبون الله.

الثالث : فريق يحبون الله ولكن ليس أشد وأكثر حباً من حب هؤلاء الكفار والظالمين للأنداد.

الرابع : فريق برزخ متذبذب في حبه.

الخامس : فريق أجنبي عن موضوع الحب العقائدي.

ومن فضل الله على الناس أنه يرزقهم ويدفع عنهم جميعا ، قال تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[2].

الثالثة عشرة : من إعجاز الآية أنها تناولت أظهر قسمين، ولا يعني إغفال الأقسام الأخرى، وكأنها فروع لهما أو تليهما في الرتبة.

الرابعة عشرة : هل المراد من الحب في الآية الميل والرغبة، أم أنه بمعنى الإرادة والطاعة والإمتثال .

الأقوى هو الثاني خصوصاً وأن الثواب والعقاب على الأعمال وليس فقط على ما يضمره الإنسان في القلب.

الخامسة عشرة : الآية نوع إصلاح للنفوس، وتنقية للأفكار والميول ،

---

(١) سورة النساء ١.

(٢) سورة الأسراء ٢٠.

وتوبيخ على الضلالة في الهوى.

السادسة عشرة : تدل الآية على ترتب العقاب على الظلم، ولكنه لا يمنع من إعتبار الحب بمعنى ميل الطبع.

السابعة عشرة : الآية دعوة للصبر وعدم تسرب القنوط إلى النفس الإيمانية عند رؤية الكافر مقيماً على الكفر ، مصراً على عبادة الأوثان ، ممتطياً التحريف ومرتدياً زي الجحود ، وفي التنزيل ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [1] ولم يرد لفظ ﴿يَمُدُّهُمْ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه.

الثامنة عشرة : من إعجاز الآية أن الإخبار عن الثواب والعقاب يأتي متعقباً لتقسيم الناس على أساس الإيمان والتوحيد، فالحال المركب للإختيار والإبتلاء في الدنيا تقابله صورتان متغايرتان للجزاء في الآخرة.

التاسعة عشرة : تحث الآية المسلمين على حب الله ، وهو نوع معرفة به تعالى ويعين على إتيان الفرائض والمستحبات بشوق ورضا، إذ أن الحب يتجسد بالطاعة وإخلاص العبودية وحسن الإمتثال للأوامر الإلهية.

العشرون : حب الله عز وجل وسيلة للتفاني والتضحية في سبيله ورجاء ما عنده ، والإستغناء والرضا بفضله ، وعن (ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من طلب ما عند الله ، كانت السماء ظلاله والأرض فراشه ، لم يهتم بشيء من أمر الدنيا . فهو لا يزرع الزرع وهو يأكل الخبز ، وهو لا يغرس الشجر ويأكل الثمار؛ توكّلاً على الله وطلب مرضاته فضمن الله السموات السبع والأرضين السبع رزقه ، فهم يتعبأون به ويأتون به حلالاً ، واستوفى هو رزقه بغير حساب عبد الله حتى أتاه

(1) سورة البقرة ١٥.

اليقين)[1].

الحادية والعشرون : حب الله يزرع في النفوس الشوق للقائه سبحانه ويهون ويخفف الخشية من نزول الموت، قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2].

الثانية والعشرون : تصلح الآية نفوس المسلمين ليوم القيامة وتخفف حال وأثر الفزع من أهواله التي جاءت واضحة في الكتاب والسنة، وبعض الأحاديث تتعرض لها تفصيلاً وكأنها واقعة الآن.

روي أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: "يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: ما أعددتَ لها؟ فقال الإعرابي: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: المرء مع من أحب".

وهذا الحديث في مفهومه إنذار للمشركين ووعيد للكافرين وإخبار صريح عن دخولهم النار بسبب الحب للأنداد ولو كان مجرداً عن الفعل لما فيه من الحجب عن إداء الواجبات العبادية ومخالفته للتقوى ، بالإضافة إلى ظهور منطوقه في دعوة المسلمين إلى الإخلاص والتفاني في محبة الله تعالى.

الثالثة والعشرون : في الآية إخبار عن تحد يواجه المسلمين ويدعو لتوجه النفوس إلى الإنقطاع إلى محبته.

الرابعة والعشرون : الآية تحذير للمسلمين ودعوة إلى جمع صفوفهم للدفاع عن العقيدة لما يعنيه حب الأنداد والطواغيت من الترجل ببغض وعداء للمسلمين ، لذا فان آية البحث من آيات الإنذار .

---

(١) الدر المنثور ٦/١١٧.

(٢)سورة الرعد ٢٨.

الخامسة والعشرون : من الصعب القول أن الحب لا يخرج إلى الواقع بأفعال تدل عليه فلذا جاء الذم للأسباب والمقدمات النفسية.

السادسة والعشرون : الحب حالة يجدها العبد في نفسه بإختياره، فنبهت الآية الكريمة إلى لزوم توظيفها في مرضاة الله تعالى ، ليكون من إعجاز الآية إخبارها عن علم الله عز وجل بما في السرائر ، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[1].

السابعة والعشرون : الحب من الأمور التوليدية فيتفرع عن حب الله عز وجل التدبر في بديع صنعه والتعظيم الدائم له والسعي لرضاه والإستئناس بذكره والإستبشار بطاعته وحب أوليائه، والخوف والخشية من معصيته.

الثامنة والعشرون : الحب عنوان جامع تقع تحته مراتب متعددة، وإن صدق الاسم على كل منها، والآية تدعو إلى إستيلاء حب الله على قلب العبد، والأنس بطاعته والوحشة ممن سواه ، ومواجهة مصائب الدنيا بالذكر والإسترجاع والشكر له تعالى ، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾[2] لبعث الناس على الطمع فيما عند الله والتسليم بالمعاد .

التاسعة والعشرون : الآية تدعو إلى شكر الله تعالى، إذ أن محبتنا له نوع هداية ولطف منه سبحانه، قال تعالى﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾[3].

الثلاثون : محبة العبد للباري عز وجل تفتح أمامه آفاقاً من المعرفة، وتخلصه من شوائب الدنيا وهمومها المتلاحقة، وتذلل المشاق التي تحول دون الإنقطاع إلى طاعته.

---

(١)سورة غافر ١٩.

(٢)سورة العنكبوت ٥.

(٣)سورة لقمان ١٢.

آيات ذم الأنداد

وقد ذكر لفظ ﴿أَندَادًا﴾ ست مرات في القرآن احدها آية البحث ، والآيات الخمسة الأخرى هي :

الأولى : قال تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١) وتتضمن تأكيد خلق الله عز وجل للأرض والسماء ، وأنه هو ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٢) وتزجر الآية عن إتخاذ الشريك والند لله عز وجل .

الثانية : قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٣) لبيان الضرر الذي لحق الذين كذّبوا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي هي نعمة وخير محض ، فصاروا سبباً للبلاء لهم ولمن تبعهم على الكفر (عامر بن واثلة سمعت علي بن أبي طالب ح يقول في قوله {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا} الآية قال : هم كفار قريش الذين نحروا يوم بدر.

قال عمر بن الخطاب (ح) : هما الأفجران من قريش بني أُمية، فأما بنو أُمية(٤) فمتعوا إلى حين .

وأما بنو مخزوم فأُهلكوا يوم بدر) (٥).

والأنداد هنا الأوثان .

---

(١)سورة البقرة ٢٢.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٣٢٣/٧.

(٣) سورة إبراهيم ٣٠.

(٤) سقط سهواً من الأصل (بني مخزوم).

(٥)سورة إبراهيم ٣٠.

بحث عرفاني

الحب من المفاهيم الوجدانية المعروفة، وحالة نفسانية وكيفية قلبية وميل باتجاه المقصود بالمحبة، فتنجذب النفس طوعاً أو إنطباقاً إلى المحبوب سواء كان الحب لمدركات عقلية أو أسباب عاطفية قلبية أو غيرها، وهو من الكليات المشككة موضوعاً ومحمولاً، فحب المال والجاه والغذاء على درجات ومراتب متفاوتة وهو غير حب العقيدة والمبدأ والسعي عن إدراك وبلوغ المقاصد السامية فيها.

وحب الله عز وجل من أوليات الإيمان والخطوة الضرورية في مراتب الكمالات الإنسانية وهو على وجوه:

الأول : إنه سبيل نيل الحظوة والكرامة .

الثاني : هو آلة التخلص من الكدورات الظلمانية .

الثالث : هو حرز من إستيلاء الشيطان على النفس وسبيل للتخلص من أمراض النفس.

الرابع : حب الله المترشحة عليها من الإشتغال بالدنيا ومنها الغرور والكبرياء، حب الله طريق للسلامة في الدنيا والنجاة في الآخرة ، قال تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [1].

الخامس : ينفرد حب العبد ومن غيره بانه علة للسكينة ، لذا قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [2] .

السادس : حب الله مدد وعون للعبد .

(١) سورة النساء ٤٥.

(٢) سورة الرعد ٢٨.

السابع : حب العبد لله كنز وذخيرة ليوم المعاد ، ولا يعلم جزاءه إلا الله عز وجل ، ولا يعني هذا أنه بدل أو عوض عن أداء الفرائض لذا ورد عن أنس قال (كَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه مَتَى قِيَامُ السَّاعَةَ وَأُقِيمَتْ الصَّلَاةُ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاته قَالَ أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةَ قَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّه قَالَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا قَالَ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ عَمَلٍ لَا صَلَاةَ وَلَا صِيَامَ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ

قَالَ أَنَسٌ فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ بِشَيْءٍ مَا فَرِحُوا بِهِ)[1].

وحب الله عبارة عن طاعته والإمتثال لأوامره والشوق إلى لقائه، فهو ليس مثل حب النفس الشهوانية المتعلق بالأجسام ومحمولها.

والحب موضوع له أثر ظاهر في الأعمال، وهو قوة محركة لها فلذا جاءت الآية لتحديد مساره وتنقيته.

قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

الضمير (هم) في يحبونهم عائد للأنداد ، وفيه وجوه:

الأول : آلهتهم من الأوثان التي كانوا يعبدونها، وبه قال قتادة ومجاهد وكثير من المفسرين.

الثاني : رؤساؤهم الذين يطيعونهم طاعة الأرباب من الرجال، عن السدي .

الثالث : تبين الآية أثر الحب في تعيين الإعتقاد وأنماط السلوك.

الرابع : الآية أعم، فالأوثان كالتي كسرها إبراهيم الخليل عليه السلام،

---

(١) مسند أحمد ١٢١/٢٤.

كان المشركون يحبونها وأرادوا قتل إبراهيم عليه السلام مع أنه لم يكسرها إلا في حب الله عز وجل ، وبعد أن كسرها إبراهيم عليه السلام جعل الفأس في رقبة الصنم الأكبر الذي هو في الصدارة مقابل باب بيت الأصنام، وفي التنزيل ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[1].

الخامس : الآية عامة في نبذ وذم كل طاعة وإستجابة في غير مرضاة الله.

السادس : الظاهر أن الحب في الآية يبرز على الجوارح والأعمال فيقربون إلى آلهتهم وما يتخذونه نداً لله عز وجل القرابين والهدايا وينذرون لهم النذور، ويتجنبون غضبهم أو ما يخيل إليهم أنه يسبب سخطهم، وفي التنزيل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2].

السابع : يتمثل هذا الحب القبيح بطاعة الأنداد وإن كان خلاف أحكام الشريعة.

الثامن :تعلق الحب بالأنداد دلالة عقلية ووجدانية على الضلالة، وحالة الوهم التي يعيشون لإنفراد الله عز وجل بالقدرة المطلقة.

التاسع : تظهر الدراسة المقارنة التي تبدو في الآية فضل الله تعالى على المسلمين في سلامة الحالة النفسية.

العاشر : وصف حالة الكفار والمشركين وما هم عليه من الكيفية النفسانية والوهم عون للمسلمين في تحديد كيفية التصرف معهم وإيجاد الصيغ المناسبة لمخاطبتهم ودعوتهم للإسلام.

---

(١)سورة الأنبياء ٦٢-٦٣.

(٢)سورة الزمر ٣.

الحادي عشر : في الآية إعجاز يتمثل بكشف القرآن للكفار وقراءة ما في قلوبهم، قال الله تعالى في ذم الكفار وما نزل بهم من البلاء والشقاء﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

الثاني عشر : توبيخ المشركين على سوء توجيه إرادة الحب وتضييعها، وجعلها حائلاً دون معرفة حقائق الأشياء، وإن الذين يحبونهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً ، ومن إعجاز الآية استئصال إعانة المشركين في حربهم على النبوة والتنزيل من الأصل بتسبيح النفوس من الوقاية من حب وتقديس الأصنام ، ومن طاعة رؤساء الشرك بالباطل ، وهو من إعجاز القرآن بذمه لمفاهيم الشرك وتأكيد موضوعيةالحب والميل النفسي في إختيار منهاج العمل لذا تفضل الله عز وجل على المسلمين والمسلمات ، وجعل كل واحد منهم يتلو سبع عشرة مرة في اليوم قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢).

الثالث عشر : تؤكد الآية على إمساك المحبة وعدم هباءً وتنهى عن التفريط بها وجعلها تابعة للهوى والشهوة، وتحث على توجيهها في مرضاة الله، فتكون حينئذ سبيلاً للهداية ولترسيخها في أعماق النفس وفي الجوارح والأركان والأعمال.

الرابع عشر : الذم الوارد في الآية يشمل الذي يتخذون الأصنام الجسمية والأوثان أرباباً، وأصحاب العقائد الفاسدة التي تدفعهم للتعلق بأوهام وتخيلات يميلون إليها لغلبة الشهوة والهوى والقصور عن إدراك المعارف الحقة.

الخامس عشر : خطرات الشيطان وإغواؤه له مراتب تشكيكية متباينة، قد تشتد أو تضعف، ويمكن القول بقانون وهو كل آية قرآنية حصن منها

(١) سورة الأنعام ٤٣.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

سواء في تلاوة الآية او التدبر في معانيها ودلالاتها .

السادس عشر : النهي بالآية من التوليديات، فإتباع الشيطان تتفرع عنه آثام وذنوب متعددة، قال تعالى﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1].

السابع عشر : التحذير والنهي في الآية إنحلالي ، ينحل بعدد الناس إلى مختلف الأزمان، ويتفرع بعدد آنات وأيام الإنسان في الحياة الدنيا، فالآية تنبيه سماوي حاضر في كل لحظة.

الثامن عشر : تظهر الآية الملازمة والإتصال بين الدنيا والآخرة، ويمكن أن نؤسس قاعدة كلامية، وهي: كل ما هو حسن شرعاً في الدنيا يكون نافعاً في الآخرة وما فيه الثواب في الآخرة يكون حسناً عقلاً في الدنيا.

الأمر الذي يؤكد قاعدة الحسن والقبح برداء الشريعة وأن العقل يدرك الأفعال التي ينبغي فعلها أو تلك التي يجب تركها، وما يتفرع على الأفعال من المدح وما يتفرع عن فعل النواهي من الذم ولا يعني هذا ان العقل له الحكم والأمر والزجر ، وكأنه بفطرته مرآة للحكم الشرعي .

التاسع عشر :الحب وإن كان كيفية نفسانية والله عز وجل لا يؤاخذ العبد إلا بحسب أفعاله فانه يكون الأصل في اختيار نوع الجزاء، فمن يحب الله عز وجل يجاهد في سبيله ، ومراتب الجهاد متفاوتة بحسب مقدار الحب وكيفيته وقصد القربة ، وحب العبد لله من عالم الأفعال، قال تعالى﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[2].

العشرون : جاء لفظ الأنداد على نحو التعدد والجمع، مما يفيد الترديد

---

(١)سورة النور ٢١.

(٢)سورة غافر ١٩.

بينهم وإنتقال المشرك من إله إلى آخر، أما المسلم فقد ثبت إيمانه وإستقر حبه للباري عز وجل فلا غرابة أن يكون أشد حباً لله عز وجل للتباين الموضوعي.

الحادي والعشرون : حب العبد لله تعالى مقدمة او نتيجة للشوق للقائه وقد يجتمعان معاً، والكفار يعلمون أن آلهتهم وأربابهم لن يجلبوا لهم نفعاً ولا ضراً.

الثاني والعشرون : تدل صيغة الجمع في الأنداد على تفريق المشركين على مشارب شتى من الضلالة، وفيه إشارة إلى يسر وسهولة الإنتصار عليهم ودحرهم، وفعلاً لم تمر سنوات على الهجرة النبوية الشريفة حتى أجتث الكفر من الجزيرة ولو على نحو الإجمال والتحول النوعي الجلي.

الثالث والعشرون : الآية وردت للإستهزاء بالمشركين وفضحهم وبيان قبائحهم.

الرابع والعشرون : الآية سلاح وحجة بيد المسلمين لكشف سوء صنيع المشركين وإرتباكهم وعدم إبتناء إرادتهم وميلهم على أسس عقلية أو شرعية.

وعن ابن عباس: إن المشركين كانوا يعبدون صنماً، فاذا رأوا شيئاً أحسن منه تركوا ذلك وأقبلوا على عبادة الأحسن[1].

والآية التالية تتحدث عن حال التبرأ بين الكفار يوم القيامة ، وفيه إنذار لهم وحضّ على التدارك والتوبة ، وعلى الإمتناع عن محاربة النبوة والتنزيل ، والإصرار على إرادة قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ

(١) الكشف والبيان ٢٩٠/١.

خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[١].

والآية حرب على الكفر والضلالة من جهات:

الأولى : بيان ضرر حب الأنداد على الذات.

الثانية : تأكيد موضوعية الحب في عالم الثواب والعقاب.

الثالثة : ملاحقة الكفار وأخذهم بأشد الأحوال والوعيد على حبهم لأعداء الله.

الرابعة : التنبيه على حال الضلالة والعناد والجهالة التي يتصف بها الكفار.

الخامسة : تفقه المسلمين في معرفة حال الكفار، وقبح وسوء فعلهم.

السادسة : دعوة المسلمين للتوجه بالشكر لله عز وجل على النعم ، ومنها في المقام:

الأولى : حب المسلمين لله عز وجل.

الثانية : التوثيق السماوي لحب المسلمين لله عز وجل.

الثالثة : شكر المسلمين على نعمة حبهم لله.

الرابعة : تنزه المسلمين عن حب الأنداد وعدم الإفتتان بحب الكفار لهم.

الخامسة : العلم بقانون وهو أن حب الأنداد ظلم وتعد.

السادسة : تلاوة آية البحث وما فيها من البيان والإخبار والوعد والوعيد، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ

---

[١] سورة الأنفال ٣٠.

لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

السابعة : إقامة الحجة على الكفار ، وثبوت معصيتهم بإيجادهم نداً وشريكاً لله في الألوهية والعبادة ،قال تعالى﴿فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

قوله تعالى ﴿كَحُبِّ اللهِ﴾

فيه أقوال:

الأول : أي كحب المؤمنين لله عز وجل، عن ابن عباس.

الثاني : إنهم يحبون الأوثان وما إتخذوه نداً لله عز وجل كحبهم لله عز وجل، وفيه نكتة وهي أن المشركين يحبون الله ويؤمنون به ولكن لا على سبيل التوحيد بل الشرك بعبادته وحب الأوثان، ومع أن الرياء وإشراك الغير في قصد وإتيان الفعل العبادي يبطل العمل العبادي في الجملة، فان هذه الآية تخبر عن حال أشد من الرياء وإرادة حب الغير محبة مستقلة.

الثالث : كحب الله أي كالحب الواجب عليهم اللازم لهم.

والحصر بالقول الأول بعيد ولغة التنكير في الآية وعدم القرينة تدل على خلافه وقد تقدمت الإشارة إليه.

أما القول الثاني فهو الأرجح خصوصاً وأن الإنذار لغة يتضمن الأشباه والأمثال.

ويدرك الإنسان بما جعل الله عنده من العقل ، وقرب وتجلي الآيات الكونية وجود الصانع وعدم إرتقاء شيء من الممكنات إلى مقام الإلوهية، ولكن المشركين يتمادون في ميل وزلل عواطفهم وميولهم عناداً وإستكباراً

---

(1) سورة آل عمران ١٣٨ ، أنظر الجزء المائة الذي جاء خاصا بتفسير هذه الآية .

(2) سورة البقرة ٢٢.

وجحوداً بعد قيام الحجة عليهم.

أما القول الثالث فان الحب الواجب لله مرتبة خاصة لا ترقى لها درجات الحب للأنداد هذه وبدليل تتمة الآية، وعموم الآية الكريمة لا يمنع من صحة هذا القول أيضاً في تأويل الآية على نحو الموجبة الجزئية أو بعض الأفراد والجماعات من المشركين، وشموله في معنى الآية وتفسيرها ولزوم حبهم لله عز وجل ولو بأدنى ومسمى الواجب من الحب.

والآية حجة وبرهان على إعجاز القرآن وشمولها لعدة معان من غير تعارض أو تزاحم بينها.

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾

الأولى : بيان وإخبار بأن الله عز وجل ﴿غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[1] وأن توجه الناس بمحبتهم إلى الله عز وجل من أجلهم ولنفعهم ومصلحتهم.

الثانية : فضل الله تعالى بجعل محبته في قلوب المؤمنين، وإفاضته البركة فيها وفيهم، يسبحونه ويحمدونه ويتوجهون إليه.

الثالثة : الدراسة المقارنة في الآية تظهر رجحان العبادة ، وتدل بالدلالة التضمنية على الصدق الواقعي لخصال التقوى .

الرابعة : الآية في منطوقها مدح وثناء على المسلمين مطلقاً لأنها لم ترد بذكر المؤمنين بل بعنوان الذين آمنوا، أي آمنوا بالإسلام وببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يعني هذا ان المنافقين وغيرهم ممن نطق بالشهادتين يدخلون معهم لأن الآية جاءت للمقارنة وبيان الفضل وترجيح فعل أهل الإيمان وبصفة الحب.

الخامسة : الكفر أشد ضرراً وجحوداً من النفاق، فالمنافق لا يعبد صنماً

---

(1) سورة آل عمران ٩٧.

وإن كان يخفي الكفر ويستتر بالإسلام ويكون أحياناً خطراً على الإسلام، والنفاق على مراتب متفاوتة وهو أجنبي عما في الآية من الثناء على المؤمنين، وهي تفضح المنافق وتخزيه وتجعله يشعر بقرارة نفسه بمدى خطأه وهوانه وذله، نعم إنها تحثه على التدارك وإصلاح النفس والفعل.

السادسة : شدة حب أهل الإيمان لله هل هي بالكم، أم بالكم والكيف والأفراد الطولية الزمانية، الجواب: إنها تتجلى فيها جميعاً بالعمل بسنن التقوى بالإضافة إلى أن المؤمنين يحبون الله عز وجل على نحو الدوام والثبات.

السابعة : الآية في مفهومها تحث المسلمين على حب الله عز وجل وإرادة رضاه تعالى وطاعته والإمتثال لأوامره.

الثامنة : هل حب المؤمنين يتعلق بالذات المقدسة كما ذهب اليه شطر من العلماء، أم بطاعته وإتيان فرائضه وإجتناب المعاصي كما ذهب إليه المتكلمون لأن الحب نوع إرادة وقصد، الجواب: ليس من تعارض بين الأمرين والخلاف صغروي، والأصل حبه تعالى ويترشح في حب فرائضه بعد الإقرار بوجوب وجوده سبحانه ولزوم طاعته والتفاني في مرضاته.

التاسعة : إن حب المؤمنين لله تعالى يرسخ لواء التوحيد في الأرض ويحول دون تفشي الشرك والظلم، ويؤدي إلى الإنقطاع للعبادة، ولعل من منافع هذه الحقيقة العبادية نيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأعلى مراتب الشفاعة وإنشغال الأنبياء الآخرين يوم القيامة بأنفسهم وإرشادهم الناس يومئذ بالتوجه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للشفاعة، فهو الذي يقوم بالشفاعة مع ما للأنبياء من الثواب العظيم والجزاء الكريم لأن الأنبياء التزموا بمضامين التوحيد ولم يعبدوا غير الله عز وجل.

هذا في موقف من مواقف يوم القيامة وإلا فإن الشفاعة أعم وتشمل الأنبياء والأولياء والصالحين والقرآن .

وقد تكون السورة الواحدة شفيعاً لمن يواظب على تلاوتها ، وورد في فضائل سورة يس عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: إن لكل شيء قلبا و قلب القرآن يس فمن قرأ يس في نهاره قبل أن يمسي كان في نهاره من المحفوظين و المرزوقين حتى يمسي ومن قرأها في ليله قبل أن ينام وكل به ألف ملك يحفظونه من كل شيطان رجيم ومن كل آفة وإن مات في نومه أدخله الله الجنة و حضر غسله ثلاثون ألف ملك كلهم يستغفرون له و يشيعونه إلى قبره بالاستغفار له

فإذا أدخل لحده كانوا في جوف قبره يعبدون الله وثواب عبادتهم له و فسح له في قبره مد بصره وأمن من ضغطة القبر و لم يزل له في قبره نور ساطع إلى عنان السماء إلى أن يخرجه الله من قبره فإذا أخرجه لم تزل ملائكة الله معه يشيعونه و يحدثونه و يضحكون في وجهه و يبشرونه بكل خير حتى يجوزوا به الصراط و الميزان و يوقفوه من الله موقفا لا يكون عند الله خلق أقرب منه إلا ملائكة الله المقربون وأنبياؤه المرسلون وهو مع النبيين واقف بين يدي الله لا يحزن مع من يحزن و لا يهتم مع من يهتم و لا يجزع مع من يجزع

ثم يقول له الرب تعالى اشفع عبدي أشفعك في جميع ما تشفع وسلني عبدي أعطك جميع ما تسأل فيسأل فيعطي و يشفع فيشفع و لا يحاسب فيمن يحاسب و لا يذل مع من يذل و لا يبكت بخطيئة و لا بشيء من سوء عمله و يعطى كتابا منشورا فيقول الناس بأجمعهم سبحان الله ما كان لهذا العبد خطيئة واحدة و يكون من رفقاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم)(١)، وشفاعة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعم من أن تختص بالدار الآخرة ويوم المحشر، فتشمل الحياة الدنيا وما فيه محو الذنوب وسؤال الله عز وجل العفو عن الذنب والمعصية، وفي قوله تعالى ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ

(١) مجمع البيان ٨/٢٢٤.

فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾[1].

ورد عن الجبائي: اجتمع اثنا عشر رجلاً من المنافقين على النِّفاق، وأخبر جبريل الرسول بأسمائهم، فقال عليه الصلاة والسلام: إنَّ أناساً اجتمعُوا على كَيْت وكَيْت، فليقُومُوا وليعترِفُوا وليستغفِرُوا ربَّهم حتَّى أشفع لهُمْ فلم يقوموا، فقال عليه الصلاة والسلام بعد ذلك قُمْ يا فلانُ ويا فلانُ حتى أتى عليهم ثم قالوا: نعترف ونستغفر فقال: الآن أنَا كُنْتُ في أوَّل الأمْرِ أطيب نَفْساً بالشَّفَاعة، والله كانَ أسْرعَ في الإجابةِ، اخرُجُوا عنِّي فلم يزلْ يقول حتى خرجوا بالكليَّة)[2].

العاشرة : حب الله يتجسد في أعمال المؤمن العبادية والحياتية العامة، وفي كل فرد من أفراد وخصال الأحكام التكليفية الخمسة لأن حبه تعالى منبع الفعل والسلوك عند المسلم.

الحادية عشرة : يمكن أن نسمي هذه الآية (مدرسة الحب) وعلى نحو الإطلاق ولا داعي لتقييد معنى الحب، لأنه إذا ورد مطلقاً ينصرف إنطباقاً إلى حب الذات المقدسة.

والحب كيفية نفسانية في الإنسان، ويعطي معاني الإرادة والرغبة وهي تنجذب إلى الذات الإلهية المقدسة بالأصالة وبالتبع إلى آثار عظمته وبديع خلقه، ويكون إنجذابها قهرياً لأن المخلوق يتصف بصفات النقص من الإمكان والمخلوقية والضعف.

بحث عرفاني

تخبر الآية عن مراتب الشرف والرفعة بمحبته تعالى التي هي السبيل إلى الإرتقاء في سلم الكمالات الإنسانية ودحر خطرات الشيطان وإرادة الأنا وفق حال الجهل والغفلة ونحوها من صيغ التدني وما يقود إلى منازل الخسة

---

(١)سورة النساء ٦٤.

(٢)تفسير اللباب ٣١٣/٨.

والوثنية، وتدل على كيفية وخصوصيات العروج إلى المكالمة المعنوية والسياحة في عالم الملكوت التي تتجلى في مسالك الطاعة والعبادة وكأنها أثر من آثاره فيؤدي العبد الصلاة بلحاظ أنها آية منه تعالى إبتداء وإستدامة وأنها لطف وتوفيق إلهي، وما اضافتها إلى النفس والجوارح إلا من باب المجاز واللحاظ الإعتباري ومناسبة الثواب.

وبذا يترقى العبد في مقامات الحب والعشق والشوق للقائه تعالى، وبلحاظ نوع العلم ومقوماته إلى علم مكاشفة وعلم معاملة، والأول نور يقذف في القلب وافاضة ملكوتية يخترق بها القلب أستار الأفعال لتكون تزكية وتطهيراً ونجاة من الرذائل والقبائح، أما علم المعاملة فهو معرفة أحوال القلب وطريقة إصلاحه وتعاهده ورفع أو دفع الغشاوة عنه بما يجعله مؤهلاً لوظائف علم المكاشفة.

ويمكن أن يؤسس قانون وهو "حب الله سلاح في الدارين" وعلى غرار القواعد الفقهية، وعن علي بن الحسين عليه السلام: أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقيل له: يا ابن رسول الله لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله جميل يحب الجمال فاتجمل لربي وهو يقول ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[1] فاحب أن البس أجمل ثيابي، وكان أيضاً إذا وقف في الصلاة تراه كالسعفة يرتجف من خشية الله، وكأن قسمي العلم المكاشفة والمعاملة يتجليان ما قبل الصلاة وأثناءها ولتكون الصلاة المكان الأنسب لإشراقات آيات الحب الإلهي وبأبهى معانيه لتبقى درساً متجدداً وموعظة للناس جميعاً.

إن محبة العبد لله تعالى رحلة مباركة في آفاق المعرفة، وحرز وواقية من نفق الجهل والغفلة ووساوس الشيطان، وهي خير سبيل، ومقدمة للفوز

---

(١) سورة الأعراف ٣١.

بتلقي الحب والأجر منه تعالى والتنعم والإحساس بعذوبته.

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾

الأولى : لو تيسر للظالمين رؤية العذاب الذي أعد لهم إذ أنهم في الحياة الدنيا محجوب عنهم رؤية عذاب البرزخ وعذاب الآخرة، وهذه الحجب جزء من الإبتلاء والإختبار في أيام الحياة الدنيا.

الثانية : إخفاء وستر تفاصيل عذاب البرزخ وعذاب الآخرة عن الناس جزء من الإبتلاء والإختبار في أيام الحياة الدنيا.

الثالثة : مجيء الفعل بلغة المضارع ﴿ وَلَوْ يَرَى ﴾ يدل على قرب هذا العذاب ولعله يبدأ من إنتصار المسلمين خصوصاً وأن الجزاء يبدأ من الساعات الأولى لدخول القبر ومجيء منكر ونكير.

الرابعة : التخفيف عن المسلمين وتطمين قلوبهم بأن أوان الإنتقام من الكفار قريب.

الخامسة : تقريب ما ينتظر الكفار من العذاب كي يكون بشارة وسكينة للمسلمين وإنذاراً ووعيداً للكافرين ، وعن وهب بن منبه (قال : مر عيسى عليه السلام بقرية قد مات أهلها إنسها وجنها وهوامها وأنعامها وطيورها ، فقام ينظر إليها ساعة ، ثم أقبل على أصحابه فقال : مات هؤلاء بعذاب الله ، ولو ماتوا بغير ذلك ماتوا متفرقين ، ثم ناداهم : يا أهل القرية .

فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله .

قال : ما كان جنايتكم؟

قالوا عبادة الطاغوت وحب الدنيا .

قال : وما كانت عبادتكم الطاغوت؟

قال : الطاعة لأهل معاصي الله تعالى .

قال : فما كان حبكم الدنيا؟

قالوا : كحب الصبيّ لأمه .

كنا إذا أقبلت فرحنا ، وإذا أدبرت حزنا مع أمل بعيد وإدبار عن طاعة الله وإقبال في سخط الله .

قال : وكيف كان شأنكم؟

قالوا : بتنا ليلة في عافية وأصبحنا في الهاوية

فقال عيسى : وما الهاوية؟

قال : سجين .

قال : وما سجين؟

قال : جمرة من نار مثل أطباق الدنيا كلها دفنت أرواحنا فيها .

قال : فما بال أصحابك لا يتكلمون؟

قال : لا يستطيعون أن يتكلموا ملجمون بلجام من نار .

قال : فكيف كلمتني أنت من بينهم؟

قال : إني كنت فيهم ولم أكن على حالهم ، فلما جاء البلاء عمني معهم ، فأنا معلق بشعرة في الهاوية لا أدري أكردس في النار أم أنجو) [1].

السادسة : الآية تهديد صريح، وهو زيادة في الوعيد وإخبار عن مضاعفة العذاب بعد إقامة البينة والحجة عليهم.

السابعة : تقذف الآية الخوف والفزع في قلوب الكافرين، وتظهر ضعفهم ووهنهم.

الثامنة : في الآية تحد مستديم للكافرين.

---

(1) الدر المنثور ١٠/٣٢٤.

قوله تعالى ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾

الأولى : الملائكة يومئذ لهم القيمومة والإشراف ولا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله تعالى ولا يعصونه أبداً.

الثانية : ليس من ناصر او معين يوم القيامة غير الله، قال سبحانه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[1].

الثالثة : ليعلم الكفار أن الأنداد الذين أحبوهم في الحياة الدنيا ليس لهم سلطان وشأن يوم القيامة ولم ينفع يوم القيامة إلا حبه تعالى على نحو الإنفراد والإستقلال من غير شرك.

الرابعة : كما أن منطوق الآية وعيد وإنذار وتخويف فإنها وعد وبشارة للمؤمنين وتنمية لحالات الأمل والرجاء والشوق إلى اليوم الآخر والتخلص من شوائب الهوى والميل إلى الغرائز وحب الدنيا ومتعلقاتها من المال والجاه والنساء.

الخامسة : من أسمائه تعالى (القوي) فهو سبحانه القاهر الذي لا يطرأ عليه العجز أبداً، لأن العجز ملازم للإمكان، وهو سبحانه واجب الوجود، وذكر اسم القوي ثلاث مرات في القرآن لله عز وجل ، جاء مرتين مقترنا في كل منهما باسم العزيز مما يدل على حكمته سبحانه ورأفته بالناس وعدم إستعصاء مسألة عليه، قال تعالى ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾[2].

وورد لفظ القوي مرة في القرآن في وصف موسى عليه السلام ﴿قَالَتْ

---

(١)سورة العنكبوت ٢٢.

(٢)سورة الشورى ١٩.

إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[1]، ليخرج قيد ووصف (الأمين) كلامها من الغلو بموسى، وللإخبار بأن قوته من مقامات العبودية ومن فضل الله عليه، لأن الأمانة صفة من صفات العبد وشاهد على التقوى والصلاح.

السادسة : إن عائدية مطلق القوة لله تعالى لا تنحصر في الآخرة ومواطن يوم القيامة بل إنها تشمل الحياة الدنيا، ولكن غشاوة إستولت على قلوب وحالت دون رؤية هذه الحقيقة التكوينية والتشريعية إلى أن إنكشف البصر في الآخرة ، كما نزل الاسم ﴿قَوِيٌّ﴾ من غير تعريف ومنه قوله تعالى ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2] وقد ورد اسم ﴿لَقَوِيٌّ﴾ في سورة الحج بقوله تعالى ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3] وهذه السورة مكية أي أنها نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكة قبل هجرته إلى المدينة ، فهل فيها إنذار للمشركين بالإمتناع عن الهجوم على المدينة وغزوها وقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر ومعركة أحد، ومعركة الخندق ، الجواب نعم ، ليكون من مصاديق إجتماع مصداق البشارة والإنذار بقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[4] هو الآية أعلاه التي هي بشارة للمسلمين بالأمن والطمأنينة

(١)سورة القصص ٢٦.
(٢) سورة الأنفال ٥٢.
(٣) سورة الحج ٧٤.
(٤) سورة الفرقان ٥٦.

والإنـذار للمشـركين بالهزيمـة والخسـارة ، قـال تعـالى ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾[1] .

السابعة : سوف يضطر الكافرون يوم القيامة إلى الإقرار والإعتراف العلني بأن جميع القوة لله عز وجل، وأنهم كانوا على ضلالة في إتخاذهم الأنداد.

وتبين الآية غنى الله عز وجل عن العباد، وأن حبهم له لمنفعتهم في الدنيا والآخـرة، وأن حـب الأنـداد إضـرار بالـذات وسـبب لجلـب عـداوة الله وأوليائه.

ومن خصائص يوم القيامة تجلي الإطلاق في ملكية الله عز وجل، إذ يتبين للناس أنه ليس من شئ إلا وهو ملك طلق لله عز وجل وهو من مصاديق إنفراد الله عز وجل بالقوة ، فان قلت إن الملك والقوة المطلقة لله عز وجل سواء في الدنيا أو الآخرة، وما قبلهما، فلماذا خصت الآية عالم الآخرة .

الجـواب : لقـد إمـتحن الله عـز وجـل النـاس في الـدنيا بالحـب والكـره، والقـول والفعـل والملكيـة المحـدودة المؤقتـة والأثـر والتـأثير القليـل بـين النـاس وتتغشـى أبصـار الكفـار غشـاوة وينقطعـون إلى الـدنيا وشـأنهم فيهـا، فيـأتي يـوم القيامـة لتتـبين لهـم الحقـائق والقـوانين في الإرادة التكوينيـة وأن الـذين كـانوا يعبـدون مـن دون عـاجزون عـن جلـب النفـع أو دفـع الضـرر عـنهم. قـال تعـالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة ق٢٢.

قوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾

الأولى : الآية لدفع وهم ، فإنحصار القوة بالله تعالى لا تعني إطلاق شدة العقاب بلحاظ أنه الرؤوف الرحيم، وقسمت صفاته تعالى إلى صفات الذات وصفات الفعل، والأخيرة ما كان لها ضد كالرحمة والغضب.

ويمكن ان نؤسس قاعدة على غرار القاعدة الفلسفية إثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، فنقول أن إثبات صفة لله لا تدل على نفي الأخرى في الحسن لأنه الواسع الكريم، فلا تعارض أو تزاحم بين صفاته تعالى.

الثانية : تضمنت هذه الآية وصفاً لعذاب يوم القيامة وأنه شديد العقاب.

الثالثة : الآية وعيد وتخويف وإنذار للمشركين عن الحارث الأشعري (الحارث الأشعري : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حدثهم قال : إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات يعمل بهن ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن قال : فكان يبطئ بهن ، فقال له عيسى : إنك أمرت بخمس كلمات تعمل بهن ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تأمرهم بهن ، وإما أن أقوم فآمرهم بهن قال يحيى : إنك إن تسبقني بهن أخف أن أعذب أو يخسف بي ، فجمع بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد ، حتى جلس الناس على الشرفات ، فوعظ الناس ، ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن ، أولاهن ، أن لا تشركوا بالله شيئا ؛ فإن من أشرك بالله مثله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق ، ثم قال له : هذه داري وعملي ، فاعمل لي وأد إلي عملك ، فجعل يعمل ويؤدي عمله إلى غير سيده ، فأيكم يحب أن يكون له عبد كذلك ، يؤدي عمله لغير سيده ، وأن الله هو خلقكم ورزقكم فلا تشركوا بالله شيئا ، وقال : إن الله عز وجل أمركم بالصلاة ، فإذا نصبتم وجوهكم فلا تلتفتوا ؛ فإن الله ينصب وجهه

لوجه عبده حين يصلي له ، فلا يصرف عنه وجهه حتى يكون العبد هو ينصرف) [١] .

الرابعة : فيها موعظة وتأديب للمسلمين، وهي مناسبة لتوجههم لله تعالى بالشكر والثناء على نعمة الإسلام.

الخامسة : إن الدنيا دار إمهال كفترة للإختبار والإمتحان، ولكن ذلك لا يمنع من التذكير أثناء ومدة أيامها بأحوال وأهوال الآخرة.

السادسة : الإذن للمسلمين بترديد صيغة الإنذار والإحتجاج على الكفار، ودعوتهم لنبذ الشرك والأنداد وذم من يقيم على الكفر والإستعداد لمواجهته ومحاربته.

السابعة : ورد في الآية ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾.

وخاتمة الآية تبين شدته وعظيم بطش الله تعالى بالكافرين، ومع الإقرار بأن العذاب من الكليات المشككة ولدفع وهم بأن العذاب الذي يناله الذين يحبون الأنداد ليس شديداً لذا جاء ذكره مجرداً.

---

[١] صحيح ابن خزيمة ٢/٤.

قوله تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ الآية ١٦٦

الإعراب واللغة

اذ: اسم للزمان الماضي في محل نصب على الظرفية الزمانية، والقرينة تفيد انه اخبار عن حال المستقبل يوم القيامة.

تبرأ: فعل ماضٍ، الذين: اسم موصول فاعل.

اتبعوا: فعل ماض مبني للمجهول، والواو نائب فاعل.

من الذين: جار ومجرور متعلقان بتبرأ...

إتبعوا: فعل ماض مبني للمعلوم، الواو: فاعل، والمراد الأتباع والأنصار.

ورأوا: الواو حالية وعاطفة واستئنافية، رأوا: فعل ماض، والواو: فاعل.

العذاب: مفعول به منصوب بالفتحة.

وتقطعت: الواو: حرف عطف، تقطعت: فعل مضارعٍ، بهم: جار ومجرور متعلقان بتقطعت .

الأسباب، فاعل مرفوع بالضمة.

وبرئ منه: أي تنزه وتخلص وتباعد واعلن عدم تحمل مسؤولية عمله.

والأسباب جمع سبب وهو الذي بوجوده يوجد غيره سواء كان صفة او قوة ومع عدم السبب يمتنع المسبَب.

في سياق الآيات

بعد ذكر الآيات ومخاطبة ارباب العقول واخبار الآية السابقة باتخاذ بعض الناس شركاء لله واختصاصهم بشطر من محبتهم وكيف ان القوة والأمر كله يوم القيامة لله عز وجل جاءت هذه الآية لتبين حالهم حينئذ.

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [(1)]، وفيها مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ورأوا العذاب.

الثاني : ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً وتقطعت بهم الأسباب.

الثالث : إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا إذ يرون العذاب.

الرابع : أن القوة لله جميعاً إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا.

الخامس : ان القوة لله جميعاً ورأوا العذاب.

السادس : ان الله شديد العذاب وتقطعت بهم الأسباب.

السابع : يحبونهم كحب الله ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب.

---

(1) سورة البقرة ١٦٥.

الثانية : موضوع الآية السابقة هو الحب والميل النفسي وترتب الأثر عليه في الأخرة، أما هذه الآية فتتعلق بأهوال الحساب يوم القيامة وحال الكفار فيها.

الثالثة : ذكرت الآية السابقة المؤمنين وحبهم لله، والكفار وحبهم للأنداد وجاءت هذه الآية بخصوص جزاء عقاب الكفار.

الرابعة : موضوع الآية السابقة جامع لأحوال الدنيا والآخرة، أما آية البحث فهي خاصة بعالم الآخرة وحال الكفار فيها.

الخامسة : يفيد الجمع بين الآيتين أن حب الكفار للأنداد وإتباعهم للطواغيت في ظلمهم يترتب عليه في الآخرة تبرأ الطواغيت منهم، وإعلانهم عدم العلم بحب الكفار لهم.

السادسة : بين هذه الآية والآية السابقة من جهة الموضوع عموم وخصوص مطلق، فالإتباع أعم من الحب، وفيه حجة بالغة وإخبار بأن الله عز وجل يحاسب يوم القيامة على الفعل والعمل وليس على الحب وحده.

السابعة : يدل الجمع بين الآيتين على أن الحب يؤدي إلى الإتباع، لذا تفضل الله عز وجل وحذر من حب الأنداد ورؤساء الكفر والضلالة، ورغّب في حب الله بذكر حب المؤمنين لله وشدة هذا الحب.

الثامنة : لما أختتمت الآية السابقة بقوله تعالى﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أختتمت آية البحث بالإخبار عن حال الذين كفروا وما يلاقونه بصفتين:

الأولى : رؤية الكفار للعذاب.

الثانية : إنعدام الصلات والمودة والتعاون واليد والشفاعة والإحسان بين الكفار يوم القيامة.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، وفيه مسائل :

الأولى : تتعلق الآية أعلاه بعظيم قدرة الله، وتعدد الآيات الكونية الباهرة التي تفضل بخلقها، أما آية البحث فهي خاصة بما يلاقيه الكفار يوم القيامة من العذاب.

الثانية : كل آية كونية حجة على الناس في لزوم عبادة الله، وإتباع الأنبياء قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[2]، ولكن الكفار إختاروا الضلالة وإتباع الأنداد والطواغيت فاستحقوا العذاب بما كسبت أيديهم.

الثالثة : إن الله عز وجل هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وهو القادر على عذاب الظالمين لأنفسهم باتباعهم رؤساء الكفر.

الرابعة : أختتمت آية السياق بالإخبار عن الإعجاز وعظيم الصنع في الكون ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لتكون هذه الآيات دعوة للناس جميعاً للتقوى والخشية من الله والتنزه من إتباع الطواغيت، وهل من موضوعية للبراهين والحجج الكونية في التبرأ بين الكفار يوم القيامة الجواب نعم، بلحاظ أن كل آية حجة على الناس في لزوم التدبر في الآيات الكونية والإتعاظ منها وإتخاذ التدبر فيها مقدمة لنهج الصراط المستقيم.

ومن فضل الله عز وجل على المسلمين تلاوة كل واحد منهم ذكراً أو

---

(١) سورة البقرة ١٦٤.

(٢) سورة فصلت ٥٣.

اثنى عدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب العيني ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1].

الشعبة الثانية : صلة هذه الآية بالآيات التالية، وهي على وجوه :

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ...﴾[2]، وفيها مسائل :

الأولى : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه:

الأول : إذ تبرأ الذين اتبعوا وقال الذين الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فتبرأ منهم.

الثاني : إذ تبرأ الذين اتبعوا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات.

الثالث : إذ تبرأ الذين اتبعوا وما هم بخارجين من النار.

الرابع : ورأوا العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم.

الخامس : وتقطعت بهم الأسباب وما هم بخارجين من النار .

السادس : وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فتبرأ منهم.

السابع : وتقطعت بهم الأسباب كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم.

الثامن : ورأوا العذاب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم.

التاسع : ورأوا العذاب وما هم بخارجين من النار.

الثانية : إتحاد موضوع الآيتين، وكل واحدة منهما تتعلق بعالم الآخرة وحال الكفار فيها وما يلاقونه من العذاب الشديد.

الثالثة : تكرار مادة التبع والتبرأ في الآيتين.

---

[1] سورة الفاتحة ٦.

[2] سورة البقرة ١٦٧.

الرابعة : لما أخبرت آية البحث عن تبرأ أرباب الكفر من أتباعهم تعقبتها آية السياحة بالإخبار الغيبي عن ندامة وحسرة أتباعهم يوم القيامة، قال تعالى﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[١]، أي ليس أوان فرار في الآخرة، والمناص: المفر المفر والإغاثة وسبيل نجاة.

الخامسة : كل من آية البحث والسياق من مصاديق قوله تعالى﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[٢]، مع بيان علة هذا التخاصم من وجوه:

الأول : التبرأ بين الأتباع والمتبوعين من الكفار.

الثاني : رؤية الكفار للعذاب الأخروي.

الثالث : إنقطاع المودة بين الكفار فلا حب أو شفقة أو تعاطف أو مناجاة بينهم.

الرابع : إستدامة بقاء الكفار في النار واليأس من الخروج منها لإختتام آية السياق بقوله تعالى﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [٣].

الخامس : رؤية كل من الأتباع والأرباب من الكفار قبح فعلهم في الدنيا، وصيرورة أعمالهم وزراً عليهم وسبباً لدخولهم النار.

السادسة : بين تبرأ كل من الفريقين عموم وخصوص من وجه، فرؤساء الكفر يتبرأون في الآخرة من أتباعهم، أما الأتباع فانهم يرغبون بالعودة إلى الدنيا للتبرأ من رؤسائهم ومن إتباعهم، مما يدل على إقامة الحجة عليهم بسوء إختيارهم الجحود والإنقياد إلى الظالمين، وعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا حضر الإنسان الوفاة يجمع له

---

(١) سورة ص٣.

(٢) سورة ص ٦٤.

(٣) سورة البقرة ١٦٧.

كل شيء يمنعه عن الحق فيحول بين عينيه ، فعند ذلك يقول { رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت }[١].

الثانية : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا... ﴾[٢]، وفيها مسائل :

الأولى : جاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية ويتعلق موضوعها بخصوص حال الكفار في عالم الآخرة .

أما آية السياق فوردت بصيغة الجملة الإنشائية والخطاب للناس جميعاً، وفضل الله عليهم بالرزق الكريم.

الثانية : مضامين آية السياق حجة على الناس جميعاً خاصة الكفار، فقد كفل الله عز وجل رزقهم وإتباعهم رؤساء الكفر والضلالة ظلم وتعد، قال تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾[٣].

الثالثة : من الإعجاز في آية السياق مجئ مضامينها وكأنها ناظرة إلى آية البحث وإتباع الكفار لأهوائهم، وغلبة النفس الشهوية عليهم بالإنقياد لرؤساء الضلالة والجحود، فبعد أن ذكرت آية السياق الرزق الكريم من الله عز وجل للناس جميعاً حذرتهم عن إتباع إغواء الشيطان وجنوده في البغي.

الرابعة : تضمنت آية السياق تحذير الناس من الضلالة وإتباع الشيطان، وجاءت آية البحث ببيان حال الكفار وما ينزل بهم من العذاب الشديد بسبب عدم تقيدهم بالنهي من إتباع الشيطان.

الخامسة : يفيد الجمع بين الآيتين بأن العذاب الأخروي لم يأت للكفار

---

(١) الدر المنثور ٢٢٢/٧.

(٢) سورة البقرة ١٦٨.

(٣) سورة الزمر ٣٦.

إلا بعد الإنذار والوعيد في الحياة الدنيا بوسائط منها:

الأول : التنزيل كما في آية السياق وبقائها رسماً ولفظاً وموضوعاً وحكماً إلى يوم القيامة.

الثاني : تعاقب بعثة الأنبياء ومجيؤهم بالبشارة والإنذار، والوعد والوعيد قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾[1].

الثالث : دلالة الآيات الكونية على بديع صنع الله ووجوب الخشية منه.

السادسة : يتبع الكفار الطواغيت طلباً للدنيا وزينتها، فاخبرت آية البحث بأن الله يرزق الناس حلالاً طيباً أي ليس فيه تبعات وعقاب، أما ما يأتي من إتباع الظالمين ففيه الحساب والعذاب والإضطرار للتبرأ منهم يوم لا ينفع هذا التبرأ ولا يدفع العذاب.

السابعة : ترغيب الناس بطلب الحلال، وفيه برزخ دون إتباع الطواغيت وإغواء الشيطان .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن أيوب قال: أشرف على النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل من رأس تل فقالوا : ما أجلد هذا الرجل! لو كان جلده في سبيل الله .

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو ليس في سبيل الله إلا من قتل؟

ثم قال : من خرج في الأرض يطلب حلالاً يكف به والديه فهو في سبيل الله ، ومن خرج يطلب حلالاً يكف به أهله فهو في سبيل الله .

ومن خرج يطلب حلالاً يكف به نفسه فهو في سبيل الله ، ومن خرج

---

(١) سورة الفرقان ٢٧.

يطلب التكاثر فهو في سبيل الشيطان[١].

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢]، وفيها مسائل :

الأولى : بدأت آية السياق بصيعة إنشائية ولغة النهي، وأختتمت بصيغة الجملة الخبرية، بينما جاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية.

الثانية : تتضمن آية البحث الإخبار عن سوء عاقبة الذين لم يتقيدوا بمضامين آية السياق.

الثالثة : يفيد الجمع بين الآيتين أن الدنيا دار إمتحان وإختبار، وأن عاقبة فعل السوء والفحشاء يؤدي إلى العذاب الأليم.

الرابعة : كما تنقطع الصلات والمودة يوم القيامة بين الكفار أتباعاً ومتبوعين فانها تنقطع بين الشيطان والذين اتبعوه في الدنيا، وفيه دعوة للناس لتقوى الله، قال تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾[٣].

الخامسة : إتباع الطواغيت فعل سوء بذاته وسبب لإرتكاب الفحشاء الذي حذرت منه آية السياق.

السادسة : يفيد الجمع بين الآيتين أن الإفتراء على الله طريق يؤدي إلى إتباع الطواغيت، وكذا العكس فان إتباع الطواغيت وكبار الكفار يؤدي إلى الندامة والحسرة يوم القيامة .

(١) الدر المنثور ١٨٢/٢.

(٢) سورة البقرة ١٦٩.

(٣) سورة البقرة ٢٦٨.

إعجاز الآية

بيان العداوة والخصومة والنفرة يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين ممن لم تكن التبعية بينهم في الله، وصيغة القطع التي تبعث على اليأس وفقدهم أدنى مراتب الأمل يومئذ، وكيف ان مخالفة أوامره تعالى واللجوء الى غيره يجلب الخسارة الأبدية ويخيب الآمال، ومفهوم الآية تفشي الرحمة والرأفة بين المؤمنين والتي تتجلى بأرقى معانيها بالشفاعة، قال تعالى في الثناء على المؤمنين ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[1].

والآية من مصاديق التكليف في الحياة الدنيا وتذكير الناس بوظائفهم العبادية، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أختار التابعون للظالمين الإعانة على المنكر، والركون لهم .

فجاءت الآية لبيان أضرار الإعانة على الإثم، وهي في مفهومها على وجوه :

الأول : الآية ترغيب بالإيمان .

الثاني: في الآية دعوة إلى الصلاح .

الثالث : في الآية حث على إقامة الفرائض اليومية ومنها الصلاة والصيام والحج .

وتبين أن الأداء المتكرر للصلاة في اليوم الواحد، على نحو الوجوب، وتلاوة آيات القرآن في كل ركعة منها واقية من إتباع الظالمين وما يترشح عنه من العذاب في الآخرة، قال تعالى ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

---

(١)سورة البلد ١٧.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(١).

لقد أثنت آيات القرآن على المسلمين في أخوتهم وتوادهم، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(٢).

ويفيد الجمع بين الآية أعلاه والآية محل البحث أن الكفار وإن تظاهروا بالأخوة في الدنيا إلا أنهم في الآخرة أعداء يتبرأ بعضهم من بعض، بينما أخوة المسلمين متصلة ودائمة في الحياة الدنيا والآخرة، وفي هذا التباين وذكر حال الكفار في الآخرة وما بينهم من النفرة دعوة للناس لنبذ الكفر، وإجتناب الإنقياد للظالمين.

ومن إعجاز الآية أنها تتضمن ثلاثة أطراف:

الأول: تبرأ الرؤساء الظالمين من أتباعهم في الظلم.

الثاني: رؤية الكفار لعذاب الآخرة.

الثالث: تقطع الوشائج وإنعدام المودة بينهم.

ويحتمل الوقوع بينها وجوهاً:

الأول: أنها تأتي دفعة واحدة.

الثاني: التدرج والتعدد.

الثالث : المعنى الأعم، وإرادة التباين بلحاظ تعدد مواطن الآخرة.

والظاهر هو الثاني وهو من الموارد التي تفيد فيها الواو معنى الترتيب إذ أن أوان التبرأ متقدم على العذاب، ومصاحب له.

وفي الآية تشريع لقانون سماوي وهو أن مجرد إتباع الظالمين بذاته معصية

---

(١)سورة العنكبوت ٤٥.

(٢) سورة الحجرات١٠.

وإثم يترتب عليه العذاب.

الآية سلاح

تجعل الآية حال الكفار يوم القيامة شبه حقيقة أمام أبصار المسلمين ليهون امرهم ويقل اكتراثهم بهم ويدركوا جسامة خطأ ما عليه الكفار، وتساهم في تهذيب النفوس ونبذ التوجه بالمحبة الى غير الله.

وتساهم الآية في بث الكدورات بين الكفار بمعرفتهم لقبح العاقبة وحتمية الإفتراق والعداوة بينهم، ومع هذا فان الآية لطف عام لما فيها من تحذير الكفار وخصوصاً عامتهم.

الآية عون للناس جميعاً لأنها مدرسة في الإنذار والتحذير من الظلم والركون للظالمين، ببيان سوء عاقبة الظالمين وأتباعهم، وقد يظن بعضهم أن الإثم على الظالم وحده فجاءت هذه الآية حجة وبرهاناً على تحمل الأتباع وزر ما يفعلون، من غير أن يخفف عن الرؤساء.

وفي الآية تخفيف عن المسلمين، وبعث للسكينة في نفوسهم لما يلقاه الكفار وأتباعهم من العذاب الأليم في الآخرة، وهي تحذير للناس جميعاً من الركون للظالمين.

وهل الخطاب في قوله تعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [1] خاص بالمسلمين أو هو عالم للناس جميعاً ، الجواب إنه عام للناس ، ويدل بالدلالة التضمنية على الزجر عن الظلم وسوء عاقبته من باب الأولوية القطعية ، فاذا كان الذين يميلون ويطمئنون للذين ظلموا تصيبهم النار فكيف بالذين يقومون بظلم أنفسهم والناس .

---

(١) سورة هود ١١٣.

لقد جاءت آيات القرآن والسنة النبوية بالتحذير والتخويف من الظلم وعواقبه وفي وصية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ(واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[1]، وفيه شاهد على سرعة العذاب والجزاء على الظلم بالإضافة إلى ما تدل عليه هذه الآية من العذاب الآخروي للظالمين وفزعهم وتبرأ بعضهم من بعض.

مفهوم الآية

الآية بيان لحال الكافرين يوم القيامة وتوكيد لما يلحقهم من الأضرار الأخروية المترتبة على حبهم لأربابهم وكيف ان رؤساء الضلالة تخلوا عنهم واصبحوا لا هم لهم الا انفسهم وما ينتظرهم من العذاب.

وظاهر الآية أن حب الكافرين لرؤسائهم يكون يوم القيامة وبالاً عليهم بلحاظ أن الحب ملكة نفسية وارادة ذاتية لا دخل للغير بكيفيتها وتوجيهها انما تتم بالإختيار ، فكثير من الأتباع ينقادون بإختيارهم إلى الظالمين ويتقربون اليهم زلفى بتنفيذ أوامرهم وتحقيق اطماعهم بالتعدي على الحرمات ومحاربة الملل السماوية والعقائد الحقة ليصبحوا شركاء لأقطاب الضلالة في الجريمة والفاحشة بمعنى انه تابع في الميدان ولكنه مكلف عاقل اختار هذه التبعية والمسارعة في خدمة الطاغوت وتحقيق اهدافه الخبيثة وغاياته الرذيلة فيتبرأ الطاغوت منه يوم القيامة أي ان موازين ونواميس الآخرة تختلف عن الدنيا ففي الدنيا يكون هناك رئيساً ومرؤوساً، وآمراً ومأموراً مطيعاً، وسيداً وعبداً، وقائداً وجندياً.

أما في الآخرة فكلهم واقفون للحساب وكل يوم يبوء باثمه وجنايته، وان هذا المرؤوس والجندي قد قام بجرائم متعددة لم يكره على ادائها ، لأنه إختار طواعية الركون للظالم فيتحمل قسطاً من كل ذنب يقدم عليه وان

(١)صحيح مسلم ٥٠/١.

كان بأمر من السلطان وقد يقوم بجرائم تفصيلية لم يكن الطاغوت امره بها على نحو الخصوص كما لو قتل حسداً وظلماً او نهب اموال الناس او عاقب على عدم الولاء للطاغوت او اكره الناس على التخلي عن الإسلام وشعائره، قال تعالى ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [1].

وجاءت خاتمة الآية وعيداً وانذاراً للكافرين بلحاظ انقياد وتبعية بعضهم لبعض وهي صفة إضافية زائدة على الكفر، بمعنى انه قد يصر الإنسان على الكفر ولكنه لا يكون منقاداً لأقطاب الكفر يقود بنفسه قوى الضلالة والبغي، ومن الناس من لا يقف عند جناية الضلالة والشرك بل يكون تابعاً مطيعاً للطاغوت فجاءت الآية لإنذاره وتهديده وتخويفه واخباره عما ينتظره من العذاب .

وهذا الإخبار في مفهومه مدح للمؤمنين لأنهم تخلوا عن الكفر والضلالة واختاروا التبعية التي تقودهم الى الجنة لأنهم اتخذوا من اختاره الله لهم إماماً وقائداً فاتبعوا القرآن وما فيه من الأحكام وآمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليفوزوا بشفاعته يوم القيامة ويتجلى فيها النصر والمائز الكبير، فينشغل أرباب الكفر بالعذاب ويتبرأ كل واحد من الآخر وكل جماعة من اختها .

أما المسلمون فانهم يتطلعون الى شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم ويرجون المنزلة الرفيعة ويتفاخرون في النشأتين باتباعه بما جاء به من عند الله عز وجل، وتبرأ رؤساء الضلالة من اتباعهم خاص بعمل هؤلاء الأتباع من جهة المباشرة والفعل كما لو قال الرؤساء يومئذ اننا لم نأمرهم، او انهم جاءوا باختيارهم لفعل ما نأمر به من الظلم والحيف، ولو لم يكونوا جيشاً لنا لما استطعنا التعدي والظلم واشاعة القتل والجور، وهذا التبرئ لا ينجي

---

[1] سورة الصافات ٢٤.

الظالمين من أفعالهم وتبعات افعال اتباعهم ايضاً لإشتراكهم بحسب جرائمهم.

وفي الآية مسائل:

الأولى: في الآية توكيد لعالم النشور والبعث، وعالم الحساب.

الثانية: الإخبار عن النار وأنها حق وصدق، والتحذير منها ومن مقدمات وأسباب الخلود فيها.

الثالثة: بيان صفات أهل النار، وهم الظالمون تابعين ومتبوعين ، ليكون في الآية زجر للمشركين من محاربة النبوة والتنزيل ، وهل نفعت آيات الإنذار هذه في عزوف الناس عن نصرة رؤساء الشرك من قريش في قتالهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، الجواب نعم ، فبعد أن قام عشرة آلاف من المشركين بالزحف على المدينة لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه.

الرابعة : حصول الخصومة والشقاق بين الكفار يوم القيامة، وهو من العذاب الأليم الذي يلقونه يومئذ.

الخامسة : تنقطع يوم القيامة الأوصال والمودة التي كانت بين الكفار في الدنيا.

السادسة : اللوم المتبادل بين الظالمين وأتباعهم يوم القيامة حجة عليهم، ودليل متجدد على قبح فعلهم، وإستحقاقهم العذاب، إذ أن هذا اللوم مستمر حتى وهم في النار، لذا فمن إعجاز الآية أنها ذكرت تبرأ رؤساء الشرك والشر من أتباعهم أوان رؤية العذاب، أي أنهم لم يدخلوه إلا وقد أظهروا التبرأ والخلاف بينهم والإعتراف الضمني بذنوبهم.

السابعة : الآية الكريمة من مصاديق سوء عاقبة الظالمين، قال تعالى ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾[1].

الثامنة : بيان فضل الله عز وجل على المسلمين في الهداية إلى سبل الإيمان والتنزه عن الظلم ، والتوقي من الركون لرؤساء الكفر والضلالة ، قال تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [2].

التاسعة : دعوة الناس للإقتداء بالمسلمين في التنزه من الإنقياد للطواغيت.

الآية لطف

في الآية لطف متعدد من وجوه:

الأول: إنها لطف بالمسلمين، وفيه مسائل:

الأولى: الآية مناسبة لتفقه المسلمين في أحكام الدين، وسنن عالم الآخرة.

الثانية: معرفة جزاء الكفار وما ينتظرهم من سوء العاقبة.

الثالثة: الآية موضوع للجدال والدعوة إلى نبذ الظلم والتعاون فيه.

---

(١)سورة الشورى ٢١.

(٢)سورة المجادلة ٢٢.

الرابعة: الآية من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [1].

الخامسة: تعاهد أحكام الحلال والحرام.

السادسة: النفرة من عموم الظالمين أتباعاً ومتبوعين.

الثاني: اللطف بالكفار، وهو على أقسام:

الأول: اللطف بالرؤساء من الكفار، وفيه مسائل:

الأولى: تذكيرهم بما ينتظرهم من العذاب الأليم.

الثانية: دعوتهم للإستعداد لعالم الحساب.

الثالثة: الزجر عن الغرور والطغيان بسبب كثرة الأتباع لأنه طريق للعذاب الأليم في الأخرة.

الرابعة: تبعث الآية الفزع والخوف في نفوسهم، وهذا الفزع مقدمة للنفرة من الظلم.

الثاني: اللطف بأتباع الظالمين، وفيه مسائل:

الأولى: كشف ما يتعرضون له في الآخرة من العذاب لبعثهم على التوبة.

الثانية: الدعوة للزهد بالمنافع الدنيوية العاجلة التي ترد من إتباعهم للظالمين.

الثالثة: إدراك قبح إتباع الظالمين في غيهم وظلمهم.

الوجه الثالث: اللطف بالناس جميعاً، وفيه مسائل:

الأولى: التسليم بعالم الجزاء وان الحساب حق.

---

(١)سورة النحل١٢٥.

الثانية: التحذير من سوء العاقبة والتي تترشح عن الكفر والضلالة والظلم.

الثالثة : النفرة من الظلم وإتباع الظالمين، للإعتبار منهم بلحاظ مضامين هذه الآية، وما فيها من الوعيد لرؤساء الظالمين وأتباعهم.

الرابعة: تدل الآية على أن مقاليد الأمور كلها بيد الله، وأنه سبحانه يبعث الناس بعد الموت ويخرجهم من القبور ليقفوا بين يديه للحساب.

إفاضات الآية

تبعث الآية الناس للإقرار بالعبودية لله عز وجل، والتسليم بأنه سبحانه ينهي عن الظلم والتعاون فيه فمتى ما تخلى الناس عن إتباع الظالمين، وإجتنبوا إطاعتهم فانهم يعجزون عن الظلم ويلتفتون إلى أعمال أخرى وينشغلون بأنفسهم ، ويحرصون على إظهار العدل.

فجاءت الآية بالوعيد والتحذير من يوم القيامة وما فيه من العذاب لتهذيب النفوس وإصلاح المجتمعات، وهو من أسرار لغة الوعيد في القرآن، بأن تكون ذات منافع وغايات متعددة من وجوه:

الأول:الآية من علم الغيب الذي نزل به الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: الوعيد لغة في الإصلاح، وسبب للتدارك والهداية.

الثالث: الآية رحمة بالناس جميعاً، قال تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

الرابع: تنزه الناس من الظلم والإتباع فيه، من جهات:

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

الأولى: دعوة من يتبع الظالمين إلى إجتناب هذا الإتباع.

الثانية: تحذير الناس من إتباع الظالمين، ووضع حد للظلم وسيلة لإجتثاثه من الأرض، وكأن الآية تقطع روافد المدد للظالمين، وتمنع عنهم الوسائل والأسباب التي تساعدهم في الظلم.

الثالثة: بعث الفزع في نفوس الظالمين.

الرابعة: وقوع الفتنة والشقاق بين الظالمين.

وإذ تحكي الآية حال وشقاق الكفار في الآخرة، فانها تعمل على صد الناس عن الكفر وما يترشح عنه من الظلم والتعاون فيه، لقد أمر الله عز وجل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاءت هذه الآية وكل آية من القرآن بهما معاً منطوقاً ومفهوماً، فصحيح أن الآية جاءت بصيغة الجملة الخبرية، وذكر ما يلقاه الكفار يوم القيامة، إلا أنها تزجر الناس عن الظلم، وتدعو إلى ضده وهو العدل والإستقامة وهي أيضاً أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

إذ تبين الآية سوء عاقبة الظالمين ، قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[1] وتذكر الآية بعالم الجزاء وما فيه من الثواب العظيم للمحسنين ، وتحث على الإقتداء بهم والمبادرة إلى فعل الصالحات وتدعو لإجتناب إيذائهم والإضرار بهم بغير حق.

---

[1] سورة غافر ٥٢.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالظرف (إذ) والذي يفيد معنى الماضي ولكن معناه في الآية أعم من وجوه:

الأول: إرادة القطع واليقين بما في الآية من الإخبار.

الثاني: تفضل الله عز وجل بالإخبار عن وقائع يوم القيامة وهي حاضرة عنده لعلمه سبحانه بكل شئ من الموجود والمعدوم.

الثالث: ينشر الله عز وجل رحمته يوم القيامة بين الخلائق بما يجعل إبليس يطمع بها، وجاءت هذه الآية لتوكيد نزول العذاب بالكفار، وبعث اليأس في قلوبهم، وفيه حث للناس جميعاً على نبذ الظلم وترك التعاون فيه.

الرابع: إنذار الكفار من الظلم، وتحذيرهم من الإقامة على الظلم.

الخامس: إقامة الحجة على الظالمين رؤساء ومرؤوسين.

السادس: القرآن يفسر بعضه بعضاً، وجاءت هذه الآية لبيان مصداق من مصاديق التثبيت في قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [1]، وتدل عليه لغة القطع التي تتجلى بصيغة الزمن الماضي، ورؤية العذابَ وكأنه أمر واقع وحاصل .

السابع: بيان مصداق لخاتمة الآية السابقة وإخبارها بأن القوة لله جميعاً وانه سبحانه شديد العذاب.

ولم تقل الآية يتبرأ بل ذكرت الآية البراءة بين المشركين بصيغة الماضي مع أنها تقع في عالم الآخرة، وفيه نكتة عقائدية وهي أن البراءة بينهم قريبة منهم وحاضرة بين ظهرانيهم، فهم يزاولون الظلم جميعاً ولكن بعضهم

---

(١)سورة الرعد٣٩.

يبغض بعضاً للقبح الذاتي للفعل المشترك بينهم، وهو ظلم الناس وإنكار المعجزات ومحاربة الإسلام.

وذكرت الآية تبرأ أقطاب الظلم والشرك من أتباعهم، وفيه مسائل:

الأولى: لقد إتخذ الأتباع هؤلاء الأقطاب أرباباً من دون الله عز وجل، فجاءت هذه الآية لتخبر عن عجزهم عن الذب والدفاع عن أتباعهم.

الثانية: يدل موضوع البراءة على شدة العذاب الذي يتعرض له الظالمون مطلقاً كما تدل عليه الآية السابقة ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾[1].

الثالثة: من أسباب التبرأ تحمل رؤساء الكفر الإثم والوزر من أفعال الذين إتبعوهم ، وهي على شعب:

الأولى: إدعاء الرؤساء بأنهم لم يأمروا الأتباع بما ينكشف يوم تطاير الصحف من ظلمهم للعباد.

الثانية: نزول العذاب الشديد بالرؤساء من الكفار.

الثالثة: رجاء الرؤساء التخفيف من عذابهم.

الرابعة: ذم الأتباع للرؤساء على إزلالهم وأمرهم بطمع الناس.

الخامسة: الأتباع مكلفون على نحو الإستقلال، ويتوجه لهم الخطاب التكليفي في الدنيا بعدم الركون للظالمين والإشتراك في التعدي على الحرمات وكأن الرؤساء يقولون إن وظيفة الأتباع عدم إتباعنا في الظلم.

السادسة: قول الرؤساء أن الأتباع لحقونا بإختيارهم، وقد يدّعون بالحاح الأتباع عليهم بالظلم.

---

(١)سورة البقرة١٦٥.

السابعة: خشية الرؤساء من شهادة الأتباع عليهم، كما يأتي التبرأ عند حدوث هذه الشهادة.

الثامنة: هذا التبرأ جزء من شهادة الرؤساء على الأتباع وإجتهادهم وسعيهم في ظلم الناس.

وقسمت الآية الظالمين بلحاظ التبعية إلى قسمين:

الأول: الرؤساء الذين كانوا متبوعين، وهم أصحاب الأمر والقرار في الظلم.

الثاني: الأتباع الذين ينقادون إلى الرؤساء .

ومن الإعجاز في المقام وصف التبعية الجامع للفريقين، ليكون مانعاً من التأويل الخاطئ وظن وجود قسم ثالث في المقام أو أن الإتباع في غير الظلم، وفي الآية حذف تقديره (إذ تبرأ الذين أتبعوا في الظلم من الذين اتبعوهم في الظلم) وفيه إشارة إلى قبح وحرمة الإتباع في الظلم، ولزوم إجتنابه.

وهل تدل الآية على حصر البراءة بالإتباع، بحيث تنعدم فيما بين رؤساء الكفر، وكذا الأتباع أنفسهم من جهة أخرى ، الجواب لا، من وجوه:

الأول: جاءت الآية بذكر الفرد الأهم في باب البراءة بين المشركين.

الثاني: مجيء آيات القرآن بالإخبار عن التبرأ بين المشركين مطلقاً في الآخرة وإنشغالهم بأنفسهم.

الثالث: عمومات قاعدة إثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، فإخبار الآية عن تبرأ الرؤساء من فعل الأتباع لا يعني حصر البراءة به.

الرابع: ليس من ثبات في مراتب الظالمين، فمن يكون رئيساً لغيره يكون مرؤوساً وتابعاً لفرد آخر من الظالمين، وكذا العكس فمن يكون تابعاً للطاغوت يكون متبوعاً من قبل واحد أو أكثر من الظالمين.

وتبين الآية تعدد مراتب الظلم، وأنه من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً، ومن يكون مرة متبوعاً وأخرى تابعاً فأنه يتبرأ من أتباعه وأفعالهم، ويتبرأ رؤساؤه من فعله، وقد يتبدل الحال مع ذات الشخص من الظالمين مع التباين في موضوع الظلم.

وبعد ذكر البراءة بين المشركين إنتقلت الآية إلى موضوع رؤية الكفار للعذاب، وهذا الإنتقال آية إعجازية في المقام لما فيه من نكتة كلامية وهي عدم إنحصار الأمر بالبراءة بين الكفار وتبادل الغم والذم بل أنهم جميعاً يلقون ذات العاقبة ، قال تعالى ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [1].

من غايات الآية

لقد أخبر القرآن عن وقوع النزاع والخصومة بين أهل النار ، قال تعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [2].

ليكون الخلاف والخصومة بينهم في الدنيا شاهداً متقدماً ومرآة لحالهم في الآخرة .

وجاءت آية البحث لبيان وجه ومصداق من مصاديق هذا التخاصم ووقوعه بخصوص حياتهم في الدنيا، واستدراج بعضهم لبعض في المعاصي، وصيرورة الطواغيت أئمة في الظلم، والأتباع موضوعاً ومادة لذات الظلم، فيقول الأتباع لولاكم لما إرتكبنا السيئات، ويقول كبرائهم لولاكم لما كانت عندنا أفراد وجنود نظلم بها الغير، وفي الآية مسائل :

الأولى : الآية من علم الغيب لما فيها من الإخبار والبيان عن حال الكفار في النار .

---

(١) سورة الإنسان ٣١.

(٢) سورة ص ٤٦.

الثانية : بعث النفرة في نفوس الناس من فعل السيئات الذي يقود الناس والخصومة فيها .

الثالثة : بيان العذاب النفسي للكفار في النار ليضاف إلى عذابهم الجسماني .

الرابعة : حضور أعمال الكفار معهم في النار، فهي لم تغب عنهم، بدليل توجيه بعضهم التهم والذم للآخرين .

الخامسة : التبرأ من أشد مراتب الخصومة وفي الآية دعوة للتبرأ من الظالمين في الدنيا، وعدم محاكاتهم في أفعالهم ولا إتباعهم في سنتهم.

السادسة : بيان صورة وحال من الحالات السائدة بين أهل النار، وهي شيوع البغضاء بينهم ، وعن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[1]،قال : المودة[2].

السابعة : تأكيد الحساب الأخروي ودخول الكفار النار .

---

(1) سورة البقرة ١٦٦.

(2) الدر المنثور ٣٣٣/١.

التفسير

قوله تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

الأولى : تعتبر الآية مدرسة في التأديب والتوجيه فهذه الآيات تتناول الحب كفعل وجداني وجودي شعوري.

الثانية : تبين الآيات الحب وفق التقسيم العقائدي ومنافع المعرفة الإلهية واضرار الهوى والجحود والمحبة الزائفة.

الثالثة : تحث الآية على جعل الحب وتوجيهه وفق قواعد شرعية واسس عقائدية سليمة.

الرابعة : لقد احب الله عز وجل خلقه واكرمهم، واراد منهم ان يحبوه.

الخامسة : تفضل الله سبحانه بجعل الثواب والجزاء الحسن على ذلك الحب، فلا يرضى سبحانه ان يوجه الحب في غير طاعته ومرضاته.

السادسة : تبين الآية الأضرار المترتبة على عدم توظيف الحب في مرضاته يوم الجزاء اذ تحصل الخصومة والفرقة والنزاع بينهم بعد ان جعلوه سبباً وطريقاً الى المعصية.

السابعة : تظهر الآية الملازمة بين الدنيا والآخرة، وعدم ترك فعل من غير حساب.

الثامنة : ﴿تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ يدل على انهم كانوا عقلاء وينطقون ويشملهم الحساب والعقاب بحسب ظاهر الآية ومجيء واو الجماعة والقرائن المقالية، مما يرجح القول بان الأنداد كانوا من المتبوعين الظلمة المشركين ولو في بعض الصور وعلى نحو السالبة الجزئية، كما ان عبادة الاصنام ايضاً تتم من تابع ومتبوع، فمن المتبوعين فيها رؤساء الضلالة والكهنة ونحوهم، ولا يمنع من ان يشترك معهم شياطين الجن.

التاسعة : ترى كيف ولماذا يكون التبرأ والتخلي عنهم، ان المتبوعين يعلنون يومئذ انهم لم يكرهوا الأتباع بل هم الذين احبوهم واحبوا عملهم او طمعوا بما عندهم فاتبعوهم عن اختيار، ولعل المتبوعين يطالبون الأتباع ايضاً بانهم كانوا مادة ظلمهم فلو لم يعينوهم على فعل المعاصي والتعدي والظلم لما استطاعوا الدوام والبقاء في مراتب رياسة الكفر والضلالة، ولتوجهوا للتدبر بالدين الجديد والآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي التأريخ وقائع تظهر ان الملك يهم ان يسلم ولكنه يخشى من حوله الإنقلاب عليه، ولعله بعدها يقود او يرسل الجيوش لمحاربة المسلمين.

العاشرة : رؤية العذاب والتعرض لصنوف العقاب يؤدي قهراً الى هذا التبرأ.

الحادية عشرة : ان التبرأ لا يترتب عليه أي أثر لانتهاء مدة التكليف بلحظة مغادرة الدنيا، ولأن الآخرة دار حساب بلا عمل.

الثانية عشرة : مع ان الآخرة عالم الحساب فان الكفار لم يسألوا العودة للدنيا لعمل الصالحات، اعلنوا فقط التبرأ من أربابهم.

الثالثة عشرة : ذكر هذا التبرأ جاء لبيان عجز المتبوع عن نصرة التابع.

الرابعة عشرة : تدل الآية الكريمة بالدلالة التضمنية على اشتراك الإثنين الظالم ومن تبعه في ظلمه في العذاب.

الخامسة عشرة : تدل الآية على ان العذاب لا ينحصر بالمباشر بل يشمل المسبب المتبوع.

السادسة عشرة : الظاهر من سياق الآية ان التبرأ في حالات الحساب وهم يرون العذاب الذي ينتظرهم، وان كان حساب الكافرين بصورته المجردة وجهاً من وجوه العذاب.

السابعة عشرة : الآية تطرد الفرح والسعادة بالنعم الظاهرة التي يعيشها المتبوع والتي يحصل على جزء منها التابع له، فالآية صاعقة قرآنية وسهم موجه الى صدور الكفار يبدد ما هم عليه من الفرح.

الثامنة عشرة : في الآية بيان عملي واخبار عن الفارق النوعي بين الحياة الدنيا وبين الآخرة بالنسبة للكفار.

التاسعة عشرة : الآية دعوة لعامة اهل الشرك بالمحافظة على الحد الأدنى من التنزه وهو الحب القلبي وعدم منحه لأرباب الكفر.

العشرون : المعروف ان الجناية تكون على المباشر الا ان يدل دليل على تحمل السبب لها، والظاهر ان المتبوعين حاولوا التنصل والتبرأ من جرائم اتباعهم فجاءت الآية بحذف المضاف أي تبرأ الذين اتبعوا من جرائم الذين اتبعوا، وهذا التأويل احد المصاديق فهو لا يمنع من فهم ظاهر الآية وهو التبرء منهم كأشخاص بالإضافة الى افعالهم.

الحادية والعشرون : اشارت الآية الكريمة الى صفحة من صفحات الحساب خصوصاً وان يوم القيامة فيه مواطن متعددة تتباين فيها صور الحساب ومراتبه.

الثانية والعشرون : يحصل التبرأ حال رؤية العذاب وما ينتظرهم من العقاب، اما بعده فتبينه مجسداً آيات أخرى.

الثالثة والعشرون : التبرأ يدل على توجه الخطاب بالتكليف الى الأتباع مثلما هو موجه الى كبرائهم وانه يكون معلوماً يوم القيامة.

الرابعة والعشرون : عجزوا عن تحمل العذاب الذي استحقوه بالأصالة والذي اصبح واقعاً ملموساً، فاعلنوا عن براءتهم من ذنوب وافعال غيرهم من اتباعهم عسى ان يُرفع عنهم.

الخامسة والعشرون : التخلي والتبرأ من ضلالة الأتباع لا يعني التنزه

التام وعدم حمل اوزارهم فلله الحجة البالغة، وضلالة الأتباع وما اقترفوه جاء بالجمع بين السبب والمباشر، والسبب هم المتبوعون والمباشر هم الأتباع، وقد يشترك كل منهما في السبب وفي المباشرة كما هو الغالب ولو على نحو متفاوت او يشتركان في احدهما.

السادسة والعشرون : ظهور العدل الإلهي يوم القيامة واتاحة الفرصة للمجرم بالذب عن نفسه والادعاء الابتدائي بالتنزه عما اقترف من السيئات والمعاصي.

السابعة والعشرون :الظاهر ان الأتباع والمتبوعين كليهما من الذين ظلموا الذين تشير لهم الآية السابقة سواء كانا معاً متخذين انداداً من دون الله، أم ان بعضهم يتخذ الآخر له رباً من دون الله عز وجل.

الثامنة والعشرون : ان بعضهم ادعى الربوبية كما في فرعون.

التاسعة والعشرون : يصدق عنوان الشرك بمسمى الأتباع على الباطل ويتحقق في الأفعال والأقوال بالمعصية وعدم الإمتثال لأحكام النبوة، فقد جاء ذكر الأتباع في الآية مطلقاً وغير مقيد بصفة او خصوصية او فعل مما يستلزم الحذر والتوقي والإلتفات.

الثلاثون : بعض من الأتباع والمتبوعين اتخذ الأصنام، وبعضهم استحق الوصف باتباع الآخرين له لما يدعو اليه من الضلالة والحكم بغير ما انزل الله.

الحادية والثلاثون : يحمل التبرأ على معاني عديدة تساعد القرينة والتبادر الذي هو من علامات الحقيقة وانصراف اللفظ لها، منها ان المتبوع انكر معرفة العدد الكبير من الأتباع الذين يبلغون الآلاف وينتشرون في الأمصار ويقول لا اعرفهم مما يعني تبرأه من اعمالهم على نحو الإنطباق.

وذكر في الآية قولان :

الأول : إن الذين اتبعوا هم رؤساء الكفر والضلالة .

الثاني : إنهم الشياطين تبرؤوا من الإنس، وهذا قول السدي[1].

والصحيح هو الأول ، ويكون إذ تعكس الآية الإفتتان في الحياة الدنيا بين الكفار، وإنقياد بعضهم لبعض في الباطل حباً للدنيا وزهداً بالثواب .

وذكرت الآية التالية كبراء الشرك والضلالة . ولم تأت الآية بصيغة ظرف أو فعل الإستقبال (إذا تبرأ)

بل جاءت بصيغة الماضي (إذ تبرأ) لإفادة أن تخاصم أهل النار أمر حتم، ولابد أن يحدث، وهو من علم الغيب الذي أخبر به الله في القرآن ولعله لإطلاع الملائكة أو ارسل على صورة هذا التخاصم كما في حديث الإسراء وإطلاع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على النار .

ويحتمل الضمير (هم) في قوله تعالى ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ وجوها :

الأول : إنتفاء المودة بين رؤساء الكفر .

الثاني : إنقطاع الصلات بين الرؤساء والأتباع من الكفار .

الثالث : إرادة العموم وكل فرد من الكفار تابعاً أو متبوعاً جفى الآخرين من الكفار .

والصحيح هو الثالث فليس من وصل وعهد ونصرة أو شفاعة فيما بينهم، وأدرك كل واحد منهم ظلمه لنفسه في الدنيا وانشغل بسوء عاقبته وهل ينفع رؤساء الكفر تبرؤهم من أتباعهم وما عملوه أو انه يخفف عنهم

---

(1) النكت والعيون١/١١٦.

العذاب الجواب لا، قال تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [1].

وتتعلق خاتمة الآية التالية برؤساء الكفر وأتباعهم مجتمعين ومتفرقين قال تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [2].

أي رؤساء الكفر وأتباعهم وأن التبرأ والخصومة فيما بينهم لا فائدة لهم بها إنما هي زيادة في عذابهم .

وجاء مضامين قول الكفار بصيغة التمني (لو أن لنا كرة) أي أنهم موقنون بعدم عودتهم إلى دار الدنيا، وفيه دعوة للناس للمبادرة إلى التوبة في الحياة الدنيا والتبرأ من الفعل القبيح وأرباب السوء الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ومع أن وقائع الآية تخص عالم الآخرة وأن قولهم ورد بصيغة الفعل الماضي (وقال) ويفيد القطع والثبات والتحقيق، ويظهر أن ورغبتهم بالتبرأ من رؤسائهم في الضلالة حتم وواقع.

قوله تعالى ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾

الأولى : في الآية السابقة جاء الوعيد والإنذار واستحضار عذاب يوم القيامة بقوله تعالى ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾.

الثانية : جاءت هذه الآية لبيان حصول العذاب ودنوه منهم يوم القيامة وليس من فاصل بينهما مما يدل على الغضب والسخط الإلهي عليهم والحاجة الى إخبار المسلمين بحالهم حينئذ.

الثالثة : مجئ الإخبار عن العذاب الواقعي يوم القيامة عقب آية الوعيد

---

(١) سورة النحل ٢٥.

(٢) سورة البقرة ١٦٧.

في ذات الموضوع يدل بالدلالة الإلتزامية على قرب يوم القيامة وعدم شمول المشركين بالرحمة والرأفة حينئذ.

الرابعة : ترى لماذا يتبرأ الذين أُتبعوا من الذين اتبعوا وليس العكس، الجواب: لأن الذين اتبعوا اختاروا حب غير الله وليس في الحب تقية او اكراه او اضطرار، الرؤساء والقادة من المشركين لم يجبروهم على حبهم.

الخامسة : الحب عنوان الإنقياد واعلان للولاء وقد يكون سبباً لتحريضهم ولو على نحو السالبة الجزئية على محاربة الإسلام والإشتراك في شن المكائد على المسلمين.

السادسة : حب الأتباع نوع تزيين للمعصية والجحود ومادة لإستدامته والإقامة عليه.

السابعة : الحب كيفية نفسانية عند الإنسان لا يستطيع غيره من الخلائق التحكم بها والسيطرة عليها ، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبها تبارك وتعالى[1]، فالإنسان بارادته يحب وبارادته يكره وبذا تقوم الحجة على الاتباع والله الهادي سواء السبيل.

الثامنة : لقد أراد الله عز وجل من الناس ان يحبوه ويتوجهوا الى طاعته ولأن الكافرين أحبوا الأنداد فكان العذاب هو عاقبتهم.

التاسعة : الواو في رأوا يعود الى التابعين والمتبوعين.

العاشرة : رؤية العذاب في الآية اعم من الرؤية البصرية فانها تعني الإستحقاق والجزاء والشروع بالأمر والدخول فيه، فهم يرونه كعاقبة وعقوبة ثابتة لهم.

---

(١) تفسير الطبري ٦/٢١٦.

الحادية عشرة : التبرأ يكون حال رؤية العذاب والتأكد من التعرض له، ورؤيته اعم من ان تنحصر بحال التبرأ والتنزه ومحاولة التخلص من ذنوب الأتباع فهم يرونه قبل التبرأ واثناءه وبعده.

الثانية عشرة : قد تأتي الرؤية بمعنى العلم وتتعدى حينئذ الى مفعولين، اما الرؤية بمعنى النظر فتتعدى الى مفعول واحد، لذا قيل بان الرؤية النظر بالعين والقلب، فرؤية العذاب كانت وحدها بلاء واذى.

الثالثة عشرة : جاء التبرأ من شدة الفزع والخوف وكأنه انتباه ومحاولة للتقليل من الأوزار التي حملوها على ظهورهم.

الرابعة عشرة : لقد كان كبراؤهم وفي الجملة يعلمون انهم يستحقون العذاب كما في فرعون وغيره من الطواغيت ممن يقر بالخفاء بالربوبية لله عز وجل فلماذا هذا التبرأ، الظاهر ان العذاب على مراتب ودرجات وارادوا بهذا التنزه والتخلص السعي للنجاة من اشد وجوه العذاب والعقاب وبعض فصوله الاضافية.

الخامسة عشرة : على القول بان الواو استئنافية ايضاً فرؤية العذاب تأتي متعقبة للتبرأ، أي انه لا ينفع فريقاً منهم لأنه حتمي.

قوله تعالى ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾

ذكرت فيه أقوال:

الأول : انها المودة، عن ابن عباس.

الثاني : تواصلهم في الدنيا، عن مجاهد.

الثالث : الاسباب: المنازل التي كانت لهم في الدنيا، عن الربيع.

الرابع : العهود والمواثيق والإيمان التي يتوادون بها.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ويمكن اجتماعها، وفي الآية مسائل:

الأولى : دلالة الخيبة المطلقة والخسران وتعذر الشفاعة.

الثانية : انعدام القوة عند المتبوعين لوقوف الجميع اذلاء بين يدي الله عز وجل.

الثالثة : جاءت الأسباب هنا مطلقة فتشمل صيغ المحبة والود بينهم لتتحول الى خصومة ولعنة.

الرابعة : ظهور زيف العهود والمواثيق التي قطعوها في محبتهم والإخلاص لهم والذب عنهم وادعاء كفايتهم.

الخامسة : عدم حضور الإمتيازات والمنح والأملاك التي اعطوها لهم في الدنيا وغياب آثار منازل الزلفى والوجاهة لديهم.

السادسة : انقطاع اسباب العز التي كانت لهم في الدنيا بسبب صلتهم وقربهم من اقطاب الشرك.

السابعة : انه مشهد من مشاهد يوم القيامة يعكس حال الكفار وانشغالهم بأنفسهم في مقابل الآيات التي تخبر عن السرور الذي يتغشى المؤمنين يومئذ.

الثامنة : تلك ساعة يشفي الله عز وجل بها صدور المؤمنين ويجعل اليأس المطلق يملأ قلوب المشركين.

التاسعة : السبب في الاصل الحبل ويأتي بمعنى الطريق كما في قوله تعالى ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[1]، أي ان طرق النجاة والخلاص اغلقت في وجوه الطائفتين تابعين ومتبوعين لوحدة الموضوع في تنقيح المناط أي لإلتقائهم واشتراكهم بالكفر والجحود.

العاشرة : جاءت هذه الآية رحمة للجميع فهي من مصاديق صفة

---

(1) سورة الكهف ٨٥.

(الرحمن)، اذ انها بشارة وتأديب للمسلمين وانذار وتنبيه للكافرين، ولطف سماوي لحث الناس على الالتفات الى وظائفهم الشرعية وهجران الغفلة ولزوم توجيه الحب والعاطفة في مسالك رضا الله تعالى.

الحادية عشرة : ظاهر الآية ان رؤية العذاب يقترن بها تقطع الاسباب وانعدام الشفيع للذين اتخذوا من دون الله أنداداً.

وعن جابر قال: قال سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول ينقطع يوم القيامة كل سبب ونسب إلا سببي ونسبي[١].

وفيه دعوة لتعاهد طاعة الله ورسوله وحب الله ورسوله وإكرام لأهل البيت وترغيب بالمودة والصلات النسبية معهم، قال تعالى﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٢]، ويقال للرجل الفاضل في الدين إرتقى فلان في الأسباب[٣][٤].

---

(١) حلية الأولياء ٢/٢٠٣ .

(٢) سورة الشورى٢٣.

(٣) العين ٢/٥٢.

(٤)بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن
وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

الحمد لله الذي جعل القرآن ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، قال تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ◆ جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾[٤]، وفي الآية أعلاه إخبار عن علوم الغيب من جهتين:

الأولى: صعود الناس في السماء بالأسباب والعلم.

الثانية: التحذير والإنذار من الإقامة في الكواكب العلوية لأن العذاب يأتيهم ولو صار سكانها كلهم جنداً وتسلحوا بالعلم والأسباب، وسواء صح هذا التأويل منا أو لم يصح فإني أدعو الذين يرومون إرسال الناس للسكن في الكواكب الأخرى والتكاثر فيها وإستعمارها إلى دراسة إستدامة العيش هناك وآثارها وما يترتب عليها مثل الإحتباس الحراري، بالإقتباس من القرآن والإنتفاع من المغيبات فيه، كما أني أدعو ذوي الإختصاص وعشاق أخبار الفضاء وتتبع إعجاز القرآن في الأمور العلمية إلى دعوة القائمين على فكرة السكن في الكواكب الأخرى إلى دراسة عدم إمكان إستدامة الحياة في الكواكب الأخرى وألا يحصروا عنايتهم ببداية السكن وإمكانها.

وتتصف الأرض عن كواكب المجموعة الشمسية بإحاطة الغلاف الجوي بها، وقيل عليه تتوقف الحياة في الدنيا، والإحتباس الحراري(GLOBAL WANING) هو زيادة درجة حرارة أدنى طبقات الغلاف الجوي بسبب كثرة إنبعاثات الغازات الدفينة من ثاني أوكسيد الكاربون وغاز الميثان والأوزون وبحار الماء التي تحافظ ومنذ مئات السنين على تدفئة سطح الأرض بقدرة الله وما طرأ عليها في هذه الأزمنة ومنذ الثورة الصناعية سنة(١٧٥٠) وأستعمال المجتمعات للوقود الأحفوري الفحم، النفط، الغاز، وما يسببه من زيادة غاز ثاني أوكسيد الكاربون في الجو وإرتفاع درجات الحرارة والتخلخل التدريجي لمكونات الغلاف الجوي والتغير المناخي وإرتفاع درجات الحرارة وأثرها على البيئة وانقراض وضمور أنواع من النبات والحيوان إلى جانب الأضرار على الجنس البشري خصوصاً في المناطق الأكثر فقراً وانتشار الأمراض لنشاط فيروسات وجراثيم كانت هامدة.

ولقد تفضل الله ورزقنا إصدار الجزء الواحد بعد المائة من معالم الإيمان في تفسير القرآن في آية واحدة وهي(هذا بيان للناس للمتقين) وكله تأويل وإستنباط من ذات الآية الكريمة ونطبعه على نفقتنا الخاصة مع أنه من أفضل موارد الخمس والزكاة.

لقد خلق الله عز وجل الإنسان لتكون دار إقامته بدلالة قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ على حصر سكناه في الأرض، وهبوط آدم وحواء من الجنة وقد لايكون هذا التأويل منا تاماً والمدار على نتائج الأبحاث العلمية وندعو لتكثيفها بخصوص ما لو عاش

وورد اسم الجلالة وذكره في الآيات العشرين السابقة باستثناء هذه الآية وقوله تعالى﴿خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾[1]، وكل من الآيتين في ذم الكفار وبيان سوء عاقبتهم وبعثهم الدائم في النار، وفيه مسائل:

الأولى : إنذار الكفار وزجرهم عن الإصرار على الكفر.

الثانية : دعوة الناس للتوبة والإنابة.

الثالثة : ندب الناس للأمن والسلامة يوم القيامة لذا تكرر لفظ العذاب في الآيتين.

الرابعة : الوعيد في كل من الآيتين من رحمة الله بالناس في الدنيا.

بحث كلامي

تجسد الآية صورة من صور الآخرة تتصف بالأذى الشديد والبلاء للكفار، ولكنه بلاء مما كسبت أيديهم، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "انما هي اعمالكم ترد عليكم"، وفي الآية نكت عقائدية عرفانية تظهر من عدم تأذي المؤمنين بهذا العذاب حينما يمر عليهم في القرآن، نعم يخافون منه فيتجنبون اسبابه وكأنهم يعلمون بانهم خارجون من هذا العذاب بالتخصص وليس بالتخصيص، ترتجف منه قلوبهم لأسباب:

الأولى : هول العذاب وشدته.

الثانية : لأن حصوله قطعي لأخبار الله تعالى عنه.

الناس على أي من الكواكب خمسين سنة وبما ينقلونه معهم من التقنية والأبداع، ودراسات أخرى لو عاشوا مائة سنة وهكذا، ولقد جعل الله عز وجل آيات القرآن بشارة وإنذاراً وطريقاً للهداية.

[1] سورة البقرة ١٦٢.

الثالثة : لما عند المسلم من الشفقة والرأفة المطلقة والحس.

الرابعة : يدل هذا الخوف والوجل على ايمان المسلمين بالغيب ومواطن يوم القيامة.

الخامسة : الخوف رجاء العفو وهو نوع التجاء الى الله تعالى.

السادسة : الخوف من هذا العذاب طريق ومقدمة لإتيان الأعمال الصالحة.

السابعة : انه ارتقاء في سلم الكمالات، فالآية مدرسة في الصبر والورع، وهذا المعنى من اسمى المقاصد في المفاهيم بمعناها الإصطلاحي اذ يكون العقاب المحتمل للكافرين مدرسة تأديبية خصوصاً وان فلسفة الثواب والعقاب في الآخرة مبنية على افعال الناس في الدنيا ومترشحة عنها لذا جاء تبرأ الكفار بعضهم من بعض.

الثامنة : تزيد الآية من البصيرة وتكشف الغطاء عما في مباهج الدنيا من الزيف.

التاسعة : في الآية دعوة للسعي الحثيث الى منازل السعادة في الآخرة واجتناب الاسباب التي تحجبها.

العاشرة : الآية سياحة في عالم الجزاء ومن منافعها الإعتبار والإتعاظ.

الحادية عشرة : في مضامين الآية وقاية واحتراز من اتباع الظالم في ظلمه والرضا بفعله.

بحث اعجازي

تجعل الآية الكافرين يتساءلون فيما بينهم لماذا يتطلع المسلمون الى الآخرة ولا يكتفون بما عندهم من الجاه في الدنيا، ليكون هذا التساؤل نوع حجة عليهم وسبيلاً الى ازاحة ما على ابصارهم من الغشاوة التي تحول دون فهم

ما يتصف به نعيم الدنيا من الزوال وسرعة الإنحسار، لذا فان التداخل بين الأمم لا يخلو من نفع باقامة الحجة عليهم، وهذه الآية وما شابهها مدرسة أخلاقية وحرز مما في التقارب والتداخل بين الملل والأمم من الإغراء والأغواء، وهذا من اعجاز الآية وهو تعدد واستحداث وجوه تربوية وتأديبية واخلاقية وعقائدية جديدة للآية وفق التطور الحديث في الميادين المختلفة مما يعني أن اعجاز الآية القرآنية لم يستوف بعد وان اعجاز القرآن من الأمور التوليدية وهو من اللامتناه وليس محدوداً بحد معين او زمان او اشخاص.

ومع ان الدراسات في باب اعجاز القرآن قاصرة ومتخلفة عن موضوعه وحقيقة كنهه بسبب قصور عقول البشر عن الإحاطة والله هو العفو الكريم، فان هذه الدراسات تبدو وفقيرة وتحتاج السعة والتفصيل بلحاظ ما ينتظرنا في المستقبل من اعجاز القرآن.

ومن اعجازه الذاتي انه هو الذي يكتشف هذه المناهل العلمية ويدل على ما فيه من الوجوه الإعجازية، وتتجلى منافع العقل البشري بالإيمان باستخراج الدلالات والبيان الذاتي والملازمة بين اسرار الآيات وعلومها وبين الإرتقاء العلمي الحديث وبما ينفع الناس في أمور الدين والدنيا، قال تعالى في وصف القرآن ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران ١٣٨.

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ **الآية ١٦٧**

الإعراب واللغة

وقال: الواو حرف عطف، قال: فعل ماض.

الذين: فاعل، إتبعوا: فعل ماض، الواو: فاعل، والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول.

لو: حرف شرط غير جازم، ان لنا: ان حرف مشبه بالفعل لنا: جار ومجرور خبر ان المقدم، كرة: اسم (ان) المؤخر، فنتبرأ: الفاء هي السببية، نتبرأ: فعل مضارع منصوب بان مضمرة بعد فاء السببية لصيغة التمني في(لو)، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن، منهم: جار ومجرور متعلقان بنتبرأ.

كما: جار ومجرور، ما: مصدرية، والجار والمجرور في محل نصب مفعول مطلق.

تبرءوا: فعل ماض وفاعل، منا: جار ومجرور متعلقان بتبرءوا.

كذلك: الكاف حرف جر، اسم الإشارة (ذا): اسم مجرور، وعن سيبويه انه في محل نصب على الحال اللام للبعد، و(الكاف) للخطاب.

يريهم: فعل مضارع، والضمير هم: مفعول به أول.

اعمالهم: اعمال: مفعول به ثان وهو مضاف، والضمير (هم) مضاف اليه، والميم منه جمع الذكور العقلاء كما في انتم، وعلى اللغة المشهورة

ساكنة ولا تضم الا عند التقائها بساكن آخر.

حسرات: حال منصوب بالكسرة، وقيل مفعول به ثالث عليهم:جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لحسرات .

وما:الواو حرف عطف وحالية، ما:نافية تعمل عمل ليس،هم: ضمير منفصل في محل رفع اسمِ ما، بخارجين: الباء حرف جر زائد، وخارجين: مجرور لفظاً منصوب محلاً .

والحسرات: جمع حسرة وهي الندامة الشديدة على امر قد فات، وقال المرار:

ما انا اليوم على شيء خلا

يا ابنة القين، تولى بحسير[1]

في سياق الآيات

تتعلق هذه الآيات بموضوع واحد وهو المحبة والإنجذاب بين المشركين بحسب التبعية وهذه الآية جاءت لوصف حال وموقف الأتباع.

والصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين :

الأولى : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة السابقة، وفيها وجوه :

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [2]، وفيها مسائل :

الأولى : تقديم الجمع بين الآيتين على وجوه :

---

(١) النكت والعيون ٤/٢٩٩.

(٢) الآية ١٦٧.

الأول : إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات .

الثانية : وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة إذ تبرأ الذين اتبعوا .

الثالث : إذ تبرأ الذين اتبعوا كذلك يريهم أعمالهم حسرات .

الرابع : إذ تبرأ الذين اتبعوا وما هم بخارجين من النار .

الخامس : وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة ورأوا العذاب .

السادس : إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وما هم بخارجين من النار .

الثانية : إتحاد موضوع الآيتين، فكل واحدة منهما تتعلق بحال الكفار في النار، وجاءت الآية السابقة بخصوص رؤساء الكفر، أما هذه الآية فتتعلق باتباعهم مع تعين الجامع المشترك بينهم وهو اللبث الدائم في النار .

الثالثة : بيان حقيقة وهي قدرة أهل النار على الكلام وإستحضار أعمالهم في الدنيا وحال اللوم والخصومة فيما بينهم .

الرابعة : لقد تبرأ رؤساء الكفر يوم القيامة من أتباعهم، أما الأتباع فتمنوا العودة إلى الدنيا فيتبرأون من رؤسائهم في الضلالة ليبقوا بلا أعوان ويتعذر عليهم الظلم وتتعدم عندهم نعمة السلطان والجاه وفي التنزيل ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [1].

الخامسة : تكرار لفظ (الذين اتبعوا) في الآيتين وتضمنت ذكر التبرأ بين الفريقين، ليكون في النار فريقين بينهما عداوة وبغضاء كعاقبة للود والتآلف فريقان بينهم على الباطل والمنكر.

---

[1] سورة المؤمنون ٩٩-١٠٠.

السادسة : تدعو كل من الآيتين الناس إلى إجتناب إتباع الطواغيت، وعدم الإنقياد لأوامرهم في الظلم والتعدي .

السابعة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ويحتمل وجهين :

الأول : إرادة الأتباع بلحاظ أن الآية تتضمن كلامهم .

الثاني : المقصود عموم الكفار من الرؤساء الذين ذكرت الآية السابقة قولهم وتبرأ هم من أتباعهم، والأتباع الذين جاءت هذه الآية بذكر قولهم . والصحيح هو الثاني

لورود آيات القرآن بما يدل على خلود الفريقين في النار وفي التنزيل ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1].

وهل الخصومة بين الكفار التي نذكرها آية البحث والسياق من الضعف والمضاعفة في العذاب الذين تذكره الآية أعلاه، الجواب لا لتعلق الضعف بذات النار بقوله تعالى ﴿ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ .

الثامنة : تكرر موضوع البراءة بين الفريقين في الآيتين، وفيه شاهد على عذاب الخزي الذي يلحق الكفار .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [2]، وفيها مسائل :

---

(١) سورة الأعراف ٣٨.

(٢) الآية ١٦٥.

الأولى : موضوع آية البحث عالم الآخرة، وتتضمن كلام الظالمين من أتباع الطاغوت، وذلهم له وتمنيهم العودة إلى الدنيا للتبرأ منه . أما موضوع آية السياق فهو بيان التباين بين المؤمنين و الكفار في الدنيا مع إنذار الكافرين الذي يدل في مفهومه على الأمن والسلامة للمؤمنين يوم القيامة، قال تعالى ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين إنذار الناس من إتباع الظالمين والميل إليهم، قال تعالى ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ﴾ (٢).

الثالثة : آية السياق رحمة بالناس جميعاً إذ تبين أن القدرة المطلقة لله تعالى، وليس من قوة لغير الله، وتدل الآية على ملازمة الوهن والضعف للخلائق مجتمعة ومتفرقة .

الرابعة : أختتمت آية السياق بالإخبار بأن الله عز وجل شديد العذاب، إذ يقيم الكفار في النار على نحو دائم وهو الذي تبينه خاتمة آية البحث وما هم بخارجين من النار .

الخامسة : من شدة عذاب الكافرين يوم القيامة أن الله عز وجل يريهم سجل أعمالهم السيئة بأن تكون حاضرة عندهم فيزداون ألماً وحزناً .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وفيه مسائل :

الأولى : يفيد الجمع بين الآيتين إقامة الحجة على الكفار بالآيات الكونية التي تدعو إلى العصمة من الكفر ونبذ الظلم .

---

(١) سورة الأنعام٤٨.

(٢) سورة هود ١١٣.

الثانية : أخبرت آية السياق عن إنتفاع الناس جميعاً من جريان السفن في البحار ووسائط النقل مطلقاً، إذ أن ذكر السفن من باب المثال والآية العظمى لتكون حجة على الذين يتبعون رؤساء الكفر من قريش وأمثالهم.

الثالثة : تضمنت آية البحث الإنذار والوعيد لكفار مكة، أما آية السياق فجاءت لتذكيرهم والناس جميعاً بنعم الله عز وجل وآياته في الأرض والسماء .

الرابعة : أختتمت آية السياق بالتذكير بنعمة العقل، ولزوم توظيفها في التدبر بالآيات الكونية، وجاءت آية البحث لذم الكفار الذين يلقون بأنفسهم إلى العذاب .

الثاني : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾[1]،وفيها مسائل :

الأول : تحكي آية البحث حال فريق من الكفار في الآخرة، وندمهم وحسرتهم على سوء أفعالهم، ويتصف هذا الفريق باتباعه للطواغيت أما آية السياق فتتضمن الخطاب للناس جميعاً بأن يأكلوا الحلال الطيب .

الثانية : تحذر آية السياق من إتباع إغواء الشيطان، وتذكر آية البحث بالمآل الذي وصل إليه الكفار لإتباعهم الشيطان وهو الخلود في العذاب الاليم .

الثالثة : ذكرت آية البحث العداوة والخصومة والعداوة بين التابع والمتبوع من الكفار وهم في النار .

وذكرت آية السياق قانوناً كلياً وهو أن الشيطان عدو مبين للناس جميعاً ، لتتضمن الآيتان في مفهومهما الثناء على المؤمنين لنجاتهم من إغواء

---

(١) الآية ١٦٨ .

الشيطان وسلامتهم من إتباعه، قال تعالى في ذم الكافرين ﴿وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ﴾ [1].

الرابعة : آية السياق حجة على الكفار لأنها تدعوهم للإيمان والشكر لله على النعم والتنزه من إتباع رؤساء الكفر والضلالة .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [2]، وفيها مسائل :

الأولى : لما ذكرت آية السياق الفعل القبيح للشيطان وأمره بالسوء والفحشاء تضمنت آية البحث مصداقاً من هذا الفعل وهو إتباع رؤساء الكفر والضلالة .

الثانية : من السوء إتباع الطاغوت، والظلم للناس، والتعدي على المسلمين بغير حق والطاعة لرؤساء الكفر من قريش، فجاءت آية البحث للتحذير والإنذار والبيان.

الثالثة : ذكرت كل من الآيتين مادة (تبع) مع إتحاد الموضوع وأنه إتباع بالباطل والإثم ومقدمة للعذاب .

الرابعة : من أسباب الهلكة التي تقود الكفار إلى النار قولهم على الله ما لا يعلمون . ليفيد الجمع بين الآيتين تحذير الناس من الكذب على الله ورسوله .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [1]، وفيه مسائل :

---

(1) سورة النمل ٢٤.

(2) الآية ١٦٩.

الأولى : ذكرت كل من الآيتين مادة (تبع) مع التباين بينهما من وجوه :

الأول : تحقق إتباع الكفار لرؤساء الضلالة .

الثاني : مجئ الأمر لهم باتباع التنزيل والوحي وإمتناعهم عن إتباعه .

الثالث : قيام الكفار باتباع آبائهم مع ظلالتهم .

الثانية : تعلق موضوع آية البحث بيوم القيامة وحال الكفار وهم في العذاب الأليم، أما آية السياق فجاءت بانذارهم وهم في الدنيا للتوقي من تلك الحال وشدة العقاب . قال تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [٢].

الثالثة : دعوة الناس لتوظيف العقل في المعاملات وعالم الإختيار للنجاة من الركون لرؤساء الكفر .

الرابعة : ذكرت آية البحث أن أعمال الكفار تعرض عليهم وهم في النار لتكون حسرات عليهم، ومنها بلحاظ آية السياق أمور :

الأول : مجئ الدعوة لهم لإتباع التنزيل .

الثاني : حث الكفار على الإيمان بالله .

الثالث : إصرار الكفار على إتباع آبائهم في ضلالتهم .

اعجاز الآية

الإخبار والقطع بدخول الكفار النار ودوام العذاب وخلودهم فيه وكيف ان الأتباع لم يعلنوا التبرء من المتبوعين في الآخرة بل علقوها على العودة الى الحياة الدنيا وكأنهم سألوا التكليف مرة اخرى، والظاهر انهم ادركوا عدم الفائدة من التبرء وارادوا التخلي المتبوعين في الدنيا ايضاً.

---

(١) الآية ١٧٠.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

لما ذكرت الآية السابقة قول الرؤساء من الكفار وبراءتهم من إتباعهم وما فعلوه من السيئات بأمرهم ورضاهم جاءت هذه الآية بذكر قول الأتباع، فهل هو من الإحتجاج ،الجواب لا، بل هو من اللوم والخصومة والذم فيما بينهم، وفيه بيان لحال أهل النار،وتباينهم عن أهل الجنة الذين أثنى عليهم الله عز وجل ورزقهم الثواب العظيم، قال تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾[1].

وفي الجمع بين الآيتين وبيان التضاد والتناقض بينهم دعوة الناس للإيمان والتنزه عن الظلم والتعدي وتبين آية البحث أن الحياة الدنيا مناسبة للتوبة، وفرصته للتخلي عن الظالمين وإجتناب الركون إليهم،

ويدل قولهم ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ على إقامة الحجة على إتباع الظالمين، بأنه بامكانهم التخلي عنهم، واجتناب الإنصياع إلى أوامرهم، وتسخير الذات في طاعتهم وبما لا يرضي الله عز وجل .

وليس من حد لوجوه النجاة من أعباء الركون للظالمين، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾[2].

وقد هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة والمدينة بدينهم فرزقهم الله الشأن والنصر والعز في النشأتين، ومن إعجاز الآية أنها إخبار عن عالم الغيب وأمور الآخرة وحال الكفار في النار .

(1) سورة الحجر ٤٧.
(2)سورة النساء ٩٧.

ويمكن تسمية الآية آية (وقال الذين اتبعوا) ولم يرد لفظ (الذين اتبعوا) في القرآن إلا في هذه الآية .

الآية سلاح

في الآية موعظة وتذكرة ووعيد وهي سلاح بيد المسلمين للإنذار والتحذير والتوبيخ.

لم يطلع أحد من أهل الدنيا على حال أهل النار إلا ما ورد به النص كما في حديث الإسراء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ثمّ جاوزنا فمررنا بملك آخر ما رأيت من الملائكة خلقاً مثله عابس الوجه كريه المنظر شديد البطش ظاهر الغضب، فلما نظر رغبت منه شيئاً وسألته فقلت : يا جبرئيل من هذا؟ فإني رعبت منه رعباً شديداً قال : فلا تعجب أن ترعب منه كلنا بمنزلتك في الرعب منه، هذا مالك خازن النار لم يتبسم قط ولم يزل منذ ولاّه الله عزّ وجلّ جهنم يزداد كل يوم غضباً وغيظاً على أعداء الله عزّ وجلّ وأهل معصيته لينتقم منهم،

قلت : ادنني منه. فأدناني منه فسلم عليه جبرئيل فلم يرفع رأسه فقال جبرئيل : يا مالك هذا محمّد رسول العرب فنظر اليّ وحياني وبشرني بالخير. فقلت : مُذّ كم أنت واقف على جهنم؟ فقال : مذ خلقت حتّى الآن وكذلك إلى أن تقوم الساعة فقلت : يا جبرئيل مرة ليرني طرفاً من النار فأمره ففعل فخرج منه لهب ساطع أسود معه دخان مكدر مظلم إمتلأ منه الآفاق فرايت هولا عظيماً وأمراً فظيعاً أعجز عن صفته لكم فغشيّ عليّ وكاد يذهب نَفسي، فضمّني جبرئيل وأمر أن يرد النار فردّها [1].

---

(١) الكشف والبيان ٤٥٨/٧.

فجاءت هذه الآية لبيان الخصومة الشديدة بين أهل النار، وبما يفيد القطع واليقين من حدوثه، وتلك آية بأن يطلع الناس عليها، أما المؤمنون فانهم يزداوون إيماناً وحذراً من الركون للظالمين، وأما الكفار فان الآية تدعوهم إلى التبرأ من الكفر ومفاهيم وارباب الضلالة في الدنيا، وهذا التبرأ نجاة لهم في الدنيا والآخرة، أما التبرأ وهم في الدنيا فليس له من أثر إلا الحسرة والندامة .

وتحث الآية على المبادرة إلى التوبة التي تمحو السيئات في صحيفة الأعمال، وتجعل الإنسان في حال من السكينة والأمن في الدنيا وهو مقدمة للأمن يوم الفزع الأكبر، قال تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[1].

والآية سيف يومي متجدد في الحرب على الظلم والتعاون فيه وتدعو الآية الناس للسعي للأمن في الآخرة والنجاة من الخصومة والعدوان قال تعالى ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[2].

مفهوم الآية

في الآية استحضار لعالم النشور والحساب وبيان توضيحي لحال الكافرين يومئذ وبالإضافة الى انه حقيقة واقعة وليس مجازاً او تخويفاً وانذاراً لعقوبة متوقعة الغاية منه الردع والزجر فانها مدرسة تأديبية للمسلمين ولغيرهم لما تسببه من النفرة من الكفر والطواغيت، والحذر والحيطة من الإقتراب منهم او الركون اليهم ستكون البراءة الصلة الوحيدة بين الكفار كل واحد منهم يتبرأ من الآخر ومن افعاله ويسعى للتخلي عن وزرها ليلغي

---

(١) سورة طه ٢٨.

(٢) سورة الزخرف ٦٧.

بجميع اعبائها على صاحبها المباشر لها وان كانت في الحقيقة جناية مشتركة يتحمل الآمر والمسبب شطراً من اعبائها واوزارها.

ومن زخرف الدنيا وبهجتها انها دار الأماني والآمال وقد يرجو فيها الإنسان الممتنع والمحال، وأماني النفس ورغائبها تتجدد عند الإنسان في الآخرة الا انها تكون حسرة على الكافر لعدم تحقق أي واحدة منها وان الملك يومئذ لله عز وجل وهم حجبوا عن انفسهم الإستماع الى امانيهم وتحقيق رغائبهم، فيتمنون مثلاً العودة الى الدنيا ليثبتوا تخليهم عن اسيادهم في الغي والضلالة ولكن العودة الى الدنيا من الممتنع والإختبار والإختيار فيها لا يتكرر مرة أخرى .

ومن الفوارق بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ان المؤمنين لا يتمنون العودة الى الدنيا لرضاهم بما قسم الله لهم وبقائهم في نعيم الجنة الخالد ويفتخرون باعمالهم في الدنيا التي كانت سبباً لنزول الرحمة عليهم وشفيعاً لهم في الآخرة.

وخاتمة الآية تدل على ان تبرأ الكفار بعضهم من بعض لا يغني عنهم شيئاً ولا ينفعهم يوم القيامة وفي هذا الوعيد تخويف لأعداء الإسلام ودعوة لهم للرجوع الى حكم العقل وادراكه القبح الذاتي في الركون للظالمين ومحاربة المسلمين، وهي انذار للناس جميعاً ودعوة لهم للإسلام والنجاة من الحسرة والخلود في النار يوم القيامة.

الآية لطف

لقد جعل القرآن ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ومن وجوه البيان الإخبار التفصيلي المتعدد عن أخبار

عالم الحساب والجزاء وحقيقة إنعدام التدارك يومئذ، فقد حصر حق الله عز وجل التوبة بعالم الدنيا وهو عالم واسع إذ يستوعب كل أيام عمر

الإنسان ولم يجعل برزخاً أو حاجزاً بين الإنسان والتوبة . ورغب فيها، وأنذر من التخلف عن المبادرة إليها والصدود عن الوظائف التي خلق الإنسان من أجلها.

وجاءت آية البحث دعوة للناس للعبادة وإصلاح لهم للتقوى بالتخلي عن الظلم واتباع الظالمين . وجعل الإنسان الغير يتبعه في ظلمه وتعديه وفجوره.

لقد ذكرت الآية تخاصم أهل النار وتبرأ بعضهم من بعض وهل يحدث هذا التخاصم مرة واحدة أو مرات متعددة الجواب هو الثاني خاصة وأنهم خالدون في النار بسبب هذه التبعية البغيضة في الباطل فيما بينهم .

وجاءت الآية بصيغة الغائب (يريهم الله) (وما هم بخارجين من النار) وفيه نكتة وهي الرحمة بالمسلمين والإخبار عن سلامتهم من هذا المقام الأليم . وأن الآية تتعلق بغيرهم الذين يتبعون بعضهم في الجحود والإصرار على عدم أداء الفرائض والعبادات .

لقد تضمنت الآية اعترافات أهل النار وإنقطاع آمالهم . ومع شدة النار وما يصاحبها من أهوال وغمموم وأحزان وتخاصم فانهم ينادون بحزن وندم ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [1].

فجاءت آية البحث للتدارك في الدنيا وحجب النار عنهم، ومنعهم من دخولها، ويتقوم هذا المنع بالإيمان بالله وكتبه ورسله .

---

(1) سورة المؤمنون ١٠٦.

إفاضات الآية

لقد تبرأ الله ورسوله من المشركين في الدنيا والآخرة بقوله تعالى ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (١).

ولقد وتعدد ورود مادة بريء في القرآن وكلها في المشركين والبراءة منهم، وجاءت آية البحث لزيادة عذابهم بالإخبار عن البراءة فيما بينهم في النار، وهل تتضمن الآية عذابهم في الدنيا الجواب نعم، وتلك آية في إعجاز القرآن وما فيه من مصاديق الرأفة بالناس في الدنيا والآخرة وهو من عمومات قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢).

وفي الآية بعث للنفرة من رفقاء السوء، ونهي عن الخضوع والإستجابة لأهل المنكر، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة(٣).

وتطرد الآية الغفلة عن الناس في عالم الأفعال والإنتساب، وهل نفعت آية البحث الناس في الحياة الدنيا الجواب نعم من وجوه :

الأول : تفقه المسلمين في الدين .

الثاني : دعوة المسلمين لنهي الناس عن العمل في أمرة الكفار الظالمين وما يدعون إليه من الباطل .

---

(١) سورة التوبة ١٠٣.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) تفسير القرطبي ٢٨/١٣.

الثالث : تبدل حال الناس على الأرض، فليس من طواغيت بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثل نمرود الذي كان في أيام نبوة إبراهيم ، وفرعون الذي كان أيام رسالة موسى عليه السلام، وفي التنزيل ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾[1] ، لقد إستقل فرعون قوم موسى ونعتهم لقلة عددهم ولذلتهم وضعفهم، وعدم وجود إ سلحة عندهم فخرج في طلبهم.

وعن ابن عباس : أنه خرج فرعون في الف الف حصان، أي مليون، من سوى الأناث وذكرت أقوال في عدد بني إسرائيل منها عن قتادة: ذكر لنا أن بني إسرائيل الذين قطع بهم موسى البحر كانوا ستمائة ألف مقاتل وعشرين ألفاً فصاعداً[2].

الرابع : إستجابة شطر من الناس لإنذارات القرآن .

الخامس : إنصات الناس لآيات القرآن وما فيها من الإخبار عن علم الغيب .

السادس : صيرورة الناس محترزين من التعاون في الظلم والتعدي خشية تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة، قال تعالى ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[3].

وكما جاءت آية القصاص من منع القتل بقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[4]، فيخش الإنسان قتل غيره خوفاً على نفسه لأنه يقتل

---

(١) سورة الشعراء ٥٣-٥٤.

(٢) الدر المنثور ٣٨٥/٧.

(٣) سورة المائدة ٢.

(٤) سورة البقرة ١٧٩.

يقتل بسببه، وجاءت هذه الآية لمنع الناس من صيرورتهم أتباعاً لأفراد بلغوا منازل الرئاسة في الظلم والجور،

بل وإنها تمنع هؤلاء الأفراد من بلوغهم لهذه المنازل بلحاظ أن مقدمة الظلم ظلم . وان النهي عن الشيء يقتضي النهي عن مقدمته والطريق الموصل إليه ليجعل القرآن الناس في واقية من الظلم والتعدي والجور .

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بحرف العطف، الواو، للإخبار بأن موضوعها متصل بالآية السابقة، وتتجلى وحدة الموضوع في الآيتين ببيان كل منهما لحال الكفار يوم القيامة وتبرأ رؤساء والكفر من أتباعهم، وهذا التبرأ من باب المثال الأظهره إذ فان التبرأ يومئذ يحصل بين المتساوي من الكفار في الرتبة والعمل، فيتبرأ بعض الرؤساء من بعض، ويتبرأ التابع من صاحبه الذي بذات الرتبة وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾[١].

وتضمنت الآية السابقة النص الصريح على تبرأ الطواغيت من أتباعهم، أما هذه الآية فابتدأت بالقول ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [٢]

ولو حرف إمتناع لإمتناع أي أنهم يائسون من عودتهم إلى الدنيا . قال تعالى ﴿فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [٣]، أي لا ينفعهم النداء والإستغاثة ولا سبيل للفرار والإختباء.

قال الأعشى :

تذكرت ليلى لات حين تذكر وقد تبت عنها والمناص بعيد[١]

---

(١) سورة البقرة ١٦٧.

(٢)سورة البقرة ١٦٧.

(٣)سورة ص ٣.

ترى لماذا لم يتبرأ الأتباع من الرؤساء يوم القيامة واكتفوا بتمني العودة إلى الدنيا الجواب إن رؤساء الكفر أخبروا بأنهم كانوا في الدنيا متبرئين من أفعال الأتباع، وأنهم إتبعوهم لمنافعهم ومصالحهم الدنيوية الخاصة، فيطيعون الرؤساء في الظلم لقاء نفع خاص وان كان محدوداً . وكأن الرؤساء قالوا لولا هؤلاء الأتباع لا نستطيع أن نستمر بالظلم والقتل والجور، فهم أيادينا وأننا لم نكن نكرههم على العمل بل جاءوا واتبعونا إبتداء بمحض إرادتهم ثم أن رؤساء الكفر ذكروا نعمة العقل وإحتجوا بها ولزوم توظيفها للتنزه من الظلم وكثير من أفعال الأتباع في الظلم لا يعلم بها الرؤساء من الكفار إنما يكتفون بالأمر إلى الرئيس القريب منهم

وأخبرت الاية إحضار أعمال الكفار أمام أعينهم بلفظ التشبيه (كذلك يريهم الله) وفيه آية إعجازية بتعدد منازل هذه الإرادة وتكرارها وأن أعمال الكفار حاضرة عندهم حال الخصومة بينهم وفي الأحوال الأخرى ومع الحسرة والندامة التي تتغشى الكفار أختتمت الآية بالقطع في خلودهم في النار، وأن التبرأ والتلاوم بينهم لم يخرجهم منها، قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [(٢)].

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : الآية مصداق لقوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [(٣)].

الثانية : بيان الشقاق والخصومة بين أهل النار .

---

(١) الدر المنثور ٣٧٣/٨.

(٢)سورة الزخرف ٤٧ .

(٣) سورة آل عمران ٤٤.

والمشهور والمختار أن الجنة والنار مخلوقتان الآن ، وهل تدل الآية على هذا المعنى الجواب لا، إنما تبين الآية علم الله عز وجل بما سوف يحصل بين الكفار في عالم الحساب يوم القيامة، وفي عالم الجزاء عن ما يدخلون النار .

الثالثة : إعلان أتباع الظالمين عجزهم من التبرأ من كبرائهم وسادتهم يوم القيامة وتحنيهم التبرأ منهم في الدنيا لجعلهم يفقدون منازل الرياسة والسلطان.

الرابعة : إنذار الناس من القوم الظالمين ودعوتهم للهداية والصلاح الإخبار عن حضور الأعمال يوم القيامة، فما فعله الإنسان في دنياه يراه في الآخرة بلحاظ أنه موضوع للحساب ويتوقف عليه الجزاء .

الخامسة : بيان قانون كلي وهو أن الله عز وجل يحضر أعمال الكافرين في الآخرة لتكون ندامة وحسرة عليهم، وفيه دعوة للناس لإجتناب القبيح من الأعمال .

السادسة : تبرأ رؤساء الكفر من أتباعهم وكذا العكس .

السابعة : خلود الكفار في النار فان كانوا متباينين في مراتب الكفر في الدنيا تابعاً ومتبوعاً، فانهم متساوون في تلقي العذاب الأليم في النار، ولا يتعارض هذا التساوي مع التباين في درجات النار .

الثامنة : تدل الآية على أن الله عز وجل يأذن يوم القيامة للكفار بالتخاصم ومحاولة الهروب من المسؤولية فيما بينهم، ولكنها لا تجدي نفعاً لإقامة الحجة والبرهان عليه، وذات التخاصم والتبرأ فيما بينهم من مصاديق هذه الحجة .

التاسعة : بيان التباين والتضاد في حال المؤمنين والكفار في مواطن يوم القيامة فالمؤمنون ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [1] ، والكفار في حال ندامة وحسرة وفزع .

العاشرة : لا يحب الشيطان أحداً من الناس حتى الذي يتمادى في فعل السيئات والمعاصي ويتمثل لأوامر الشيطان .

التفسير

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾

الأولى : الأتباع الذين ظنوا القوة والمنعة عند أسيادهم من قادة الكفر والضلالة فاحبوهم واتبعوهم واطاعوهم فوجئوا في الآخرة بتبرئهم منهم مع انهم اغروهم واطمعوهم واظهروا لهم بعض السطوة في الدنيا كأمارة على سلطانهم.

الثانية : لقد فاتهم انه سلطان محدود وزائل وهو في الاصل وهم وسراب ولم يدركوا حقيقته الا في الآخرة وعند كشف الغطاء عن الأبصار والبصائر، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [2]، لإجتماع المتبوع والتابع على التكذيب بالآيات بالقول أو الفعل أو هما معاً

الثالثة : كان منطوق الآيات الحب والولاء وترتب الأثر عليه، اما هاتان الآيتان فالحكم فيهما بلحاظ التبعية وليس الحب، نعم تلك التبعية فرع الحب ومصداقه الخارجي، والآيتان دليل على اعتبار الحب وموضوعيته مما يستلزم الإلتفات له والى موضوعه وجهته ومصدره وكيفيته ومراتبه وتوجيهها

(١) سورة البقرة ٢٧٤.

(٢) سورة النحل ٣٦.

توجيهاً عقائدياً وعليه شواهد ومصاديق من القرآن.

الرابعة : الفصل بين التبعية الاختيارية وبين التبعية التي تأتي عن اكراه واضطرار وعدم رضا، لأنها لو كانت عن اكراه لكان التبرأ من البداية وفي حال الحياة الدنيا ولو على نحو التوبة والندم.

الخامسة : قد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "اللهم اني اتبرأ اليك مما فعل فلان"، فلما صدر تقصير من احد قواد السرايا تبرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من فعله ذاك على نحو الخصوص مع رضاه عنه في جهاده لتنمية ملكة الورع عند قواد السرايا والغزاة عامة.

قوله تعالى ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾

الأولى : أي لو تتاح لنا فرصة ومناسبة للإختيار واتخاذ قرار متابعتهم او عدمه.

الثانية : اننا سنختار بمحض ارادتنا التبرء من هؤلاء المتبوعين رواد الكفر والضلالة.

الثالثة : لقد ارادوا العودة الى الدنيا مرة اخرى كي يتبرأوا من اسيادهم لأن في التبرء منهم صلاحاً للذات وللمجتمع وتنزيهاً للأرض.

الرابعة : الآية حجة في فلسفة التكاليف والفرائض العبادية، فهي مع ما فيها من المشقة يتمنى الناس يوم القيامة العودة للحياة الدنيا لاتيانها والانقطاع اليها بعيداً عن مشاغل الدنيا واللهث والإعياء في طلبها.

وهذا التمني لا ينحصر بالكفار والمجرمين الذين يرون سوء عاقبتهم بل يشمل المؤمنين كما في النصوص التي وردت في الشهيد وتمنيه العودة للدنيا كي يقتل في سبيل الله لما يراه من عظيم الثواب.

وعندنا قاعدة كلية وهي ان كل ما يتمناه المؤمن يناله، فلماذا لا يعطى

الشهيد هذه الأمنية الجواب على وجوه:

الأول : ان المقصود به اماني ورغبات الجنة وافراد نعيمها وهذا التمني يخرج بالتخصص.

الثاني : تولد هذا التمني لأجل ان يكون مقدمة وسبيلاً لنيل المنازل الرفيعة في الآخرة وقد نالها بالشهادة فهو كتحصيل لما هو حاصل.

الثالث : من احكام الآخرة انها دار حساب من غير عمل وهذا الحكم مطلق ويشمل الناس جميعاً، الا انه رحمة للمؤمنين بمضاعفة ثوابهم في دار الآخرة، ووبال على الكافرين بعدم الإذن لهم بالتدارك.

الرابع : ان عدم الإذن للشهيد بالعودة رحمة به وتخفيف، وعدم الإذن للكافر سخط وانتقام.

الخامسة : ان الأتباع اطلعوا في الآخرة وعند مواطن الحساب بان تلك التبعية لم تضرهم وحدهم بل ادت الى استحكام الضرر والأذى والبلاء والفتن على الغير والنوع وعلى المتبوعين انفسهم ايضاً.

السادسة : لولا الأتباع لما استطاعت رؤوس الكفر والضلالة ان تهاجم الإسلام وتعتدي على منازل الإيمان.

السابعة : كأن موضوع الفتن في الأرض يدور مدار هذا الإتباع، لذا جاء التبرء والتخلي والتباعد المقرون بالكراهية والندم مطلقاً وشاملاً وسريعاً.

الثامنة : استقراء قاعدة كلامية كلية من الآية وهي بطلان أماني الكافرين يوم القيامة.

التاسعة : الآية حجة على الأتباع أنفسهم لأنها إقرار باهميتهم في ترسيخ افكار الضلالة والجحود، وأنهم قاموا باعانتهم على ظلمهم عن اختيار.

العاشرة : التبرأ الذي تمنوه بلحاظ الحال والموضوع على اقسام:

الأول: انه تبرأ وتخلي عن نصرتهم واعانتهم.

الثاني: تنزه وتخلص منهم وعدم اعانتهم في كشف العذاب الذي يتعرضون له في حال عدم وجود الناصر.

الثالث: المعنى الأعم وهو الأصح أي ان الأتباع ارادوا التبرأ لينجوا بانفسهم ويتجنبوا اعانة الكافر في ظلمه وتعديه وتثبيته لوجوه الشرك، كما تمنوا التخلي عن المتبوعين واقطاب الشرك ساعة الشدة والضيق والحاجة الى الأنصار والأعوان.

الحادية عشرة : فلسفة التبرأ طريق الى اقامة سنن الشريعة في الأرض، تلك حقيقة يدركها اهل الآخرة، فاصحاب الباطل يتفككون وينفصل كل منهم عن الآخر فينعدم كيان الكفر والشرك وتبقى راية الحق والعدل والإنصاف من غير منازع، وهذه الآية استحضار قرآني لهذه الحقيقة، والكبرى الكلية عسى ان ينتفع منها الناس قبل فوات الأوان.

بحث بلاغي

من اقسام الإنشاء (التمني) وهو ميل النفس لحصول شيء "التمني" ولفظ التمني الموضوع له (ليت) نحو ﴿قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ الا انه قد يرد بالفاظ اخرى كوجه من وجوه الإعجاز القرآني ليستقرأ معنى التمني من سياق الآية والقرائن اللفظية والحالية، مثل (هل) و(لو).

وبين التمني والترجي عموم وخصوص مطلق فكل ترجي هو تمني وليس العكس لأن الترجي يتعلق بالممكن ولفظه (لعل) مما اجتمعت اسبابه او كانت متدلية وقريبة، اما التمني فاعم منه فيشمل الممتنع والمتعذر.

واختلف في التمني هل هو من قسم الخبر وان معناه النفي ام انه انشاء لا يدخله التصديق والتكذيب فلا يصدق قائله، والظاهر انه انشاء وليس بخبر

الا ان يكون وقوعه راجحاً فيدخل ضمن افراد الظن الذي يمكن جعله الطرف الأدنى من أطراف التصديق.

وجاءت (لو) في الآية للتمني، وتأتي لو على ستة وجوه:

الأول : التمني كما في آية البحث.

الثاني : التقليل.

الثالث : العرض: مثل: لو تحضر الموسم فتنال الثواب العظيم، والفاء بعده للسببية إذ لا جواب له.

الرابع : مرادفة (إن) الشرطية.

الخامس : حرف إمتناع لإمتناع أي إمتناع شرطها لإمتناع جوابها كما في قوله تعالى﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾[1].

السادس : حرف مصدري، وترادف أن ، نحو قوله تعالى ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[2].

والفرق بين الأدوات يبحث في علم النحو الا ان الفرق بين (لو، اذا، ان) يبحث في علم البلاغة لإعتبارها فيه وللتباين في استعمالها، فتستعمل ان اصلاً في الأمور القليلة الحدوث، وتدل على عدم جزم المتكلم بحصول الشرط في المستقبل لذا فان الفعل الذي يأتي بعدها يكون دائماً بصيغة المضارع لإحتمال عدم وقوعه.

فلا يقال: ان رأيت الهلال اصوم، بل يقول اذا رأيت الهلال اصوم.

وتأتي (إذا) فتأتي في الأصل بكل ما يقطع المتكلم بوقوعه في المستقبل

---

(1) سورة الأعراف ١٧٦.

(2) سورة ن ٩.

لذا يأتي بعدها الفعل الماضي لدلالته على الحدوث والوقوع لا الإنشاء واحتمال الوقوع، اما (لو) فهي حرف امتناع لإمتناع، كما في قولك لو درست لنجحت فبغياب الهداية ينتفي النجاح.

ففي قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾[1] فلأن الرؤية امر حتمي الوقوع في الوجود الخارجي والتعامل اليومي جاءت اذا ومعها الفعل الماضي رأيت ولأن كلامهم ليس دائماً وقد لا يسمعه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

جاءت ان مع الفعل المضارع تسمع، ويمكن اعتباره دليلاً على قلة ادعائهم واحتجاجهم لما اسقط في ايديهم وبعد اقامة الحجة ببراهين النبوة.

وهذا الفرق بين (ان) و (اذا) ليس دائماً فقد يكونا احياناً مما يقال فيه اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا فقد تأتي (ان) في الأمر المقطوع ثبوته ومقام الجزم كما في بعض حالات الإعتذار والتوبيخ واللوم والتحذير كما في قوله تعالى ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[2].

وقد تستعمل إذا في الماضي حقيقة وارادة الإستمرار كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾[3] فالماضي بحسب اسباب النزول والإستمرار بحسب الموضوع وافراده الخارجية المتجددة في كل زمان.

كما يجوز ان تستعمل لو في المضارع للدلالة على استمرار الحدوث وتجدده، ولتنزيل حدث يقع في المستقبل بمنزلة الماضي للإشارة الى حتمية وقوعه والقطع بحدوثه وعدم تخلفه وان كان وقوعه سيتأخر زماناً كما في

---

(١) سورة المنافقون ٤.

(٢) سورة الحجرات ٦.

(٣) سورة البقرة ٢٠٦.

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾[1].

بحث اخلاقي

ينقسم الناس في الإعتبار والانتفاع من الإبتلاء واستخلاص الدروس والعبر منه من التجربة الى ستة اقسام:

الأول: الفطنة واليقظة ابتداء من غير حاجة الى الإعتبار بالذات او بالغير.

الثاني: الاستفادة من العبر والدروس واجتناب الخطأ، فلا تصل النوبة الى ابتلائه.

الثالث: الإنتفاع مما يتعرض له ويمر به ليكون له درساً وموعظة.

الرابع: الإتعاظ بما يمر به ومما يبتلى به غيره على نحو متحد ومستقل وعلى نحو الموجبة الكلية فلا يفرط ببعضها.

الخامس: عدم الإعتبار والإتعاظ مما يتعرض له من البلاء وما يصيب الآخرين مما يطلع عليه من الشواهد التأريخية او يراه بالوجدان الا بعد مداهمة الحدثان أي الموت.

السادس: إقتباس الدروس مما يبتلى به هو او غيره على نحو السالبة الجزئية، والإتعاظ من تجربته وما يمر به وما يصيب غيره من الخير والشر.

ويمكن ان نشطر كل من هذه الأقسام الستة الى قسمين:

أولاً:الإنتفاع على نحو الموجبة الكلية.

ثانياً: الإنتفاع على نحو الموجبة الجزئية وهي ايضاً على مراتب عديدة، أما الكفار من القسم الخامس الذي لم ينتفع مما اصابه او اصاب غيره.

(1) سورة السجدة ١٢.

ومن اعجاز القرآن وعظيم نفعه انه يتضمن الخطاب المناسب لهذه المراتب المتعددة مجتمعة ومتفرقة عبر قصص الأنبياء وآيات الإنذار والوعيد وبشارات الجنة وبيان معالم الطرق التي توصل اليها، كما أن الله سبحانه يصرف البلاء عن الإنسان بفضل منه ويتعاهده بالحيلولة بينه وبين الوقوع في المعصية، ويقيل العثرة سواء بالنسبة لوجوه وصيغ الإتعاظ خاصة ام على نحو الإطلاق والفضل ابتداء والذي يتغشى الناس جميعاً، ويقبل التوبة.

وكما ان الدنيا مزرعة الآخرة فانها ايضاً مدرسة الاعداد ليوم القيامة أي فيها المناهج والدروس والوظائف التي يحتاجها الإنسان في آخرته واقتران الدراسات فيها بالعمل والتطبيق الفعلي، وليس من تخرج من هذه المدرسة او انتهاء لفصولها الا عند الموت باستثناء من سقط عنه التكليف كالمجنون فانه غير مؤهل لدخولها، وكأن دخولها يحتاج الى شرائط تشريفية كنعمة العقل ولزوم توظيفه لإجتياز امتحاناتها والتهيء ليوم الحساب واختيار الإعمال.

ولقد جاءت الآية مطلقة ولم تتعرض لموضوع التوبة فالأتباع الذين تابوا بحسب متعلق الآية على وجوه محتملة :

<u>الأولى :</u> شمولهم بالعذاب وتمني البراءة من الأنداد ورؤساء الكفر.

<u>الثانية :</u> خروجهم من موضوع الآية بالتخصيص لما للتوبة من أثر في الجزاء.

<u>الثالثة :</u> فيهم تفصيل بلحاظ أوان التوبة، فالذي تاب بعد التلبس بالظلم والاتباع والإنقياد التام وتحقق اتخاذ الند والشريك يكون مشمولاً بموضوع الآية ولو باعلان التبرأ من غير التعرض للعذاب والعقاب الأليم، اما الذي تاب اثناء التلبس توبة نصوحاً فهو خارج عن موضوع الآية وانذاراتها.

الأقوى هو الثاني وان التوبة ماحية للذنوب لأن فضل الله تعالى ووعده الكريم اوسع من ان يقيد او يتضيق، فالذي ادركته الرحمة باعلان التوبة

تزول عنه صفة ونعت الظلم ولا يصدق عليه بعدئذ انه ظالم، وفي بعض النصوص ان من التائبين من تمحى ذنوبه ولا يراها حتى الملائكة فيأتي بصفحة بيضاء خالية من السيئات والمعاصي.

قوله تعالى ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾

الأولى : أي من قادة الكفر والضلالة.

الثانية : ليحل التبرئ والنفرة محل الإتباع والتقليد والطاعة والإمتثال لهم في ظلمهم وصدهم عن الحق والصراط المستقيم.

الثالثة : الآية ذكرت اعلانهم التبرأ من الظالمين وليس فيها اعلان عن اختيار الإيمان والالتزام باحكام التوحيد، والظاهر ان مفهومه يدل على اجتناب الشرك والظلم، ويمكن ان تكون برزخاً بين الإيمان والكفر، فهم لم يعلنوا استعدادهم للإيمان وللعمل الصالح واكتفوا بالتبرأ، قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾[1].

الرابعة : لم يحصل التبرأ من الأتباع لأنهم لم يؤاخذوا الا بذنوبهم وافعالهم، بينما يؤاخذ المتبوعون بذنوبهم وذنوب اتباعهم، مع ان وجوه العداوة والخصومة جارية بينهم كما في قوله تعالى في خطاب وذم للكفار﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ﴾[2].

الخامسة : الظاهر ان التبرأ في الآخرة لا يترك سداً وان لم يكن ينفعهم ويكون على نحو الحسرة والندامة اذ ان المدار على الحجة، ومن منافعه انه عبرة للمؤمنين واخبار سماوي كريم وفرصة للكافرين للتدارك.

---

(١) سورة المؤمنون ٩٩.

(٢) سورة العنكبوت ٢٥.

قوله تعالى ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾

أي محاكاة لتبرأ قادة الكفر والضلالة من الأتباع في الآخرة وعند الحساب كما ورد في الآية السابقة، ترى لماذا هذه المقابلة والمفروض انهم يعلنون تبرأهم منهم ابتداءً، والتشبيه يقع في اصل التبرأ وكيفيته وموضوعه وما يتفرع منه من التباعد والتجافي والإنطباق، لقد تمنوا التبرأ ذا الموضوعية والنفع وما فيه نجاتهم.

قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾

تعددت الرؤية في الآية الى مفعولين وهي من الرؤية العلمية، فالظاهر ان الأعمال تتجسد بهيئات مناسبة وفيه نصوص عديدة.

الأولى : الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود للكفار والمشركين مطلقاً الأتباع والمتبوعين.

الثانية : الظاهر ان الأعمال تتجسد يوم القيامة امام العباد كل يرى عمله ولكن هذا الإطلاع لا يمنع من التفكيك والتباين فيما يعرض من الأعمال كما سيأتي بيانه في التسلسل (١٣) ادناه، فبما ان الرؤية هنا بمعنى العلم، فيكون الكافر حينئذ في شقاء وحسرة عندما يرى كل فعل فعله في غير مرضاة الله.

الثالثة : عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في الآية قال: "هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بخلاً ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله او في معصية الله، فان عمل به في معصية الله قواه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله"، وهو من التطبيق والجري والإطلاق لبيان ان الآية لا تنحصر بالمشركين وموضوع التبعية والأتباع بينهم وهي تشمل بالإضافة الى اعمال الجوارح المال والاسباب، ولا تتعلق بايام الانسان في الحياة الدنيا فقط وانما

تتصل بما بعد انتقاله الى الاخرة فيما يكون هو سبباً له في الدنيا.

الرابعة : الآية في مفهومها تدل على سعادة المؤمنين يوم القيامة حيث يرون اعمالهم وتعظيمهم لشعائر الله تعرض عليهم، والملائكة تبشرهم بالجنة.

الخامسة : يمكن القول بان الضمير في ﴿ أَعْمَالَهُمْ ﴾ يرجع للناس جميعاً، والضمير في (عليهم) يرجع للمشركين، أي ان اعمال المؤمنين واتباعهم للأنبياء واتيان ما امر الله به ونبذهم الشرك تكون هي الأخرى حسرة على المشركين.

السادسة : الحسرة هنا دلالة على امكان التدارك في الحياة الدنيا وانهم كانوا قادرين على ترك تلك الأعمال التي تتصف بالكفر والجحود والشرك.

السابعة : الحسرة تدل على امكان فعل شيء آخر بدله وانهم لم يعتذروا يوم القيامة ولم يتشبثوا بعذر لهذه التبعية.

الثامنة : اخبرت الآية عن النتيجة من غير تعرض للتفاصيل الشخصية وانهم سلموا واقروا بالذنب والإثم وظهرت الحسرة تلقائياً على الكفار.

التاسعة : أمر العذر وتمني التبرأ يبدو واهياً ضعيفاً ليس له اعتبار، فالآية تنفي تخفيف العذاب عنهم.

العاشرة : تدل الآية على وجود الإحساس عند اهل النار وقدرتهم على استحضار ما اقترفوه في الدنيا وتفاصيله.

الحادية عشرة : الحسرة وشدة الندامة من أفراد العذاب الأخروي، ووردت بلغة الجمع مما يدل على تكرارها ، واستحضارهم بل وتذكيرهم بالأعمال وصورها بين الحين والآخر كما في حال سؤالهم التخفيف من عذابهم، او سؤالهم عن اسباب استدامته وما يتعقبه من جواب الملائكة

والقائمين على شؤون النار ، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾[1].

الثانية عشرة : ما يراه الكافر يوم القيامة من الأعمال التي توجب الندامة لا ينحصر بافعال الجوارح انما يشمل الإعتقادات الباطلة والآراء الفاسدة اذ تتجلى بصور قبيحة كريهة تخلف في نفس فاعلها الحزن والحسرة والألم وفيه وردت بعض النصوص.

الثالثة عشرة : بالإستقراء من منهجية المدرسة الجديدة التي نؤسسها في ضمائر القرآن واحتمال عدم الإتحاد في الضمير وان جاء متشابهاً في الآية نفسها، والضمير الهاء في (اعمالهم) يحتمل في عائديته وجوهاً :

الأول : يعود للكافرين مطلقاً.

الثاني : الإتباع منهم.

الثالث : المتبوعون أي يرى الإتباع أعمال المتبوعين وجحودهم لتكون حسرة على الأتباع.

الرابع : يعود الى المؤمنين أي يري الكافرين اعمال المؤمنين.

الخامس : العودة المطلقة الى المؤمنين والكافرين بان يطلع الله عز وجل الكفار على اعمالهم فتكون حسرة عليهم، وعلى الصالحات التي جاء بها المسلمون فتكون ايضاً حسرة على الكافرين.

فمع التبرأ المتبادل بين الكفار، تحضر أمامهم أعمالهم والمعاصي التي إرتكبوها على نحو الإشتراك والإفتراق فيزداد اللوم بينهم، وتظهر الندامة والأسى عليهم فبعد التبرأ تأتي الحسرة والندامة التي تتغشاهم جميعاً وسط العذاب الأليم في النار.

ومن مصاديق الحسرة في المقام قيام الحجة على الكفار تابعاً ومتبوعاً وهو الذي يتجلى برؤيتهم لأعمالهم، فبعد شهادة جوارحهم عليهم في مواطن

---

[1] سورة غافر ٤٩.

الحساب كما قال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

يأتي التبرأ واللوم وحضور الأعمال في دار الجزاء، وهل رؤية الأعمال في الواقع الذهني بلحاظ أنها صارت من عالم التصور أم أنها واقع محسوس وترى بالعين .

الجواب هو الثاني لوجوه :

الأول : أصالة الحقيقة .

الثاني : تمام الحجة.

الثالث : تحقق مصداق الرؤية المشتركة بالتشبيه الواقعي ، قال تعالى ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2].ناقص

قوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

الأول : نفي خروج الكفار من النار ، وجاء في الآية مطلقاً أي سواء كان تبرءهم عند رؤية العذاب او عند دخول النار واتحاده او تكراره وتعدده، فمدار امكان التوبة او عدمها هو الحياة الدنيا.

الثاني : إلهي بخلود الكفار والمشركين في النار.

الثالث : ان التابع والمتبوع بعرض واحد في العذاب سواء اتحد مقداره واتفقت منازله او تباينت.

الرابع : التبرء في الآخرة لا ينجي بعضهم من النار، وكذا التباين في عظم الذنب بين التابع والمتبوع.

الخامس : قد يشكل بعضهم بان المتبوع اعظم ذنباً وانه يبوء باثمه واثم من اتبعه لأنه كالمسبب في معصية وذنب التابع، ولكن لا موضوعية له في

---

[1] سورة يس ٦٥.

[2] سورة الكهف ٤٩.

اصل استحقاق الخلود في النار الذي يدور مدار الكفر والجحود والظلم.

السادس: جاءت هذه الآية للإخبار عن الإطلاق في حكم خلودهم الى الأبد في النار، بالإضافة الى ما تقدم من موضوعية واعتبار حب التابع للمتبوع في افعاله، ولأن الإتباع تم على نحو الإختيار والغرور.

السابع: عدم خروجهم من النار هل هو مقيد ومتعلق بموضوع التبرأ واحتمال خروجهم منها لسبب آخر، الجواب: انه ينفي الخروج مطلقاً، وعلى قاعدة تفسير القرآن بالقرآن فان آيات قرآنية عديدة تثبت خلودهم في النار.

وهل يدل قوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ على إنحصار التلاوم والخصومة بين التابع والمتبوع من الكفار بزمان دخولهم النار، الجواب لا . إذ يشمل مواطن يوم القيامة وحضور الأعمال وحضور الصحائف بدليل قوله تعالى في الآية السابقة ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [١].

أي أن التبرأ يحصل يوم الحشر والحساب قال تعالى ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [٢]، واذا حصل التبرأ بين التابع والمتبوع من الكفار في الدنيا هل يتكرر في الآخرة الجواب لا، إذ كان التبرأ في الدنيا بقصد التوبة ولإقلاع عن التعاضد في البغي والظلم والتكذيب بالآيات .

ولو أراد الكافر أي يعرض بوجهه عن عمله القبيح في الدنيا فهل يستطيع، الجواب لا، لأن الآية تفيد القطع برؤيتهم لأعمالهم بقوله ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وهذه الإرادة من عمومات قوله تعالى ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [٣].

---

(١) سورة البقرة ١٦٦.

(٢) سورة الصافات ٢٤.

(٣) سورة غافر ١٦.

بحث كلامي

التوبة من خصائص الدنيا المحصورة بأيامها ونواميس الأحكام فيها، والتوبة فضل إلهي متدلي من السماء يحمل صفة الإطلاق فهو باب مفتوح لجميع الناس ولكن المسلم هو الذي ينتفع منها، اما الكافر فانه حجب عن نفسه الإنتفاع من هذا الفضل الإلهي العظيم، ولكن هل في الآخرة توبة؟ الجواب: لا، وعليه إجماع المسلمين.

وقد تقدم في الجزء الأول في تفسير البسملة ان (الرحمن) اسم خاص لصفة عامة، و(الرحيم) اسم عام لصفة خاصة، وان المسلم والكافر ينتفعان من صفة الرحمن في الدنيا، والمؤمن وحده ينتفع من صفة الرحيم في الدنيا والآخرة، والتوبة من اهم مصاديق الرحمة في الدنيا فهل ينتفع المؤمن في الآخرة منها في الآخرة، الجواب ان مصاديق الرحمة متعددة ولا يمكن احصاؤها خصوصاً فيما يخص الآخرة فان كانت التوبة في الدنيا تحتاج الى عمل يتجسد بقصد وارادة وامتناع عن المعصية والذنوب، فان صيغ الرحمة تأتي ابتداء من فضل الله تعالى وبدون فعل او سبب من العبد.

ومنها لغة الإنذار والوعيد في هذه الآية، وبيان حقيقة وهي أن عذاب النار ليس متحداً في موضوعه وصيغته فيشمل إلى جانب أليم حرها إستدامة الخصومة والتبرأ بين أهل النار، وحضور أعمال كل فرد وفريق أمامهم ووجوه الظلم والتعدي التي قاموا فيها في الدنيا، فبينما تمحى ذنوب المؤمنين ويعفو عنهم الله عز وجل فان ذنوب الكفار حاضرة بهيئتها وصورتها معهم في النار.

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ الآية ١٦٨

القراءة

قرأ نافع وابو عمرو وحمزة وابو بكر خطوات بسكون الطاء في جميع الآيات التي وردت فيها وعددها خمسة، جاءت كلها مضافة ومنسوبة الى الشيطان، وعن ابن السماك خطوات بفتح الخاء والطاء[١]، وقرأ الكسائي وابن كثير وعاصم في رواية حف(خطوات) بضم الطاء[٢].

الإعراب واللغة

يا ايها الناس: يا: حرف نداء يصلح للقريب والمتوسط والبعيد على خلاف فيه، وهو المستعمل في الإستغاثة والتعجب.

أي: منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب.

والهاء: للتنبيه، الناس: بدل من أي.

كلوا: فعل أمر مبني على حذف النون، الواو: فاعل، مما: جار ومجرور، متعلقان بكلوا.

في الأرض: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال.

حلالاً: حال من (ما) ويجوز ان يكون مفعولاً به.

---

(١) مجمع البيان ٤٢٢/١.

(٢) السمرقندي، بحر العلوم١/١٤٣.

طيباً: صفة، ولا: الواو عاطفة واستئنافية، لا: ناهية، تتبعوا: فعل مضارع مجزوم بلا، الواو: فاعل، خطوات: مفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم وهو مضاف، الشيطان: مضاف اليه.

انه: ان وأسمها.

لكم: جار ومجرور، متعلقان بمحذوف حال، عدو: خبر إن مرفوع، مبين: صفة لعدو مرفوعة بالضمة.

الحلال: المكسب الخالي من شائبة الحرام، وفي حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "من اكل من الحلال القوت صفا قلبه ورق ودمعت عينه ولم يكن لدعوته حجاب".

وخطوات: جمع خطوة – بالضم - وهي بعد ما بين القدمين في حال المشي، كما تجمع على خُطى.

خطوات الشيطان فيها اقوال:

الأول : خطوات الشيطان أعماله، وهو قول ابن عباس[1].

الثاني : خطراته التي تخطر في البال.

الثالث : إنها خطاياه، وهو قول مجاهد[2].

الرابع : الائتمام به.

الخامس : إنها طاعته، وهو قول السدي.

السادس : طرقه وسبله بلحاظ ارادة المكان والأثر من الخطوات، وليس خطوة الشيطان وفعله.

السابع : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال:ما خالف القرآن فهو

---

(١) النكت والعيون ١/١١٧.

(٢) الدر المنثور ١/٣٢٤.

من خطوات الشيطان[١].

وهذه الاقوال متقاربة المعنى والدلالة وتدل على الأسباب الوضعية الطارئة على الإنسان فكراً وسلوكاً باغواء الشيطان.

وتتجلى لغة الإطلاق في النهي الوارد في الآية للسلامة من نزع الشيطان في أمور الدين والدنيا ، وعن ابن عباس: قال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أراد أحدكم أن يأتي أهله فليقل : بسم الله اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا[٢].

العوان: النَّصَفُ التي بين الفارِضِ وهي المُسِنَّة وبين البكر وهي الصغيرة)[٣].

في سياق الآيات

جاء إنذار وتنبيه للناس جميعاً بعد الآيات التي اظهرت تلبس بعض الناس بالتبعية التي تقود الى النار، للتدارك والعمل في الدنيا بما يجنبهم الحسرة في الآخرة، على شعبتين :

الأولى : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة السابقة، وفيها وجوه :

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً... ﴾[٤]، وفيها مسائل :

الأولى : جاءت آية البحث خطاباً للناس جميعاً وتعلقت آية السياق بأهل النار من الكفار.

---

(١) الدر المنثور ٣٢٤/١.

(٢) الكشف والبيان ٤٦٢/١.

(٣)لسان العرب ٢٩٨/١٣.

(٤)سورة البقرة ١٦٧.

الثانية : جعل الله الحياة الدنيا دار إمتحان وإختبار، ومنه أكل الطيبات، وتضمنت آية السياق ما يدل على جحود الكفار بالنعم .

الثالثة : تنهى آية البحث عن إتباع نزغ الشيطان إذ أن هذا الإتباع يقود إلى النار وحصول حال التبرأ بين أهلها .

الرابعة : الحلال الطيب في الدنيا مبذول للناس جميعاً، وهو الذي تدل عليه آية البحث، أما في الآخرة فان أهل الجنة وحدهم يختصون بالنعم وبما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

الخامسة : اختتمت آية السياق بالإخبار عن عداوة الشيطان للإنسان، وهذه العداوة هي التي تقود الذين فتنوا به إلى النار .

السادسة : يفيد الجمع بين الآيتين بعث الناس للحيطة والحذر من إغواء إبليس وغاياته في جعل الذي يتبعه لا يخرج من النار .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ (1)

وفيها مسائل :

الأولى : بين الآيتين من جهة الموضوع نسبة العموم والخصوص المطلق، فآية البحث أعم وجاء الخطاب فيها للناس جميعاً، أما آية السياق فتضمن التبرأ بين أهل النار .

الثانية : العمل بمضامين آية البحث واقية من صيرورة الإنسان في النار ومنشغلاً بالتبرأ من أصحابه فيها .

---

(1)سورة البقرة ١٦٦

الثالثة : الذي يعتصم من خطوات الشيطان وإتباعها لا يرى أعماله يوم القيامة حسرة عليه، بل يكون عمله من الصالحات وفيه الآجر والثواب ، قال تعالى ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١)

الرابعة : تتعلق مضامين آية السياق بالتخويف والوعيد من الظلم والطغيان وسوء عاقبتهما، بينما تدعو آية البحث إلى التدبر بنعم الله عز وجل على الناس وما سخر لهم من الطيبات كي يشكروه ويعبدوه، ويتنزهوا عن الظلم، قال تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٢)

الخامسة : تتضمن آية البحث في منطوقها النهي عن إتباع خطوات الشيطان، وفي مفهومها الزجر عن إتباع الظالمين لأن الله عز وجل قدّر الأرزاق وجعلها قريبة من الناس ولا يستلزم نيلها الركون للظالمين، وهو من أسرار تبرأ رؤساء الشرك يوم القيامة من أتباعهم أي أنهم يقولون إن رزقهم من الله عز وجل وانه سخر للناس الحلال الطيب فلماذا إتبعونا في الظلم وهم في غنى عن هذا الإتباع ، ولم نكرههم عليه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (٣).

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ (٤)

وفيها مسائل :

---

(١)سورة الإسراء ٩.

(٢)سورة إبراهيم ٧.

(٣) سورة البقرة ٢٥٦.

(٤)سورة البقرة ١٦٥.

الأولى : جاءت آية البحث خطاباً للمسلمين، أما آية السياق فتتضمن التفصيل وذم المشركين، والثناء على المؤمنين .

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين إقامة الحجة على الناس بلزوم الإخلاص في عبادة الله وهو ﴿الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1].

الثالثة : أخبرت آية البحث بأن الشيطان شديد العداوة للناس ، وتضمنت آية السياق البلاغ المبين بأن الله شديد العذاب لمن يتبع خطوات الشيطان .

الرابعة : لقد نهت آية البحث عن إتباع خطوات الشيطان، وتضمنت آية السياق ذكر فريقين من الناس .

الأول : المؤمنون الذين إمتثلوا لأمر الله .

الثاني : المشركون الذين سقطوا في حبائل الشيطان .

وقال تعالى في ذم الشيطان وتخليه عن أتباعه ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتْ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ [2]

الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، وفيها وجوه :

الأول : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ [3]

وفيها مسائل :

الأولى : إتحاد لغة الخطاب في الآيتين، وتوجه كل واحدة منهما إلى الناس جميعاً .

---

(1) سورة الذاريات ٥٨.

(2)سورة الأنفال ٤٨

(3)سورة . البقرة ١٦٩

الثانية : بيان رحمة الله في تهيئة وتقريب الرزق الكريم من الناس جميعاً .

الثالثة : بيان فلسفة التأديب والهداية من الله للناس جميعاً، فمع ذكر الرزق والحلال الطيب يأتي التحذير والإنذار من الشيطان واغوائه .

اسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما فقال له عمر إن أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما يناله مني غدا.

الرابعة : لما تضمنت آية البحث التحذير من إتباع خطوات الشيطان بينت آية السياق أنه يدعو إلى سخط الله وغضبه، ويقوم بتزيين المعصية وحجب ما في البدعة من القبح ويحاول جلب الضرر للإنسان في الدنيا والآخرة .

الخامسة : كل من آية البحث والسياق رحمة بالناس لما فيها من الدعوة للصبر في طاعة الله، والصبر عن معاصيه وتحث على إجتناب الكبائر والصغائر من الذنوب .

السادسة : تبين آية البحث غنى الإنسان عن الشيطان، وأن الركون لإغوائه باب للإضرار به وسبب في حجب الرزق الكريم، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا قال المؤمن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد كتب الله له مائة حسنة.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [1]

وفيها مسائل :

الأولى : جاءت آية البحث بصيغة العموم وشمول الناس جميعاً وبما فيه سعادتهم في الدنيا بتسخير الطيبات لهم، وإمكان الحياة الكريمة الخالية من

---

[1] سورة . البقرة ١٧٠

التعدي إذ تدل بالدلالة التضمنية على أن كل إنسان يستطيع أن يستوفي رزقه من غير ظلم أو تعد أو إقتراب من الحرام لقوله تعالى ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [١]

بينما جاءت آية السياق بالإخبار عن جحود فريق من الناس بالتنزيل الذي هو دعوة سماوية للعبادة والصلاح .

الثانية : تضمنت آية البحث أمرين :

الأول : الأمر للناس بأكل الحلال الذي سخره الله لهم .

الثاني : النهي عن إتباع الشيطان ، روي أن بعض الأنبياء قال لابليس : أخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم؟ قال : آخذه عند الغضب وعند الهوى [٢].

وتضمنت آية السياق أمرين :

الأولى : الأمر للناس جميعاً بالتصديق بالتنزيل، وإتباع ما فيه من الأحكام والسنن .

الثاني : إصرار الكفار على الجحود بالتنزيل، واعلانهم إتباع آبائهم في الضلالة، وهو من إتباع خطوات الشيطان .

الثالثة : الإعراض عن التنزيل والإصرار على محاكاة الآباء في الضلالة .

الرابعة : تدعو آية البحث إلى التفقه في الدين، ومعرفة السبل والحبائل التي يتبعها شياطين الإنس والجن لإغواء الناس، ومنها التسويف وعدم المبادرة إلى التوبة والإنابة، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنذركم سوف فانها أكبر جنود إبليس.

---

(١)سورة . البقرة ١٦٨

(٢) الدر المنثور ٩٨/٦.

وجاءت آية السياق بالحث على المبادرة إلى التصديق بالكتب السماوية السابقة والعمل بمضامين التنزيل، وهذا التصديق من أسباب دوام النعم وزيادتها .

الخامسة : تضمنت آية السياق ذم الآباء الكفار بأنهم لا يهتدون، وعدم الهداية هذا نتيجة لإتباع خطوات الشيطان الذي حذرت منه آية البحث، ليكون من إعجاز القرآن التحذير والإنذار من الأمر القبيح سواء كان سبباً أو مسبباً، مقدمة أو ذا المقدمة .

السادسة : يفيد الجمع بين الآيتين أن توظيف الإنسان للعقل واقية وحرز من إتباع الشيطان . لذا جاءت آية البحث بمخاطبة العقول ودعوة الناس للتقوى .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ... ﴾[1].

وفيها مسائل :

الأولى : النسبة في لغة الخطاب بين الآيتين هي العموم والخصوص المطلق فآية البحث تخاطب الناس جميعاً، واختصت آية السياق بخطاب المسلمين بقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

الثانية : أمرت آية البحث الناس بالأكل من الطعام والشراب والقوت مطلقاً مما يكون مستلزماً من الطباع، ومستحسناً بالشرع لذا نعتته الآية بكونه

---

(1) سورة . البقرة ١٧٢

(حلالاً طيباً)، وجاءت آية السياق بذات الأمر مع بيان الوفرة والنافلة فيه للمسلمين لقوله تعالى ﴿طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [1]

الثالثة : لما توقى المسلمون من إتباع الشيطان رجاء الخطاب لهم بالأكل من الطيبات ليفوزوا باجتماع خطابين في ذات الموضوع، أحدهما يشتركون به مع عموم الناس كما في آية البحث، والآخر خاص بهم وهو الذي ورد في آية السياق (يا ايها الذين أمنوا) ليكون من المواضيع التي تستحق شكرهم لله عز وجل لذا تضمنت آية السياق قوله تعالى ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ .

الرابعة : تتضمن آية البحث في مفهومها الزجر عن أكل الحرام لأن قوله تعالى ﴿حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ يخرج المحرمات بالتخصص والتي ورد ذكرها في الكتاب والسنة، وجاءت آية السياق للتأكيد، وإقامة الحجة على الناس بلزوم الإيمان والفوز بالرزق الكريم والنافلة فيه .

الخامسة : خاتمة آية السياق دعوة للإحتراز من إتباع الشيطان، وفي التوجه بالشكر لله حزن للشيطان، وحرز من إغوائه .

السادسة : الإيمان بالله ورسوله وكتبه باب للتفقه في الدين، ومعرفة قانون ثابت وهو أن الرزق الكريم نعمة من عند الله . وأن شكر المنعم واجب .

إعجاز الآية

عموم الخطاب يشمل التحذير للناس جميعاً للوقاية من مكر الشيطان من غير ان تترك بيان عداوة الشيطان لبني آدم، وتظهر الآية عدم الحاجة الى الباطل او الجمع بين الحلال والحرام في الكسب، والآية اخبار عن كفاية

---

(1) سورة . البقرة ٥٧

الرزق الحلال لجميع الناس في جميع افراد الزمان الطولية.

وفيها رد على الأصوات التي تتصاعد بحصول ازمات غذائية والتي تبعث الخوف والفزع في القلوب وتحدث الإرباك بسبب الخشية من المستقبل المجهول، فالآية بالدلالة الإلتزامية تبديد لتلك الخشية مما يعني انها اذن امان ورحمة، وجاءت آيات القرآن بالوعد القاطع بالرزق الكريم، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1].

وهل الأكل الحلال هو السبيل للقضاء على تلك الازمات المحتملة، او ان تركه هو الذي أوجد تلك الأقوال ومداركها، انه فرد من اسبابها، والفزع يضر بمسالك العبادة، وتوجه الناس للذكر واداء الفرائض والطمأنينة بخلافه.

يتجدد الخطاب في هذه الآية للناس جميعاً في كل زمان ومكان بأن الله عز وجل هيئ لهم أسباب الرزق الكريم وجعله قريباً منهم، وقد أثنى الله عز وجل على القرآن وبيّن ما في التكاليف العبادية في المشقة، قال تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [2] ولما يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين من الأذى في تبليغ آيات القرآن، ومن وجوه الثقل في القول ثقل العمل بسنن القرآن في الميزان يوم القيامة،

وأخبرت آية البحث بأن الرزق مباح للناس جميعاً وهم فيه شرع سواء رحمة من عنده تعالى في الدنيا، وكما في اسم (الرحمن الرحيم) وأن الرحمن عام للناس جميعاً بخصوص الدنيا، والرحيم خاص للمؤمنين في الدنيا والآخرة، فينفع المؤمن من اسم ورشحات الرحمن الرحيم في الدنيا وينتفع من بركات وفيوضات (الرحيم) في الآخرة، بينما لا ينتفع الكافر إلا من بركات واسم (الرحمن) وفي الدنيا وحدها .

---

(١) سورة الذاريات٥٨.

(٢)سورة المزمل ٥.

لقد ضمن الله للناس جميعاً الرزق في الدنيا، ويكون هذا الرزق مناسبة لشكر لله المسلم ومادة لتعاهده الفرائض والعبادات . بينما يكون وبالاً وموضوعاً للحساب على الكافر .

وجاءت الآية مطلقة : (مما في الأرض)، ليشمل الزراعات وما يصنّع من معادن الأرض ويصبح صالحاً للأكل أو الشرب، ومع إطلاق الأكل فالآية تفيده بأمرين :

الأول : الحلية وعدم الحرمة .

الثانية : الطيب وما تستلذه النفس وما لا يكون سبباً للأمراض .

وكأن الآية تدعو إلى شكر الله عز وجل على النعم والرزق الكريم بعدم إتباع خطوات الشيطان لأنه عدو للإنسان في رزق وفعله وعاقبته لتتجلى للناس حقيقة وهي غناهم عن الظلم والتعدي ويمكن تسمية هذه الآية (حلالاً طيباً) وقد ورد هذا اللفظ أربع مرات في القرآن قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [1]

وتتحدى الآية الناس بأنه في كل زمان هناك حلال طيب يكفيهم وان تكاثروا وتناسلوا، وان من خصائص الرزق الكريم الذي جعله الله للناس مدخراً في الأرض خلوه من الضرر والقذارة والخامة أي أن عاقبة أكله وشربه ليست وخيمة .

وفي الآية دعوة للناس للتميز بين الطيب والخبيث وترك الأخير لعدم الحاجة إليه .

ومن إعجاز الآية أن النهي عن إتباع الشيطان وفعل المنكرات جاء بعد الأمر للناس جميعاً بأكل الطيبات والإخبار عن حب الله لهم ورحمته بهم

---

(1) سورة إبراهيم ٧

بأن منعهم من الحاجة إلى غيره، ومن أكل الخبائث ولما وضع العنب قدام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كره أن يأكل منه . وفي التنزيل ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ المتنوع أي في الحلال الطيب كفاية، وذكرت الآية أعلاه (الطيبات) بصيغة الجمع بينما ورد ذكرها باسم الجنس وفي آية البحث (طيباً) لأنه صفة للحلال .

الآية سلاح

تبين الآية حقيقة الإكتفاء بالحلال والإستغناء عن اتباع الشيطان، والآية رحمة لجميع الناس وباب للهداية لم ينحصر بالمسلمين فقط.

لغة الخطاب وموضوع الأمر في آية البحث دعوة للإيمان بالله، والإقرار بأنه الخالق الرحيم الذي أنعم على الناس جميعاً بالخيرات، وجعلها مباحة لهم وفي قوله تعالى ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ [1] قيل نزلت في ثقيف وبني عامر بن صعصعة وخزاعة وبني مدلج حرموا على أنفسهم أنعاماً لذا، فمن أسرار آية البحث الملازمة بين الحلال في الأرض وقانون الإباحة وحرمة الإفتراء على الله بتحريم ما هو حلال .

والآية واقية من أكل الحرام، من وجوه :

الأول : التوقي و الإحتراز من الشيطان وإغوائه لأنه يدعو إلى أكل المال بالباطل، وإلى اللهث وراء زينة الدنيا وإتباع الهوى.

الثاني : في الآية ترغيب بالحلال والطيب.

الثالث : الإخبار عن كفاية الحلال للناس جميعاً.

---

[1] سورة الأنعام ١٣٨.

ولو أكثر الناس من الأكل فهل يكفيهم الحلال الطيب، الجواب نعم فان قلت جاءت الآيات بذم المسرفين قال تعالى ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ والجواب أن الموضوع مختلف فالإسراف في الأكل بمعنى كثرته والشبع فيه، أما الإسراف في الاية أعلاه فالمراد به مجاوزة الحد في إرتكاب المعاصي والإصرار على الكفر .

لقد هبط ابليس مع آدم وحواء إلى الأرض ليكون فتنة لآدم وأبنائه، وهو جزء من فلسفة الإختبار والإبتلاء في الدنيا، ولكن الله تفضل ببيان عداوته للناس ، ودعاهم للإمتناع عن إتباع نهجه، وهذا الإمتناع حرز من الأخلاق المذمومة، وأمن في الآخرة من العذاب الأليما، وفي حديث الإسراء ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم آخر نيء خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ويتركون النضيج الطيب . قلت : ما هؤلاء يا جبريل!؟ قال : هذا الرجل من أمتك . . . تكون عنده المرأة الحلال فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً تبيت معه حتى تصبح [1].

اسباب النزول

نزلت الآية في ثقيف وخزاعة، وبني عامر بن صعصعة وبني مدلج لما حرّموا على انفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة، فنهاهم الله عن ذلك، نسب الى ابن عباس[2].

والبحيرة الناقة اذا انجبت خمس ابطن وكان الخامس ذكراً بحروه أي شقوا اذنه فاكله الرجال والنساء، وان كان الخامس انثى بحروا اذنها وكانت حراماً على النساء فاذا ماتت حلت للنساء.

(١) الدر المنثور ١٩٦/٦.

(٢) مجمع البيان ٤٢٣/١.

والسائبة البعير الذي يسيب للرجل ويقول: اذا قدمت من سفري اوبرئت من مرضي فناقتي سائبة، فتصبح كالبحيرة في موضوع الإنتفاع منها.

والوصيلة في الغنم تلد ستة اذا ولدت السابع عناقاً واحداً فيحل للرجال دون النساء.

ولكن الآية اعم حتى في اسباب نزولها وموضوعها بدليل ما قبلها من الآيات وما بعدها ولغة الخطاب فيها.

مفهوم الآية

تعتبر الآية من الآيات الإصلاحية التي تساهم في تقسيم معايش الناس وتحافظ على النظام العام وتمنع من التعدي والظلم، ان نشر الإستقرار في الأرض مقدمة اخلاقية واجتماعية واقتصادية لسيادة احكام الشريعة ورجوع الناس الى حكم العقل بلزوم الطاعة لواجب الوجود لأن الظلم باب للشرك ومدخل للغواية والإنشغال وتدعو الى اعمار الأرض والإنتفاع مما فيها من الثروات وحرثها وزراعتها، ومن الإعجاز ان ترى قيود القرآن الإحترازية وكل واحد منها مدرسة شرعية واخلاقية جامعة فقد قيدت الآية الأكل في الآية بان يكون حلالاً طيباً، وبالحلال يخرج الحرام وما فيه الحساب والعقاب، وبقيد طيب يخرج الخبيث والردئ وكأن الآية تحث على تحسين المنتوجات الزراعية وغيرها ومواصلة البحث لزراعة افضل انوارع المزروعات واكثرها نفعاً، ولا من ملازمة بين الأكل من الأرض وعدم اتباع الشيطان في خطواته واغوائه منها ان التنعم بخيرات الدنيا يجب ان لا يكون سبباً لإتباع اغواء الشيطان.

الآية لطف

كل آية من القرآن لطف بالناس مجتمعين ومتفرقين وفي منطوقها ومفهومها ليكون هذا اللطف من عمومات قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١)

ويتجلى في هذه الآية الوعد الإلهي الكريم للناس بالرزق الحلال الطيب، وفيه رد على أولئك الذين يدعون إلى تحديد النسل خشية الفقر والفاقة ونقص المواد الغذائية، فان قلت إن الله عز وجل يعلم عدد الناس بما فيه تحديد النسل لذا خاطبهم بما هم أحياء، إذ أن الخطاب في الآية (يا أيها الناس) متجدد للموجود في كل زمان وله شاهد ومصداق وهو أن الأجيال السابقة قد إنقضت أيامها والرزق الكريم مبذول لهم قريب منهم ولم تشعر أمة كبيرة بالنقص في الغذاء وإذا كان قحط يكون في موضع من الأرض، فقد دعا الله الناس للهجرة والضرب في الأرض طلباً للرزق وتفكراً بالآيات منه، وفي التنزيل ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (٢)

لقد رفض إبليس الإمتثال لأمر الله باسجود لآدم ليهبط إلى الأرض عدواً لآدم وذريته، ساعياً إلى إفساد دينهم وصدهم عن الفرائض والعبادات، وإشغلالهم باللهو، فجعل الله عز وجل في كل زمان أمة من الصالحين تمتنع عن إتباعه، وتفضحه بين الناس، وجاءت آية البحث مدداً للمسلمين في سد مداخل الشيطان التي تواجه الإنسان في كل آن وذكر الشيطان في القرآن والسنة أعم من إبليس ووسوسته فيشمل الهوى وإتباع أفكار الضلالة والبدعة التي تكون مقدمة لفعل الحرام والباطل .

---

(١)سورة الأسراء ٨

(٢)سورة النساء ٩٧

وعن جابر بن عبد الله : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى امرأة فأتي امرأته زينب وهي تمعس منيئة[١]، لها فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال : إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله فإن ذلك يرد ما في نفسه[٢].

وفي الحديث تشبيه لوجود الإفتتان بالمرأة وكيفية قهره بفعل الحلال والتنزه من الحرام، ومن إعجاز الآية أنها تخاطب الناس بصيغة الجمع (يا أيها الناس) بينما تذكر عدوهم بصيغة الإفراد (إنه لكم عدو مبين) وفيه مسائل :

الأولى : دعوة الناس للتعاون والتعاضد في محاربة الشيطان .

الثانية : حث المسلمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى الفاسقين والكفار، فهم أخوة في الإنسانية .

الثالثة : تحذير الناس من أسباب الإفتتان ومقدمات الإغواء .

الرابعة : بيان وهن الشيطان وعجزه عن محاربة الناس مجتمعين .

الخامسة : رحمة الله بالناس جميعاً البر والفاجر . والمؤمن والكافر فجاء التحذير لهم في الآية بعرض ومرتبة واحدة .

إفاضات الآية

من مصاديق ملكية الله عز وجل للأرض أنه جعلها وعاءً ومحملاً للرزق الكريم الذي يكفي الناس جميعاً بدليل الأمر في الآية ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ والآية مدرسة في التفقه في الدين، والدعوة إلى الصلاح سواء بما فيها من

---

(١) أي تدلك ، والمنيئة الجلد في أول الدباغ.

(٢) صحيح مسلم ١٠٢/٢.

الأمر أو النهي، الأمر بأكل الحلال، والنهي عن إتباع الهوى وإغواء الشيطان (وعن النعمان بن بشير ألا وهي القلب) [١].

لقد أمر الله عز وجل المسلمين بما أمر به الأنبياء في الأكل من الحلال الطيب وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أمرت الرسل ألا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا[٢].

لتكون الآية شاهداً على وراثة المسلمين للأنبياء في مضامين التقوى والعمل الصالح وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [٣]

وتبعت آية البحث على تقوى الله وتنمية ملكة طلب الرزق الحلال عند المسلمين لتساهم في بناء صرح الدولة الإسلامية وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله يحب أن يرى عبده تعباً في طلب الحلال[٤].

ومن الإعجاز في آية البحث عدم وجود برزخ بين الناس وطلب الرزق الحلال فمع أن الآيتين السابقتين وردتا في تبرأ الظالمين بعضهم من بعض يوم القيامة فان هذه الآية تتضمن الإخبار عن عجزهم عن حجب رزق الله عز وجل عن الناس، ليكون فيها حجة على الذين ركنوا إلى الذين ظلموا وكانوا آلة في جورهم .

وهو من مصاديق قوله تعالى﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾[٥]

---

(١) مفاتيح الغيب ٢/١٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤٨٤/١٦ .

(٣)سورة .آل عمران ١١٠

(٤) جامع الأحاديث ٢٤٧/٨.

(٥)سورة .البقرة ١٦٦

فمن صيغ تبرأ رؤساء الكفر من أشياعهم وأتباعهم قولهم إن رزقهم مبذول لهم في الدنيا بعافية ويسر من غير حاجة للجوئهم إلى إتباعنا، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : العافية عشرة أجزاء تسعة في طلب المعيشة، وجزء في سائر الأشياء.

وهل تحث الآية على الدعاء الجواب نعم فان الدعاء باب للكسب وتيسير مقدمات الرزق الحلال، وواقية من الحرام وأمن من إغواء الشيطان وأسباب الإفتتان، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما جاء من جبريل إلا امرني بهاتين الدعوتين : اللهم ارزقني طيباً واستعملني صالحاً[1].

صالحاً[1].

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالخطاب للناس على نحو العموم الإستغرافي فلا يستثنى معه أحد، وبين الناس وبني آدم عموم وخصوص مطلق، لأن لفظ الناس شامل لآدم وحواء أيضاً بخلاف بني آدم . ولكن الآية بلحاظ أوان التنزيل جامعة للمسلمين وأهل الكتاب والكفار، وفيه آية بأن يلتقي أهل الأرض بفرد جامع وعنوان مشترك.

وعن رسول صلى الله عليه وآله وسلم قال لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم[2]، ومن أسرار مجئ الآية بلفظ الناس الإشارة إلى أن ارزاق الناس جعلها الله في الأرض قبل أن يخلق آدم وبخصوص خلق الأرض قال تعالى ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.

---

(١) الدر المنثور ٢٠٩/٧ .

(٢) تفسير الثعالبي ٤٧٦/٣ .

وعن ابن عباس ان اليهود أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والإثنين ، وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء ، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب ، فهذه أربعة فقال تعالى { قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين } وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقين منه . فخلق في أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حين يموت من مات . وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء من منتفع به . وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة ، وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد؟ قال : ثم استوى على العرش « قالوا : لقد أصبت لو أتممت . ثم قالوا : استراح . فغضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم غضباً شديداً . فنزل { ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون }[1].

وتحث الآية المسلمين على النظر للناس بلحاظ الإشتراك في الخلق والإنسانية وأسباب الألفة بينهم وعدم النفرة من غيرهم، وهذه الألفة سبب بجذب الناس لمنازل الهداية والإيمان، وفي الآية نكتة وهي توجه الخطابات الإلهية العامة للناس بواسطة القرآن، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

[1] الدر المنثور ٣١/٩.

وتتجلى معاني الرحمة في لغة الخطاب في آية البحث إذ أنها تأمر الناس باشباع رغائبهم من الأكل والشرب بفضل ولطف من عند الله عز وجل بالناس جميعاً

وذكرت الآية الرزق بلغة التبعيض في الأرض أي أن الله جعل في الأرض اكثر من أرزاق الناس . ليكون مناسبة للدعاء وسؤال الزيادة في الرزق ومع هذا الدعاء ومصاديق الإستجابة له فهناك فضل وزيادة، ولو توجه الناس جميعاً وفي كل جيل بالدعاء لزيادة الرزق وإستجاب ويستجيب لهم الله فهل تبقى لغة التبعيض ذاتها (مما في الأرض) الجواب نعم، وتلك آية في كرم ولطف الله، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [1] وذكرت الآية الأكل ولم تذكر الشرب وفيه مسائل :

الأولى : وفرة المياه، وكثرة الآبار والأنهار والبحار .

الثانية : في الآية إشارة إلى شحة المياه في بعض الأزمنة .

الثالثة : شرب الماء ملحق بالأكل .

الرابعة : الأصل هو إباحة الماء والناس فيه شرع سواء .

الخامسة : جاءت الآية بخصوص ما في الأرض وبعض البلدان يكون مصدر الماء فيها هو السماء وهطول الأمطار .

السادسة : جاءت آيات عديدة باقتران ذكر الشرب مع الأكل، قال تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾

---

(١)سورة . الذاريات ٥٨

[1] وفيه دعوة وإرشاد للصائمين بالتزود بشرب الماء على الظمأ والعطش في يوم الصيام .

لذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله:تسحروا ولو بجرعة ماء[2].

ومن أعجاز القرآن ورحمة الله بالناس أن آية البحث بدأت بالأمر العام للناس بالتنعم بالطيبات ثم جاء بعده النهي عن إتباع الهوى والنفس الأمارة بالسوء .

وأختتمت الآية بالتحذير من إتباع الشيطان الذي عصى الله عز وجل حينما أمره بالسجود لآدم وإختار إغواء الناس ومحاولة إضلالهم .

وحينما إحتجت الملائكة على جعل آدم خليفة في الأرض ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [3]

أخبرهم الله بأنه يعلم ما يجهلون، ليكون من مصاديق الخلافة في الأرض تهيئة أرزاق الناس جميعاً من عند الله، وهل عداوة إبليس للإنسان تضر الناس في أرزاقهم الجواب نعم، إذ أن إتباع الهوى، والصدود عن ذكر الله يجعل الإنسان في شقاء متصل وحياته نكداً، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [4]

---

(١)سورة . البقرة ١٨٧

(٢) صحيح ابن حبان ٤٥٠/١٤.

(٣)سورة . البقرة ٣٠

(٤)سورة . الأنعام ١٢٥

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : بيان حب الله للناس من وجوه :

الأول : مجئ الآية بالخطاب لهم جميعاً، ليدخل فيه البر والفاجر، والمؤمن والكافر، والسيد والعبد .

الثاني : خلق وإيجاد الله أرزاق الناس قبل أن يخلقوا .

الثالث : ذكر الناس ومخاطبتهم في القرآن الكتاب السماوية الخالد إلى يوم القيامة .

الرابع : الأمر من الله إلى الناس بالأكل والإطعام مما في الأرض والمحمول على الإباحة وهل تدخل فيه الزكاة والضيافة والهبات أم أن الآية إنحلالية وتقدير خطاب الفرد منها ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾.

الجواب هو الأول، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم برئ من الشح من أدى الزكاة وقرئ الضيف وأعطى في النائبة[1].

الثانية : إنتفاء المنّة والفضل بين الناس في الرزق الحلال إذ أن الله عز وجل هو الرازق للخلائق كلها ومنها الناس والبهائم .

الثالثة : آية البحث من مصاديق قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [2]

الرابعة : يتصل موضوع الآية بالآيتين السابقتين في بيان قانون كلي وهو أن الإنسان لا يحتاج إلى الركون إلى الظالمين وأن رزقه ونافلته موجودان في

---

(١) الدر المنثور ٤٦٣/٩.

(٢)سورة الزمر ٣٦

الأرض من قبل أن يخلق، الإنسان وأنه لا يحتاج إلى إعانته للظالمين، التي لا تؤدي إلا للعذاب قال تعالى ﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ﴾ (١)

الخامسة : من مصاديق ملك الله للأرض أن ما عليها حلال طيب ومباح للناس جميعاً وأن الشيطان لا يستطيع في يوم من الأيام إفساده .

السادسة : تدعو الآية المكلفين جميعاً إلى التدبر في المأكول والمشروب بأن لا يكون فيه حق لغير الآكل، وهل يضر هذا الحق في موضوع إستطابة المأكول الجواب نعم، سواء بالأثر الوضعي العاجل أم الآجل .

السابعة : الإنذار والوعيد على إتباع خطوات الشيطان في التأثير على الإنسان لنقله من معصية إلى أخرى، ومن ذنب صغير إلى أكبر حتى يقع في الضلالة، وقد أكرم الله المؤمنين وأنذرهم بذات الخطاب الذي توجه إلى الناس جميعاً في آية البحث، قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (٢) لينتفع المسلمون من تكرار وتجدد الإنذار عن إتباع الهوى، فمرة يتلقون الإنذار بلحاظ أنهم شطر من الناس .

وبين الناس والمسلمين عمموم والخصوص مطلق، فكل مسلم هو إنسان وليس العكس . وفي الآية أعلاه بيان لمصداق من عداوة الشيطان للناس وهو أمره بالسوء والفحشاء كما ذكرته الآية التالية .

الثامنة : في الآية إخبار عن عدم حاجة الإنسان إلى السكن في الكواكب الأخرى طلباً للرزق، فان ما في الأرض من الرزق الحلال يكفي الناس جميعاً وتبقى فيه نافلة وزيادة، ويحتاج الذي يسكن الكواكب الأخرى

---

(١)سورة هود ١١٣

(٢)سورة .النور ٢١

طيبات الأرض وهذه الحاجة من بديع صنع الله وصيرورة الأرض سكناً للناس، وخلافة الإنسان فيها .

التاسعة : قيدت الآية الأكل بأنه مما في الأرض، وفيه وجوه :

الأول : إرادة الزراعات والثمار .

الثاني : أكل ما تشترك السماء والأرض في إيجاده وصيرورته صالحاً للأكل والشرب، وعن موس الطائفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أكرموا الخبز فان الله أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض[1].

الثالث : الإشارة إلى كنوز الأرض من النفط والغاز والمعادن النفيسة وصيرورتها أموالاً وعروضاً .

الرابع : إرادة سعي الناس في المكاسب وبذل الوسع في طلب الرزق .

الخامس : العذاب في الأرض والسفر للتجارة والعمل، قال تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [2]

السادس : إرادة بيان حقيقة وهي أن الرزق الذي في الأرض يكفي الناس جميعاً وتنطوي أيام الدنيا ويأتي البعث والنشور وفي الأرض رزق وطيبات لم يستهلكها الناس مع جدهم ومثابرتهم وسعيهم في طلب الرزق .

---

(١) الدر المنثور ٢٧٤/٤.

(٢)سورة . الجمعة ١٠

التفسير

قوله تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً ﴾

الأولى : تظهر الآية رحمته تعالى المطلقة الشاملة للخلائق وتبين ان القرآن موعظة وتذكرة وكنز يمكن لكل انسان ان ينهل منه.

الثانية : في الآية اعجاز ظاهر وهو انها عهد ووعد ببسط رزقه تعالى في الدنيا لجميع الناس، مع ان رحمته تعالى تصيب البر والفاجر.

الثالثة : عموم الخطاب القرآني دعوة للإذن والسماح لغير المسلمين بالإنتفاع من الأرض زراعة وتحصيلاً ونحوه.

الرابعة : تظهر الآية عدم الملازمة بين بسط الرزق والإيمان، وكذا بين التقدير والضيق في الرزق واتباع وساوس الشيطان ومحاكاته في مكائده.

الخامسة : موضوع الرزق وحده حجة على الناس.

السادسة : بامكان كل انسان ان ينال رزقاً كريماً حلالاً ولا يسئل عنه يوم القيامة ان لم يتعلق به المنع والحظر كما انه لا يحتاج الى مقدمات غير شرعية او منهي عنها.

السابعة : في الآية اعجاز آخر وهو الأخبار عن كفاية ما في الأرض للناس جميعاً.

الثامنة : اكل الحلال يبعث في النفس الطمأنينة ويمنع من توظيف العقل في افراد ضرر واذى النفس والغير.

التاسعة : تدل الآية الكريمة بالدلالة التضمنية على انتفاء المجاعة وعدم تعطل بركات وثروات الارض.

العاشرة : لغة الخطاب الموجهة للناس جميعاً تعني انه بميسور الجميع

الأكل من الحلال وانه تكليف عام.

الحادية عشرة : فيها مندوحة وسعة من غير حاجة الى الكسب الحرام.

الثانية عشرة : ان الأرض فيها ثروات عديدة لم تستثمر بعد.

الثالثة عشرة : (في) حرف يفيد الظرفية وله معان اخرى، أي ان ثروات ومنافع وبركات الأرض باقية الى يوم القيامة لا تنفد او تنقطع في يوم ما من ايام الدنيا لإنبساط الخطاب القرآني على كل الأجيال والأمم.

الرابعة عشرة : الآية دعوة لإستظهار كنوز الأرض.

الخامسة عشرة : الظاهر ان الأنبياء يعلمون هذه النعمة العظيمة لذا ورد في سورة يوسف ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾[1] وكانت تلك الوزارة ذات نفع مركب، بالإنتفاع العام والأمثل وبالصيغ الإيمانية من خلال النبوة وافاضاتها على الناس.

السادسة عشرة : صيغة الخطاب في مفهومها تدل على وجود منافع خاصة في أكل الحلال منها صفاء البصيرة وسلامة السريرة ورقة القلب وصواب الفكرة.

السابعة عشرة : اجتناب الحرام مناسبة للتوجه الى العبادة، وعدم الإنشغال بالدنيا، فالإقتصاد بالكسب وحصره بالحلال يمنع من الإندفاع النوعي العام بقصد الجمع خشية الفقر والحاجة، وقد يؤدي الى الشحة والبخل والتردد حتى في الفرائض المالية.

الثامنة عشرة : الحلال والطيب لا ينحصر بالأكل والشرب ونحوهما بل يشمل المنافع المعنوية والأخلاقية فمن اهم افراد الحلال النكاح، والرخصة في تعدد الزوجات حجة في منع الزنا ونحوه من الفواحش.

---

(١) سورة يوسف ٥٥.

التاسعة عشرة : اكل الرزق الحلال مقدمة وطريق مبارك للهداية في مسالك الإيمان.

العشرون : حرف الجر الوارد في قوله تعالى ﴿فِي الأَرْضِ﴾ يفيد بالإضافة الى الظرفية الإستعلاء كما في قوله تعالى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[1] أي على جذوع النخل، فالآية تعم النعم والخيرات التي على سطح الأرض ايضاً وان لم تكن من نباتها كالأنعام، ولذا ترى الإمام الشافعي مثلاً يمنع اكل الحيوان القذر والخبيث لإشتراط الحلال الوارد في الآية بصفة (الطيب) والآية جاءت للإرشاد والتنزه عن الحرام.

الحادية والعشرون : تحث الآية على تأسيس وزارة ومؤسسات خاصة تكون دائرة عملها ما في الأرض من الرزق الحلال وكيفية الإنتفاع منه على نحو العموم الإستغراقي وتقسيمه بانصاف ووفق الطرق الشرعية.

الثانية والعشرون : جاءت الآية لتنمية مقومات ملكة الإيمان في النفوس باختيار الأصلح والأنسب وفق القواعد الشرعية.

الثالثة والعشرون : نعمة النفط مما تتضمنه هذه الآية وظهورها في ارض البعثة النبوية المباركة وما حولها آية ودعوة طبيعية للإسلام فاذا كان لبس الحرير للرجال جائز في ساحة المعركة يبدو المسلمون في حال غنى وسعة فان اثر ثروة النفط آية واخبار للناس جميعاً بعز الإسلام وكرامة اهله وهي مثال للنعم التي تنتظرهم في الآخرة.

الرابعة والعشرون : الأمر في الآية ورد بالأكل مما في الارض، ويدل في مفهومه على عدم احداث الضرر بها، لذا ترى الدراسات مستمرة لتحقيق التدارك باخذ النفط من الأرض وما يحتمل ان يسببه من خسف ونحوه أي

---

(1) سورة طه ٧١.

ان الآية تحث على اصلاح الأرض وتعاهدها، وفيها ايضاً دعوة لحفظ ثروات الأرض وعطاؤها للأجيال القادمة.

الخامسة والعشرون : الآية تحث بالدلالة الإلتزامية على انتهاج سبل القبول في الدعاء باجتناب الحرام اذ وردت بعض النصوص بان الرزق الحلال طريق لقبول الدعاء.

السادسة والعشرون : الأكل من الارض أعم من مباشرتها فيشمل التصنيع والتبادل التجاري والمقايضة بما يكون اصله من الأرض.

السابعة والعشرون : يمكن اعراب ﴿ حَلَالاً ﴾ على انه تمييز، أي ايجاد موازين الأحكام الشرعية في الكسب واخذ المباح وترك المحظور والممنوع.

الثامنة والعشرون : المستقبل يحمل في طياته اسراراً خفية وانباء مباركة عن اكتشاف فلزات ومعادن ثمينة في الأرض تكون مادة للعيش وكسب كثير من الناس، فقد تجد ارضاً جرداء وبلداً فقيراً يصبح باكتشاف ثروة فيه من اغنى دول العالم وهذا الإكتشاف لا ينحصر بما يحتاجه اهل ذات الزمان، لرجحان استحداث حاجات عديدة لمعادن وفلزات لا شأن لها في الوقت الحاضر او انها لم تعرف بالدقة في هذا الزمان.

التاسعة والعشرون : الأكل في الآية اعم من معناه اللغوي والعرفي فيشمل فروعاً متعددة ومتنوعة من الإستثمار ومطلق الإنتفاع.

الثلاثون : حاجة الإنسان الى الأكل محدودة كماً وكيفاً، والظاهر ان موضوع النفع في الآية خال من الإسراف والتبذير، وان الأسراف في الأكل والأخذ من الأرض فيه ضرر ويدخل ضمن عمومات قاعدة (لا ضرر ولا ضرار).

الحادية والثلاثون : الأشجار والنباتات من مصاديق الآية سواء بالذات او الواسطة، وفي مرسلة التهذيب عن الباقر عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم: العبادة سبعون جزء افضلها طلب الحلال".

الثانية والثلاثون :تثبت الآية قواعد فقهية عديدة منها قاعدة نفي الجهالة والغرر، فقصد الحلال يدعو بالدلالة التضمنية، للإمتناع عن الغرر بالآخرين وخداعهم في المعاملة.

بحث بلاغي

من خطابات القرآن خطاب الجنس وارادة جنس الإنسان كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ﴿ يَابَنِي آدَمَ ﴾ وهو في ظاهره موجه لكل انسان على نحو العموم الإستغراقي فكل فرد يدخل تحت الخطاب، وقالوا ان غير المكلف خارج عن مثل هذا الخطاب، ولكنه قد يرد على نحو العموم ومتعلقاً باصل التكوين والرزق، كما في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾[1]

وكما في هذه الآية فان الخطاب يتعلق بالرزق في بيان عظيم فضله سبحانه على الناس جميعاً كما بدأت سورتان من سور القرآن ب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وهما سورة النساء وسورة الحج، ويعتبر هذا الخطاب من الخطاب للمعدوم بتبعيته للموجود وبتجدد الخطاب له في حال وجوده او صيرورته مكلفاً، فلا ينحصر موضوعه بايام التنزيل بل هو باق الى يوم القيامة ينحل بعدد المكلفين والناس اجمعين.

قوله تعالى ﴿ طَيِّبًا ﴾

الأولى : الآية دعوة لتنزيه الأسواق من شرور الشيطان خصوصاً وانها موطنه، فالإلتزام بالحلال حصانة اخلاقية وملكة كريمة تمنع من وسوسته.

---

(١) سورة الحجرات ١٣.

الثانية : جاء طيباً صفة وتقييداً للحلال لأن المباح اعم فقد يكون طيباً وقد لا يكون كذلك.

الثالثة : الوصف يفيد الحصر بما هو حلال مما يعني في مفهومه النهي عن الحرام كالغصب السرقة واكل مال الغير من غير اذنه.

الرابعة : الآية تحث على عدم توظيف ما في الأرض من النعم بالباطل وما فيه من الأذى.

الخامسة : الآية توكيد لقواعد فقهية عديدة منها (الناس مسلطون على اموالهم)، (لا ضرر ولا ضرار)، (لا يجوز اكل مال امرء مسلم الا باذنه)، (قاعدة نفي الجهالة والغرر) (اعادة المغصوب).

السادسة : قيل إن الطيب نفس الحلال وجمع بينهما لإختلاف اللفظين، ولا يخلو الكلام من مصادرة فهذا التقييد تتفرع عنه عدة مسائل وتترتب عليه جملة من الأحكام منها:

السابعة : ان الحلال اعم من الطيب فمنه النبات المباح الذي لا يصلح لأكل الإنسان او ان النفس لا تشتهيه.

الثامنة : ان نعت الطيب لا ينحصر بالطعم والرائحة والمذاق بل يشمل كيفية الكسب وطريقته، ولذا يمكن القول ان الآية تخبر عن سهولة الكسب الحلال.

التاسعة : حصول المشقة في الكسب الحلال انما هي راجعة لأمر عرضي وطارئ وللمؤمن فيه الأجر والثواب لذا قد يكون تحصيل المعاش واجباً.

العاشرة : (طيب) صفة للحلال، أي ان الحلال لا يكون الا طيباً سواء:

الأول : للراحة والسكينة والقناعة عند اكله.

الثاني : لأنه لا يسبب الأمراض والآثار الجانبية الضارة.

الثالث : لما يترتب عليه من المنافع الدنيوية.

الحادية عشرة : كأن الآية تخبر بان الارض جزء من الجنة فالخطاب في الآية الحلالي بعدد الناس وفي جميع افراد الزمان الطولية والى يوم القيامة، وبتقريب ان الجنة يتجدد فيها الرزق الكريم قال تعالى ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[1] كلما قطع من ثمرها حل محله غيره، كذلك الوعد في الخطاب القرآني في هذه الآية، فالأمر بالأكل مستديم ومتجدد مما يعني عدم انقطاع خيرات الأرض وما فيها من الرزق الحلال والى يوم القيامة.

الثانية عشرة : ان الله تعالى هو الكريم وليس لعطائه حد ولا لفضله منتهى، فالأمر بالأكل الحلال مطلق غير مقيد بالتقتير، والنصوص الواردة في التدبير مثل قوله عليه السلام: "التدبير نصف المعيشة" لا يشمل موضوعها الرزق الإلهي بل هي توجيه وتأديب للإنسان وارشاده الى اجتناب الإسراف.

الثالثة عشرة : الآية توكيد خارجي لصفات واجب الوجود فهو القيوم الدائم الذي لا يزول، وتثبت بالدليل المتجدد في كل آن وعند كل انسان انه سبحانه المدبر والمتولي لجميع شؤون العباد ويسخر لهم وينفعهم، ويهيئ لهم اسباب الرزق الحلال.

الرابعة عشرة : اللمس في علم الكلام قوة وكيفية قائمة في البدن يحفظ بها الحيوان مزاجه عن المنافي الخارجي، ويبتعد عنه ويحس بما فيه نفع فيتوجه اليه، والآية تظهر هذا التقسيم الاستقرائي الشرعي والاخلاقي وتدعو الى التقيد به.

الخامسة عشرة : حقيقة ما في الحلال من الحسن والطيب وعدم القبح تبدو في الآخرة على نحو اكثر وضوحاً وجلاءً.

---

(1) سورة الواقعة ٣٣.

السادسة عشرة : الكسب الحلال يحول دون الخصومة والنزاع فيكون مناسبة للتدبر في هذه النعم واسرار الكون وعظمة الخلق.

السابعة عشرة : تحول الآية دون الفتنة وحصول الحروب والمعارك وتطرد الأنانية واعراض النفس البهيمية.

الثامنة عشرة : من مصاديق الطيب انه لذيذ ولا يكون مستلذاً بالذات الشخصية بل بالنوع والموضوع.

التاسعة عشرة : الحلال يكون طيباً لأنه وفق احكام الشريعة التكليفية والوضعية، فقد يكون الطعام لذيذاً طيباً ولكن لأنه مسروق او ان صاحبه لم يأذن باكله يكون خبيثاً لحرمته ولما يتعقبه من العقاب.

العشرون : استحق الرزق الحلال صفة الطيب ونفي الخبث عنه لأنه طاهر.

الحادية والعشرون: الآية ترغيب بما تفضل به من الرزق وحث على حصر الكسب به، ولابد ان يتفرع عن هذا الحث ضمان له.

الثانية والعشرون: في الآية بيان لعظيم احسانه بان جعل رزقه حلالاً طيباً.

الثالثة والعشرون : تبين الآية نعمة من نعمه تعالى وان فضله تعالى فيها مركب ومتعدد الجوانب.

الرابعة والعشرون : تنفي الآية الحاجة الى الحلال غير الطيب باعتبار ان الطيب صفة مقيدة ومغايرة للحلال، وان ذهب بعضهم الى اعتبارها صفة مؤكدة، وبه اخذ مالك.

الخامسة والعشرون : ظاهر الآية المغايرة والتنافي بين الرزق الحلال والطيب وبين اتباع خطوات الشيطان، ولعل اتباع خطوات الشيطان يجعله خبيثاً او يفقده طهارته وحليته ومذاقه الطيب.

في علم الحديث

تعتبر السنة النبوية الشريفة المصدر الثاني في التشريع وعليه اجماع المسلمين، وتتصف نصوص واحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببيان ملكوتي يلقي السكينة والرضا في النفس ويبعثها الى الفعل بشوق ويساعد في زجرها عن المنكر والإثم.

والنصوص التي جاءت عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الحث على اكل الحلال اكثر من ان تحصى وتزدان بها كتب الحديث والسيرة والأخلاق والكلام سواء بطلب الحلال لذاته ام انه مقدمة للدعاء والصلاح وافصلاح وقد ورد في الخبر عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ايها الناس اتقوا الله واجملوا في الطلب، فان نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، وان ابطأ عنها فاتقوا الله واجملوا في الطلب، خذوا ما حلّ، ودعوا ما حرّم[1].

وسند الحديث ضعيف لأن فيه الوليد بن مسلم وابن جريج، ولكن ذكر الحديث ايضاً ابن حيان باسنادين عن جابر ايضاً بالإضافة الى قاعدة التسامح بادلة السنن وورود نصوص عديدة بهذا المعنى، وترك الحرام من اجتناب الشيطان وعدم اتباعه في اغوائه.

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾

الأولى : انذار وتحذير لجميع الناس في كل مكان وزمان بعدم الإقتداء بالشيطان واتباع خطواته.

الثانية : الإتباع هنا يتمثل بطاعة الشيطان وعمل السيئات والخضوع الى الهوى ووساوس الشيطان.

---

(1) سنن ابن ماجة ٧٢٥/٢.

الثالثة : النهي في الآية على قسمين: للمسلمين تنزيه وتنبيه وتأديب وتعليم وارشاد، وللكافرين توبيخ وانذار.

الرابعة : على القول بأن الواو في ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا ﴾ استئنافية يكون الانذار والتحذير أعم من موضوع الرزق والكسب.

الخامسة : من اسباب الإحتراز من الشيطان نقاء النفس وصدق الإيمان والإقبال على الطاعات واتيان الفرائض العبادية .

السادسة : الآية تنهى وتحذر من التجرأ والتمادي في المعاصي مع عدم الإلتفات والتدبر ومعرفة اضرار تلك المعاصي وعواقبها.

السابعة : ان طول الإقامة على الفواحش ينسي الإنسان ما ينتظره من العقاب الشديد والعذاب الأليم.

الثامنة : اتباع خطوات الشيطان أكثر خطراً وضرراً من الأكل من غير الحلال، او انه ذنب ومعصية مستقلة، فلذا جاء التحذير والتخويف منه.

التاسعة : كلما يكون الذنب أقل يكون التدارك والنجاة أقرب وأسهل، لذا فأن الآية الكريمة بينت بأن الذنوب المركبة المتوالية المتعاقبة تلقي بالانسان الى التهلكة والتمادي في المعصية.

العاشرة : الآية فضح وخزي وتقبيح لوساوس الشيطان واغوائه، ودعوة للمسلمين لمعرفتها وأخذ الحيطة والحذر منها.

الحادية عشرة : وردت ﴿ خُطُوَاتِ ﴾ على نحو اجمالي من غير ذكر المصاديق الشخصية في كل مورد من الموارد الخمسة التي ذكرت فيها من القرآن، مما يدل في ظاهره على كثرة المصاديق و تعدد المعاصي والذنوب وازدياد الإنغماس والتلبس بها وانها غير مقدرة بزمان دون زمان او مكان دون آخر او شخص دون آخر الا ان يشاء الله.

الثانية عشرة : هناك ملازمة بين صدر الآية وذيلها، بين طلب الرزق الحلال الطيب وبين عدم اتباع خطوات الشيطان، فظاهر الآية يدل على استقلال طلب الرزق الحلال ويمكن الكسب منه بمعزل عن الشيطان، ومن وجوه الملازمة ان اخراج الحقوق الشرعية من الزكاة والخمس ونحوهما محاربة للشيطان لا الأكل والشرب والسكن يصبح باخراجها من الرزق الحلال، وان منعها من اتباع خطوات الشيطان.

الثالثة عشرة : الإقتران الموضوعي بين الكسب الحلال والتحذير من الشيطان لا يعني الحصر، بل ان الشيطان يداهم الإنسان في كل حال من احوال حياته وايامها الا ان باب الرزق والكسب هو الفرد الأهم والأكثر ابتلاء واتساعاً.

الرابعة عشرة : ان الشيطان لا يستطيع الحيلولة دون الإنسان وطلب الحلال الطيب.

الخامسة عشرة : الآية حجة على الناس لما فيها من الإشارة والدلالة على ان فعل السيئات يكون باختيار الإنسان وليس من فعل الشيطان، والمباشرة في الجناية اكبر من التسبيب وان اخبرت الآية التالية عن امره بالسوء.

السادسة عشرة : اتباع خطواته يقود الى طلب الحرام او يجعل الكسب الحلال مستمراً ولكنه يستعمل في غير مرضاة الله.

السابعة عشرة :موضوع اتباع الشيطان في هذه الآية يتعلق بغير ابواب الكسب والإنفاق خصوصاً وان الشيطان يفرح بكل معصية وان كانت صغيرة، سواء لذاتها او انها مقدمة لغيرها كما يدل عليه ورود لفظ خطوات بصيغة الجمع في جميع مواضعها من القرآن لتعدد وجوه المعاصي.

الثامنة عشرة : اتباع خطوات الشيطان سبب ومقدمة لطلب الخبيث والكسب غير المشروع، فالنهي عن اتباع خطوات الشيطان جاء لتحصين

الناس والمؤمنين من الحرام، وبيان كيفية أكل الحلال بعدم اتباع الشيطان.

عن الإمام الصادق عليه السلام: اما سمعت بطارق، ان طارقاً كان نخاساً بالمدينة فاتى أبا جعفر عليه السلام فقال: يا ابا جعفر اني هالك اني حلفت بالطلاق والعتاق والنذر، فقال له: يا طارق ان هذه من خطوات الشيطان".

وعنه عليه السلام قال: كل يمين بغير الله فهي من خطوات الشيطان".

التاسعة عشرة : صيغة الجمع في عداوة الشيطان للناس أي انه عداوته مستديمة حتى بالنسبة للذين يتبعونه، وعداوته لهم تتمثل باقامتهم على المعاصي وزيادة التجرأ.

قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

الأولى : هذا الشطر من الآية ورد بصيغة الجمع خمس مرات وهذه المطابقة في العدد بينه وبين ﴿ خُطُوَاتِ ﴾ ومجيؤها في آية واحدة لابد له من دلالات تثبت التشابه ووحدة الموضوع في تنقيح المناط، ومرة اخرى ورد ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] لتكون بياناً لعداوته وان عداوته ليست ذاتية خالية من الأغراض بل هي شر محض.

الثانية : انه يسعى الى اضلال بني آدم واغوائهم وحجبهم عن الصالحات وقد يبدأ هذا الحجب بمقدماته العقلية والشرعية وهي الكسب الحرام او توظيف الحلال في معصية الخالق عز وجل.

الثالثة : ظاهر الآية يفيد ان عداوته مطلقة لجميع الناس مجتمعين ومتفرقين، ولكن الناس انقسموا قسمين، قسم تحصنوا منه وهم المسلمون، وقسم اتبعوا اغواءه وانقادوا لحيّله ومكره.

الرابعة : الآية تحذير وتنبيه اضافي لمن استعاذ من الشيطان واعرض عن

---

(1) سورة القصص ١٥.

اغوائه، ولمن اتبعه واتبع خطواته.

الخامسة : عداوة الشيطان لا تنتهي باتباعه لانه يستمر بالأغواء والتضليل.

السادسة : الآية انذار لكل الناس وهي حجة للمؤمنين وحجة على الكافرين.

السابعة : تظهر عداوة الشيطان فيما يأمر به كما تبينه الآية التالية.

الثامنة : الشيطان في الآية اعم من ابليس فهو عنوان جامع لأقطاب الشر والضلالة فيشمل مردة الإنس والجن والدواب.

التاسعة : نعت الشيطان بانه ﴿ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أي بين وظاهر العداوة، وفيه اعجاز في الارادة التكوينية والتشريعية فقد تفضل سبحانه وجعل عداوة الشيطان واضحة ظاهرة للجميع ولا تخفى على أحد.

العاشرة : تبقي الآية المسلمين في حيطة ويقظة دائمة لقرب العدو وتهديده الدائم الا انها تدل في الوقت نفسه على ضعفه ووهنه ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1].

□

(1) سورة النساء ٧٦.

قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الآية ١٦٩

الإعراب واللغة

انما: كافة ومكفوفة، ما لا تعلمون: (ما) اسم موصول مفعول به.

لا: نافية، تعلمون: فعل مضارع مرفوع، والواو: فاعل، والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول.

السوء: الفجور والمنكر والفعل القبيح عقلاً وشرعاً.

والفحشاء: تجاوز الحد في الذنوب والمعاصي، وكل شيء تجاوز حده وقدره فهو فاحش.

في سياق الآيات

بعد ان فصلت الآيات السابقة بين منازل الإيمان ومنازل الكفر واخبرت عن حال الخلاف والخصومة والتبرأ بين الكفار يوم القيامة وحذرت من اتباع الشيطان، جاءت هذه الآية بالتفسير والبيان لمنهجية الضلالة التي يتبعها الشيطان لإغواء بني آدم لإتمام الحجة ولما في كل آية من الهداية والرشاد وان كانت انذاراً ووعيداً، وتلك قاعدة كلية سيالة تنبسط على كل آيات القرآن ويمكن ان نطلق عليها اصطلاح (قاعدة الهداية)، ومفادها البحث عن وجوه الهداية والرشاد في كل آية من القرآن.

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ (١) وفيها مسائل :

الأولى : إتحاد موضوع الآيتين إذ جاءت آية البحث بياناً لمصاديق عداوة الشيطان للناس .

الثانية : يفيد الجمع بين الآيتين تفقه الناس في أمور دينهم ودنياهم، ودعوتهم لأخذ الحائطة من عداوة الشيطان .

الثالثة : جاءت آية السياق بأمر ونهي، وتتعلق هذه الآية بالنهي ولزوم عدم إتباع الشيطان، وهل تتعلق بالأمر الوارد في الآية السابقة للناس بالأكل من الطيبات ، الجواب نعم ، لأن التنزه عن إتباع إغواء الشيطان مقدمة للرزق الكريم، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٢)

الرابعة : لقد تضمنت كل من آية البحث والسياق أمراً مع التضاد بين الأمرين من حيث جهة الصدور والموضوع والصبغة والحكم والأثر، فجاءت آيةالسياق بالأمر من الله عز وجل إلى الناس جميعاً بما فيه سعادتهم وإستدامة الحياة بالأكل من الطيبات وصيرورته مقدمة لعبادة الله عز وجل،وأخبرتهذه الآية عن القبح الذاتي والعرضي لما يأمر به الشيطان الرجيم .

---

(١)سورة . البقرة ١٦٨

(٢)سورة . الطلاق ٢

الرابعة : لما أختتمت آية السياق بوصف الشيطان بأنه عدو مبين للناس جميعاً جاءت هذه الآية بالبيان والتفصيل في عداوة الشيطان، وهو من مصاديق قوله تعالى في القرآن ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [١]

الخامسة : من السوء والفحشاء بلحاظ آية البحث أكل الباطل، وترك الحلال الطيب، وإعانة الظالمين في ظلمهم طمعاً بالفتات من المال . ومن القول على الله بغير علم البدعة في التشريع، وذكر مصاديق للحلال أو الحرام خلافاً للشريعة .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ [٢] وفيها مسائل :

الأولى : تجلي أوامر الشيطان للإنسان بالفعل القبيح في الآخرة والجزاء بالعذاب الأليم .

الثانية : الذين يطيعون الشيطان في الدنيا يتبرأ بعضهم من بعض في الآخرة، وهذا التبرأ لا ينجيهم من الخلود في النار .

الثالثة : تجلي الحسرة والندامة يوم القيامة على إتباع الشيطان .

الرابعة : تبرأ الكفار بعضهم من بعض يوم القيامة من رشحات عداوة الشيطان الشديدة لله عز وجل .

الخامسة : أخبرت آية السياق بأن الله يري الكفار أعمالهم حسرات عليهم، ومن هذه الأعمال بلحاظ آية البحث أمور :

الأول : فعل السئات .

---

(١) سورة . النحل ٨٩

(٢) سورة . البقرة ١٦٧

الثاني : إرتكاب الفحشاء .

الثالث : الكذب على الله، والإفتاء في الدين وأحكام الشريعة من غير بينة ولا هدى .

وعن بريدة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمر أمير على جيش أو سرية أوصاه خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال (اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا [1].

وعن علي عليه السلام قال : قال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تكذبوا علي فانه من كذب علي فليلج النار [2].

---

(١) صحيح مسلم ١٣٥/٢.

(٢) الجامع الكبير للسيوطي ١٨٥/١.

وعن ابن عباس مرفوعاً : من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار[1].

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [2] وفيها مسائل :

الأولى : تبين آية البحث مصداقاً للإمتثال لإغواء الشيطان وإتباع خطواته باتخاذ الشرك منهجاً .

الثاني : من فعل السيئات حب أرباب الضلالة والشرك .

الثالثة : بيان قانون ثابت وهو أن الشيطان لا يقدر على إغواء المؤمنين، وأنه في كل زمان أمة مؤمنة معصومة من إتباع الشيطان لقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [3]

الرابعة : في آية السياق شاهد على أن من الناس من يمثل لأوامر الله ويجتنب الشيطان وإغواءه فلا بد من مصاديق للإمتثال للأمر أو النهي الإلهي، فحينما قالت الآية السابقة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ذكرت آية السياق أن الذين آمنوا منقطعون إلى حب الله عز وجل وهم على يقين من أمرهم، وهذا اليقين من مصاديق شدة الحب الذي تذكره آية السياق .

الخامسة : أخبرت آية السياق (أن القوة لله جميعاً) ومع هذا فان الشيطان يأمر في الدنيا بالسوء والفحشاء والكذب على الله . مما يدل على أن

---

(1) مجمع البيان ١٥/١.

(2) سورة . البقرة ١٦٥

(3) سورة . البقرة ١٦٥

الدنيا دار إمتحان وإختبار وأن الأمور بخواتيمها قال تعالى ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [1]

السادسة : أختتمت آية السياق بلغة الإنذار والوعيد (وأن الله شديد العذاب) وفيه تحذير وزجر من إتيان السيئات وفعل المعاصي و الإفتراء على الله عز وجل ونهي عن تحريم الطيبات التي أشارت إليها الآية السابقة، وتحليل المحرمات ومنها الفواحش التي تزينها النفس الأمارة بالسوء .

الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، وفيها وجوه :

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [2] وفيها مسائل :

الأولى : جاءت آية البحث بصيغة الخطاب، أما آية السياق فجاءت بصيغة الغائب مع أنها معطوفة عليها بالحرف الواو في (وإذا قيل لهم) وفي هذا التبيان في لغة الخطاب نكتة وهي أن آية البحث خطاب وتحذير للناس جميعاً ، أما آية السياق فهي إخبار عن حال المشركين الذين يتبعون الهوى وإغواء الشيطان .

الثانية : في الجمع بين آية البحث والسياق بعث للسكينة في نفوس المؤمنين لسلامتهم من إرتكاب السيئات وفعل الفاحشة .

الثالثة : بيان حقيقة وهي أن الضلالة وفعل السيئات لا تختص باتباع الآباء في كفرهم وجحودهم فتشمل الجحود وفعلها إبتداء

---

(1) سورة آل عمران ١٣٧.

(2) سورة البقرة ١٧٠.

الرابعة : دعوة المسلمات للحيطة والحذر من الذي يولد على الكفر ويتلقاه بالقبول والرضا، مع إنذاره بكل من آية البحث والسياق رجاء توبته وصلاحه قال تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (١)

الخامسة : ذكرت آية السياق إنتفاء الهداية عن الآباء الذين إتبعهم أبناؤهم على الكفر والضلالة، فلا يعلمون من أن الشيطان يأمر بالسوء والفحشاء

وجاءت آية البحث لتذكير الناس بهذه الحقيقة، فاذا كان الأب مات على الجحود وفان آية البحث تدعو الابن الموجود إلى الإيمان والرشاد .

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (٢) وفيها مسائل :

الأولى : بين لغة الخطاب في الآيتين عموم وخصوص مطلق، فآية البحث أعم إذ تخاطب الناس جميعاً بينما تخاطب آية السياق المسلمين والمسلمات .

الثانية : نجاة المسلمين من حبائل الشيطان باختيارهم الإيمان، وعجزه عن إغوائهم .

الثالثة : التضاد والتناقض بين الإيمان وبين ما يأمر به الشيطان من السوء والفحشاء .

الرابعة : أمرت آية البحث المسلمين بالشكر لله ،ومن مصاديق الشكر الإحتراز من فعل السوء وإرتكاب المعاصي .

---

(١)سورة . عمران ١٠٤

(٢)سورة . البقرة ١٧٢

الخامسة : شكر المسلمين لله حرب على الشيطان .

السادسة : أكل الطيبات من الرزق الحلال واقية من فعل المنكرات .

السابعة : من عبادة الله التي إشارت إليها آية السياق التنزه عن السوء والفحشاء والعصمة من الكذب على الله عز وجل .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ (١) وفيها مسائل:

الأولى : لقد جاء القرآن ببيان الحلال والحرام، وذكرت آية السياق شطراً من المحرمات ومن السوء الذي يأمر به الشيطان إتيان هذه المحرمات، وأكل الخبائث .

الثانية : لقد فاز المسلمون بالتفقه بأحكام الحلال والحرام بالبيان الوارد في القرآن والسنة.

الثالثة : من القول على الله بغير علم تحليل المحرمات، وقد خفف الله عز وجل عن الناس بأن بينها في القرآن، وحفظ القرآن من التحريف والتبديل وإلى يوم القيامة، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٢)

فان قلت إن آية السياق خطاب للمسلمين، وأن مضامينها معطوفة على الآية السابقة التي تبدأ بالخطاب (يا أيها الذين آمنوا) والجواب جاء الخطاب للمسلمين والمراد الناس جميعاً لعمومات رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ (٣)

---

(١)سورة . البقرة ١٧٣

(٢)سورة . الحجر٩

(٣)سورة . سبأ ٢٨

الرابعة : أختتمت آية البحث بقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ليفيد الجمع بينهما دعوة الكفار وأرباب الذنوب الصغيرة والكبيرة مطلقاً إلى التوبة والإنابة .

اعجاز الآية

تظهر الآية واسع رحمته تعالى وتؤكد بان القرآن جامع للعلوم والأحكام وبه تمام الحجة وتنتقل من الإجمال في آخر الآية السابقة الى البيان والتفصيل ليكون الخطاب القرآني مستغرقاً لجميع مراتب الفعل الإنساني ومدارك الناس.

إبتدأت الآية بأداة الحصر (إنما) لإفادة حقيقة وهي أن الشيطان لا يأمر إلا بما فيه الإضرار بالفرد والجماعة، فيكون إتباعه من الإضرار بالنفس قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]

ومن إعجاز الآية الإخبار بأن كيد الشيطان يتوجه لهم مجتمعين ومتفرقين وهو من مصاديق الإبتلاء في الدنيا، ولكن هذا الإبتلاء ليس مطلقاً، إذ جاء بعده الأنبياء ونزول الكتاب من السماء لتحذير الناس منه وهو الذي صيّر مكر الشيطان والنفس بالأمارة بالسوء وإهياً ، قال تعالى ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [2]

وجاءت الآية بصيغة الأمر (يأمركم) ولا يدل على قيد العلو في الأمر وأن الشيطان أعلى من الإنسان إنما المراد منه التحريض والترغيب وجعل النفس لفعل السيئات طمعاً وشهوة، ومع هذا فالآية تدعو الناس جميعاً إلى

---

(١)سورة . الأعراف ١٦٠

(٢)سورة . النساء ٧٦

الإحتراز من هذا الأمر، وهذه الدعوة تفضحه هذا الأمر وتفقده أثره عند الذي يتدبر بآية البحث .

وأختتمت الآية السابقة بالإخبار عن عداوة الشيطان للناس ثم جاءت هذه الآية ببيان أظهر المصاديق لهذه العداوة لأن فعل السوء والقول على الله بغير علم يقود إلى الخلود في الجحيم .

وتدل الآية على موضوعية أداء الفرائض في قهر الشيطان وأذاه، قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1]

فلم يخل الله عز وجل بين الشيطان والإنسان فاسباب التوقي و لإحتراز من الشيطان تفوق الإحصاء، وهي أقوى في التأثير و الإثر من إغواء الشيطان.

ويمكن تسمية الآية بآية (إنما يأمركم بالسوء) ولم يرد لفظ (إنما يأمركم) في القرآن إلا في هذه الآية .

الآية سلاح

ما في الآية من الاخبار عما يقوم به الشيطان يساعد المسلمين في معرفة همزاته وخطراته واعانة الناس وتحذيرهم منه ومن حيله، والآية مدد سماوي دائم ويبعث في النفس الحيطة والحذر من كيد الشيطان واغوائه.

لما كانت عداوة إبليس غير ظاهرة للناس، جاءت الآية بالتحذير منها، وتنبيه الناس إلى لزوم الحذر من الإغواء والدعوة إلى المنكرات سواء جاءت من نفس الإنسان أو طرو العزم على إتيانها عند تهيئة مقدماتها وإنعدام المانع

(١)سورة .العنكبوت ٤٥

منها، والسوء والفحشاء اسم جامع للرذائل والآثام التي تجلب الحزن للإنسان، وتجعل النفوس تنفر وتحذر منه .

والمراد من الفاحشة هي الفعل الذي يتجاوز الحد ويتعدى السنن وبما يخالف الحكم الشرعي وعن السدي (السوء) : المعصية، (والفحشاء) : (الزنا) ويقال السوء الذي يجب به التعزير في الدنيا ، والفحشاء التي يجب بها الحد [١].

وتبين الآية حقيقة أن الشيطان عدو لكل إنسان حتى الذين يتبعونه ويمتثلون لأمره بفعل السوء وإتيان الفواحش، وهذا العموم من مصاديق لغة الخطاب في الآية السابقة (يا أيها الناس) وفيه نكتة وهي أن الآية تدعو الذي نجا من حبائل الشيطان إلى الثبات على نهج الإيمان، ومن ركب المعاصي إلى التوبة ولإنابة .

وتحث الآية الناس جميعاً على الإقرار بالربوبية لله عز وجل، والإمتناع عن الكذب والإفتراء على الله، وقدمت الآية ذكر السوء والفحشاء لأنه الأكثر إبتلاء ويتعلق بالقول والفعل وفي البيت والسوق والمنتديات ولأنه مقدمة للتعدي بالكذب على الله .

فجاءت الآية لتكون صاحباً للإنسان يذّكره بلزوم التنزه عن فعل السئيات وعدم الركون للعدو المبين وما يأمر به من أسباب الضلالة، ثم أختتمت الآية با لمعصية الأشد وهي القول على الله بغير علم سواء في باب العقائد والتنزيل أو العبادات أو المعاملات أو الأحكام وتكذيب الأنبياء، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [٢]

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي ١٤٢/١.

(٢)سورة . العنكبوت٦٨

مفهوم الآية

الآية بيان لنوع وماهية عداوة الشيطان، وقيامه ابتداء خصوصاً وانه ليس له حرمات يعتدى عليها، لقد اخطأ ابليس في رفضه السجود لآدم عليه السلام، وعلم بمقامه في النار عقوبة على رفضه وعدم امتثاله فاخذ يسعى في كل آن ومكان الى اغواء بني آدم ودفعهم لركوب المعصية والفاحشة، ان ورود الأغواء بصيغة الأمر "يأمركم" يدل على لزوم الحذر منه وعدم الخضوع او الإستجابة له لأن كيده ضعيف، وجاء الخطاب وامر ابليس موجهاً الى الناس، فالآية من عظيم رحمته تعالى لعموم البشر فهي تنبيه وانذار لكل انسان بان يحذر من الشيطان بالإسلام والإلتزام بالفرائض واقية وحرز من شره وكيده ومكره والآية تدعو الى اليقظة والحذر من شياطين الجن وشياطين الإنس والنفس البهيمية والنفس الشهوية وغلبة الهوى ومقدمات الفواحش والشبهات وموارد الذم والقبح الشرعيين، كما تبين الآية جانبا من اسباب خلاف وجحود الكافرين واصرارهم على الضلالة وانكار الرسالة بان الشيطان يدفعهم للإفتراء على الله والتغيير والتبديل بمضامين الكتب المنزلة والأحكام التي جاء بها الأنبياء ومن مفاهيم الآية اجتناب القول في الدين والشريعة من غير علم فلو ترك الناس والآيات وجهاً لوجه لآمنوا واحسنوا اسلامهم، بمعنى ان الشيطان وارباب الكفر يصدونهم عن رؤية الآيات التي جاء بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والتدبر بكنوز القرآن وانكار التنزيل وحده قول على الله بغير علم وتبغض الآية الشيطان الى النفوس وتجعلها تنفر منه وتقرن بينه وبين الفواحش فاذا طرأت مقدمات الفاحشة فان الإنسان ينفر ويبتعد عنها لأنها قرين الشيطان وهو يبغض الشيطان ويحذر منه كما تبين الآية عظيم فضله تعالى على الناس ببعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو يدعو الناس الى العدل والإنصاف وصلة الرحم ومصاديق الإحسان واجتناب الظلم والحيف

مع التقيد بالعبادة شكراً له تعالى على نعمة الخلق والحياة والرزق، فالآية بمفهومها ارشاد للإسلام وانه الطريق السليم الموافق للفطرة وحكم العقل.

الآية لطف

كل آية في القرآن رحمة قائمة بذاتها وباتصالها بالآيات الأخرى تفسيراً وتأويلاً وإتحاداً في الموضوع أو الحكم، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١]

ويتجلى الفضل الإلهي ببيان مصاديق عداوة الشيطان للإنسان بما يعيها الناس جميعاً على إختلاف مشاربهم وتباين مداركهم، وعن الأمام جعفر الصادق عليه السلام عن رجل حلف أن ينحر ولده قال : ذلك من خطوات الشيطان[٢].

وتحذر آية البحث من الغفلة عن ذكر الله ومن الإنشغال بزينة الدنيا واللهث وراء بهجتها حتى يأتي الأجل، قال تعالى ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [٣]

وتدعو الآية إلى مجاهدة النفس، وحبس الجوارح عن مقدمات الشهوات الباطلة، وعدم اللهث وراء زخرف الدنيا .

ومن إعجاز الآية أنها ذكرت الناس بصورة الجمع بدليل قوله تعالى في ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ وعطف الآية على قوله تعالى (يا أيها الناس) بينما جاء ذكر

---

(١)سورة . النساء ٨٣

(٢) تهذيب الأحكام ٢٥٤/٧ .

(٣)سورة . المجادلة ١٩

عدوهم بصيغة المفرد والتعين فلم تقل الآية (يأمروكم) وهذا التباين في صيغة الجمع والمفرد بشارة غلبة الناس على الشيطان ووسواسه .

وجاء ذكر الوجوه القبيحة لما يأمر به باعثاً للسكينة في نفوسهم بقهر عدوهم الشيطان، لأن الله عز وجل جعل النفوس تنفر بالفطرة من فعل السيئات والمعاصي، وفي التنزيل ﴿لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾

وتقسم الخواطر التي تطرأ على الذهن وما يقع على القلب إلى إقسام :

الأول : ما يكون في الخير والصلاح ويسمى (الهاماً) .

الثاني : ما يخطر على الذهن من الشر وارتكاب المعصية وهو (الوسواس والغواية) .

الثالث : الخاطرة التي يكون موضوعها الخوف والوجل مما يقع في قادم الآنات والأيام ويسمى (التوجس) .

الرابع : العزم على فعل الخير وتقدير كيفية الإتيان به وتسمى (نية) .

الخامس : الشوق لتحصيل تحقيق المباحات وتهيئة مقدماتها ويسمى (أملاً) .

السادس : الطمع في أمر صعب ومتعذر ويسمى (أمنية) في التنزيل ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (١)

السابع : التطلع إلى لقاء الله عز وجل، وفيه عمل الصالحات لنيل الثواب العظيم ونسميه في المقام (الرجاء) وقد وردت مادة (رجى) في القرآن إثنتين وعشرين مرة، كلها في القدوم على الله عز وجل، والبعث يوم القيامة، وتلك آية في إعانة العلماء على تعين المصطلحات الكلامية والفقهية

---

(١)سورة . النساء ١٢٠

وموضوعية رحمة الله في هداية الناس، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)

وارتكاب المعاصي والإنقياد للوسوسة والكذب على الله عز وجل خصال القوم الذين ظلموا واستكبروا ولا يأملون يوم الحساب قال تعالى ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢).

الثامن : ما يخطر على القلب من أمور الغيب بلحاظ آيات القرآن وظواهر الآيات الكونية وتعظيم مقام الربوبية بعين الجلال والهيبة واليقين، مشاهدة وكشفاً .

التاسع : الخواطر التي تمر عل البال و تتعلق بالمعصية والكسب والتعب والشقاء في جلب المنافع وتسمى (الهم) وليس من هواجس تطرأ على الذهن إلا ويصلحها الله عز وجل وينساها العبد وينصرف عن موضوعها ولكن الله عز وجل لا ينساها بل هو سبحانه يعلم بها منذ الأزل، في التنزيل ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٣)

فهذه الخواطر مما هو أخفى من السر في ذاتها وسرعة زوالها . وعدم ترجلها بمبرز خارجي، ولكن الله يعلمها وتكون حاضرة عنده دائماً .

جاءت آية البحث لبعث الأذهان للخواطر الحميدة، والسعي في تحصيل الخيرات وإكتناز الحسنات، وحصانة القلب من الهواجس القبيحة والتي تجلب الأذى والخزي، وتدعو إلى طرد خاطرة الشر والإبتعاد عن مقدمات الفعل السيئة .

---

(١)سورة . البقرة ٢١٨

(٢)سورة . الأنعام ١١٠

(٣)سورة . طه ٧

إفاضات الآية

تؤسس هذه الآيات لمدرسة أخلاقية تتقوم بالحيطة والحذر من الجذب إلى الشهوات وبانزواء النفس الغضبية والسبعية وتدعو بالدلالة الإلتزامية إلى الإستجارة بالفرائض والتقرب إلى الله بالطاعات، وكما أعان الله الناس للنصر على الشيطان وحبائله بالوعاء الزماني للفرائض كما في شهر رمضان مثلاً إذ ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين .

وتجلب الآية المودة للإنسان عند الناس إذا إمتثل لأمر الله وأعرض عن أمر الشيطان . قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [1] إن إتباع الشيطان يسبب الكدورة في النفس والخصومة في المجتمعات، لذا جاءت الآية السابقة بالإخبار عن عداوة الشيطان للإنسان بما هو أعم من مصاديق هذه الآية، والآية حرز من غلبة الغضب وعدم إمتلاك اللسان والجوارح . وعن ابن عباس قال، ما كان من يمين أو نذر في غَضَب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين [2].

وتحذر الآية من الجهل والغفلة لأنهما أصل للمعصية، وبرزخ دون التدبر والتفكر في وأسرار الكون، وعلة خلق الإنسان، وتمنع الآية من الندبة السوداء وإتساعها في القلب، وتدفع إلى إنارته بهمة الإيمان والتوقي من السيئات .

---

(١)سورة . مريم ٩٦

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧٩/١.

الصلة بين أول وآخر الآية

تتضمن الآية أفراداً من سعي الشيطان للإضرار بالإنسان، ودلائل على عداوته له وبعد أن أيقن الشيطان بأن مصيره إلى الخلود في النار جزاء لإستكباره وعناده سعى لجر شطر من الناس معه إلى ذات المصير فجاءت الآية لتحذر الناس مجتمعين ومتفرقين من هذا المكر القبيح وإبتدأت الآية بأداة الحصر (إنما) ويحتمل وجوهاً :

الأول : إن كل ما يأمر به الشيطان من القبيح منحصر بهذه الآية .

الثاني : إرادة أصول المواضيع المنكرة التي يأمر بها .

الثالث : كل معصية لا بد وإن تدخل تحت واحد من الثلاثة التي ذكرتها الآية مما يأمر به الشيطان وهي :

الأول : السوء .

الثاني : الفحشاء .

الثالث : القول على الله بغير علم .

الرابع : الحق لإرادة جنس ما يأمر به الشيطان من الأفعال القبيحة وبيان حقيقة وهي أن كل ما يأمر به الشيطان يتصف با لقبح مثل هذه الأفراد الثلاثة المذكورة في الآية، قال تعالى ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [1] [1] فتخويف الشيطان للناس من الفقر والفاقة لم يذكر في آية البحث . ولا تعارض بين هذه الوجوه .

ومن الإعجاز في الآية الكريمة أن كلاً من السوء والفحشاء سور جامع لمصاديق كثيرة ، وهل القول على الله بغير علم بذات المعنى أم أنه خاص

---

[1] سورة . ٢٦٨

بموضوع واحد . الجواب هو الأول . فليس من حصر لصيغ الكفر والجحود والعناد والإصرار على الباطل .

وتبين الآية اللطف الإلهي بالناس وتقريبهم إلى منازل الطاعة، وأن الله سبحانه لا يرضى لأي أحد منهم فعل الفواحش فحذرهم من عداوة الشيطان، أي أن الله عز وجل أراد لهم الجنة ونهاهم عن طرق الغواية التي تؤدي إلى النار . وتبين الآية أن العداوة للإنسان تتقوم بدفعه عن منازل التقوى .

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : تأكيد قانون كلي وهو أن الدنيا دار إمتحان يبتلى فيها الإنسان بدعوة الشيطان إلى الشر، ودعوة الصالحين إلى فعل الخيرات بالدعوة و الدعوة .

الثانية : وجوب قهر النفس الشهوية بالتقيد بأداء الفرائض التي هي حرز من الشيطان وإغوائه .

الثالثة : الآية رحمة من عند الله بالناس جميعاً بتعيين عدوهم .

الرابعة : دعوة المسلمين إلى عدم الإستخفاف بالشيطان وكيده، بدليل أنها ذكرت إيهامه وإضلاله بصيغة الأمر (يأمركم) .

الخامسة : اليأس من هداية الشيطان أو تغيير فعله القبيح إلى ضده من الصلاح .

السادسة : رأفة الله بالناس، فلم ينحصر موضوع ذكر الشيطان بعداوته الشديدة للناس .

السابعة : بيان قانون كلي، وهو أن الشيطان لا يحث ويرغب الناس إلا بالقبيح وما فيه العقوبة .

الثامنة : دعوة الناس جميعاً للحيطة والحذر من القول على الله بغير علم.

وفيه آية إعجازية وهو ما عند المسلمين وأتباع النار من العلوم والأحكام كافية لأمور الدين والدنيا، فلا تصل إلنوبة إلى التجرأ في الحكم الشرعي والبدعة التي هي من مصاديق القول على الله بغير علم، قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

التاسعة : دعوة الناس للتحدي وفضح من يفتري على الله الكذب، لأن عداوة إبليس لهم جميعاً، ولأن الآية تخاطبهم مجتمعين ومتفرقين، ومن عداوة إبليس سعيه لإفساد الفرد كي يضر الجماعة.

العاشرة : مثلما يكون إبليس عدواً للناس فأنه عدو لله عز وجل ومن يتبع الشيطان ينال سخط الله، وفي التنزيل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [2]

الحادية عشرة : دعوة الأسرة المسلمة وغيرها إلى الإلتفات لغواية الشيطان والحذر منها والتنزه عن السبل التي ينفذ بواسطتها، ليكون الإنسان في جهاد مع النفس والعدو في بيته ومحل عمله ومواضع وجوده مطلقاً وفي السفر والحضر .

الثانية عشرة : دعوة الناس إلى الإحتراز من أمر إبليس بالسوء بأمر الأب لأبنه بتقوى الله . ودعوة الأم لا بنتها بالعفة، وحثهم على المسارعة في

---

(١)سورة . النحل ٨٩

(٢)سورة . البقرة ٩٨

الخيرات واللجوء إلى الإستغفار ، فلا يبقى موضوع لأمر الشيطان أو طريق يدخل منه إلى الناس.

الثالثة عشرة : تحتمل الآية وجوهاً:

الأول : توجه إغواء إبليس إلى الناس بعنوان العموم المجموعي وأن إغواء الشيطان يقع على شطر منهم .

الثاني : إرادة تحذير الناس وهو أعم من نوع أمر الشيطان لكل فرد منهم، فيصدق على أمرهم لفريق منهم بأنه أمر للناس .

الثالث : التفصيل، فمن الناس من يأمره الشيطان بالسوء، ومنهم بالفحشاء.وأخرون يأمرهم بالقول على الله بغير علم ومنهم من يأمره بكل هذه الأفراد وبمراتب متفاوتة ومتدرجة .

الرابع : سعي الشيطان لفتنة الناس على نحو العموم الإستغراقي فكل واحد من الناس يتوجه له الشيطان بوسوسته .

والصحيح هو الثالث والرابع للغة الإطلاق والعموم في آية البحث ولأن الدنيا دار إمتحان وإبتلاء .

التفسير

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ ﴾

الأولى : توكيد لعداوة ابليس للناس وانه يحاول ان يوجه امره الى كل انسان ويسعى في غواية الناس على نحو الإجتماع والتفرق واضلال الجماعة بل الأمة وان عجز فيتوجه الى الأفراد.

الثانية : اضلال الشيطان ودعوته للفحشاء عامة ومطلقة لكل انسان وتشمل مطلقاً وجوه الفاحشة، في سعي خبيث منه لنيل ما يستطيع من الجنود والأتباع.

الثالثة : اصطلاحات العموم شاملة لموضوع الأغواء فالشيطان يسعى ليكون اغواؤه على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي والبدلي.

الرابعة : من عداوته واضلاله شيوع الأفكار الظلمانية والعقائد الفاسدة ومناهج الكفر والجحود والخطط الهادفة الى اضعاف الدين.

الخامسة : أصل السوء ما يكره ويستعمل لفظاً وفعلاً مما صاحبه لقبحه او لسوء عاقبته، ويعرف المراد من اللفظ بحسب القرائن تقديراً، ومنه الخيانة او الخصلة القبيحة ونحوها، والشيطان يدعو الى المعصية ومقدماتها ويحاول استدراج الإنسان الى ما يسوءه ويضره.

السادسة : هل ينحصر السوء بالفعل، الجواب: انه اعم ويشمل القول وهو احد وجوه العمل وموضوع للحساب ويترتب عليه الثواب والعقاب، وقد يكون القول بذاته سوء ومعصية وقد يكون مقدمة للمعصية، او هما معاً، لذا فان في قول السوء اتباعاً لخطوات الشيطان.

السابعة : من السوء الجحود برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتحريف الكتاب واخفاء البشارات بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم.

الثامنة : الآية تحذير وتنبيه من خطرات الشيطان وتحريضه على الفواحش.

التاسعة : لغة الخطاب في الآية عامة وجاءت على نحو العموم الإستغراقي فتشمل المسلمين انطباقاً ولكن المائز والفارق يحصل بالكم والكيف.

العاشرة : الأمر اعم من الإستجابة فانت ترى اسباب الحصانة عند المسلمين بالإستعاذة وقراءة القرآن والتوكل على الله عز وجل والتمسك باحكام القرآن.

الحادية عشرة : الأمر هو طلب الفعل من الغير على جهة الإستعلاء

وعلى سبيل الجزم، فهل الشيطان اعلى مرتبة من الإنسان خصوصاً وان الآية لم ترد بصيغة السؤال او الطلب من المماثل، او ان الأمر الوارد في الآية خارج بالتخصص عن المعنى الإصطلاحي أم انه يدخل ضمنه ولكنه جهتي ومحدود وليس مطلقاً، الجواب: هو الثاني وان المراد منه النسبة الطلبية، فقد سلط الله عز وجل الشيطان على بني آدم في محاولة اغوائهم كجزء من ابتلائهم في الحياة الدنيا.

الثانية عشرة : الأمر ينقسم الى قسمين بلحاظ نسبة البعث، فالأمر الحقيقي هو جعل الداعي في نفس المخاطب لتوجيهه للإمتثال واتيان مضمون الأمر، والمجازي ومنه امر الشيطان الذي جاء على نحو الإستعارة ويكون الداعي له التضليل والأغواء وحمل المخاطب على الإضرار بنفسه.

الثالثة عشرة : اصل الأمر تعريف للغير بان اتيان المأمور به يستلزم المدح وان تركه يجعله مستحقاً للذم، بينما امر الشيطان يجعل من يمتثل له يستحق الذم حتى من الشيطان نفسه.

الرابعة عشرة : (انما) تفيد الحصر، أي ان ابليس لا يأمر الا بالشر او بمقدماته، فالآية وان ذكرت وجوه الشر التي يأمر بها ابليس ظاهرة وصريحة الا ان ذلك لا يمنع من قصدها غاية وتترشح على مقدماتها ايضاً، وجعل بعض كبار المفسرين تحريضه للانسان على العبادة الشاقة والصدقة بجمع امواله والتشديد على النفس ليسبب له ولعياله وورثته الضيق والعسر، ولكن مثل هذه الصورة يخلفها الله خيراً فهو سبحانه لا يضيع اجر المحسنين، ومع ما فيها من التشديد على النفس والاذى فان نسبتها الى تحريض واغواء الشيطان أمر مستبعد ويحتاج الى دليل، فقد يرد على ابليس من هذا الفعل اكثر أذى ويسبب له الحسرة.

قوله تعالى ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾

الأول : وهو عبارة عن التعدي وتجاوز الحد وعدم موافقة الحق.

الثاني : عن ابن عباس: ان الفحشاء ما فيه حد، وقيل: انه الزنا.

الثالث : باجتماع السوء والفحشاء يبدو الموضوع واضحاً معلوماً لكل ذي عقل، وان الشيطان يدعو لكل قبيح وما فيه غضب الله عز وجل سواء كان فيه حد او ليس فيه حد، منهي عنه بذاته أم انه مقدمة للحرام، ضرره عاجل او آجل، كان الأذى فيه على النفس أم على الغير، وتقع المخالفة في العبادات ام المعاملات.

الرابع : الآية سلاح ضد الشيطان واحتراز وتنبيه من كيده.

الخامس : اذا مالت النفس الى السوء او الفحشاء علم الإنسان ان ذلك من اغواء الشيطان وانه تجب مخالفته وهذه المعرفة جزء ومصداق للرحمة الإلهية العامة المتوجهة الى الناس جميعاً بلحاظ ما ورد في الآية السابقة ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾، وقد ورد في التنزيل ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾[1].

السادس : ان امره ووسوسته ودعوته الخفية ومحاولاته اغراء الإنسان وتهييج الغريزة والشهوة والبهيمية عنده تندرج ضمن عدائه لبني آدم عامة وللمؤمن خاصة.

قوله تعالى ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

الأول : الآية نهي عن التنكر للإسلام والكتب المنزلة ومحاولة تأويل الآيات بغير الحق لذا فان معنى الشيطان اعم من ان ينحصر بإبليس بل

---

(١) سورة يوسف ٥٣.

يشمل شياطين الإنس واغوائهم للناس.

الثاني : ان الشيطان يسعى في تنظيم جيش لمحاربة الحق والهدى بالمقالات الباطلة ودعوى الند والولد لله عز وجل.

الثالث : تمنع الآية القول بغير علم مطلقاً لما فيه من الفساد وما يترتب عليه من الاضرار.

الرابع : الآية تحذير من المذاهب الفاسدة والمقالات الباطلة.

الخامس : قال الرازي ان الآية تتناول مقلد الحق لأنه وان كان مقلداً للحق لكنه قال ما لا يعلمه فصار مستحقاً للذم لإندراجه تحت الذم في الآية(١)، ولكن تقليد الحق بما هو حق يخرجه من الجهل قهراً بالإضافة الى قصد العبادة فيه، وقد يراه المكلف انسب الطرق باللجوء الى مرجع التقليد والثقة، وهذا الذم للمقلد لا يخلو من التشديد على النفس المنهي عنه ولا اقل انه يبتعد عن روح السماحة في الشريعة والتخفيف، كما ان الرازي نفسه ذكر بالسطر الذي سبق هذه العبارة: "واما ان يجره – أي الشيطان– من الفاضل الأسهل الى الأفضل الأشق ليصير ازدياده المشقة سبباً لحصول النفرة عن الطاعة بالكلية".

بالإضافة الى ان التقليد يعني المحاكاة في الإمتثال بعد الوثوق به، وقد روى المسلمون احرام علي عليه السلام عندما جاء من الحج بمثل ما احرم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

بحث اصولي

العبادة ملازمة للإنسان في وجوده على الأرض بل هي اشرف اعماله واكثرها بهجة، وهي في الإصطلاح كل فعل لا يؤتى به الا بنية الخشوع

---

(١) مفاتيح الغيب ٥/٥.

والتذلل لله وتعظيمه والإمتثال لأوامره، وتعتبر عقلاً وشرعاً ضرباً من الشكر وتتجسد بالتكاليف العبادية الخمسة ز

واخذت العبادة في السمو والإرتقاء في كيفياتها وشرائطها باتجاه الثبات والدوام في الأرض باحسن وجوهها يتجلى فيها تمام الخضوع لله عز وجل وتمجيده والتقيد باحكام الشريعة، وبعد ان كانت على نحو العام البدلي بتعاقب الأنبياء مع نفر من اتباعهم، بدليل ان الضلالة والإغواء تسربا الى نفس قابيل ابن آدم عليه السلام فقتل اخاه فكان اول قتل على الأرض، اصبحت العبادة بنزول القرآن وبالإسلام على نحو العموم الإستيعابي الإستغراقي أي بشموله دفعة لعموم المسلمين في احكام الحلال والحرام، وكان من الضروري اتخاذ الطريق المناسب في مسالك العبادة وصيغ الطاعة لدرك الواقع ويمكن الإستدلال عليه كتابا وسنة.

والتقليد لغة الإلزام والتولية يقال قلده قلادة، وهو في الإصطلاح رجوع العامي في اعماله الشرعية الى المجتهد وفتاواه كأنه يجعل ما يؤديه ويعتقده قلادة في عنق من قلده، والعامي هنا هو المقلد - بكسر اللام - وان كان افضل اهل زمانه واعلم من المفتي في ابواب اخرى من العلوم التي لا تصلح مقدمة او موضوعاً للإفتاء او تصلح ولكن على نحو الموجبة الجزئية.

ولا حاجة للتقليد في اليقينيات والضروريات ونحوها من الإعتقادات الجازمة كوجوب الصلاة والصوم بل ان مورد التقليد هو تعذر اليقين والضرورة والحاجة معه الى حجة معتبرة فيرجع الى التقليد في الخصوصية او الكيفية والمحمول مع تفويض امر الحجة والبينة الى المُقلَد بعد الوثوق به وبعلمه وقدرته على الإستنباط، فكما يتحمل الإمام في الصلاة القراءة عن المأموم كذلك يتحمل المجتهد الرجوع الى الدليل وصحة الفتوى والمستند على القول به .

اما الإجتهاد فهو في اللغة بذل الوسع ومنه الدعاء "وعزتك بلغ مجهودي" وفي الإصطلاح له معنيان: احدهما متعارف عند الفقهاء القدماء، والآخر عند المتأخرين ومن جاء بعدهم فالأول يعني البدلية عن النص عند غيابه أي الرجوع الى العقل والرأي ليصبح الإجتهاد مصدراً من مصادر الحكم الشرعي والفتوى ومنه مدرسة الرأي.

وقد ورد ذم للإجتهاد بهذا المعنى في الاخبار وعلى لسان كثير من الفقهاء المتقدمين منهم المفيد (٣٣٦ – ٤١٣) هجرية، والسيد المرتضى (٣٥٥ – ٤٣٦) هجرية، وقال في الذريعة: "ان الإجتهاد باطل، وان الإمامية لا يجوز عندهم العمل بالظن ولا الرأي ولا الإجتهاد".

والشيخ الطوسي (٣٨٥ – ٤٦٠) هجرية الذي قال: "أما القياس والإجتهاد فعندنا انهما ليسا بدليلين، بل محظور في الشريعة استعمالهما".

اما المعنى الثاني الذي فهو اصطلاح مستحدث في استقرائه واطلق على استفراغ الوسع لتحصيل الحجة على الحكم أي انه اصبح عنواناً لوظيفة الفقيه في استخراج الحكم الشرعي من ادلته وليس هو مصدراً مستقلاً، ومن هنا تبرز اهمية علم الأصول لما يتضمنه من القواعد والعناصر المشتركة في عملية الإستنباط والتي تقع في طريقه.

واصبحت الرسالة العملية وبيان الأحكام مادة شرعية وعرفية يومية لا يمكن الإستغناء عنها فهي طريق مبارك لبيان الأحكام بعهدة الفقيه الجامع للشرائط وقرين فقهي ضامن وسبيل رشاد كريم الى النجاة، وهو مستعد لبيان الدليل والإحتجاج به خصوصاً ان المقلدين في هذا الزمان على درجة لا بأس بها من الثقافة العامة ومنها الفقهية فيكون ذكر الدليل او السؤال عنه مرقاة في الواقع الفقهي النوعي العام وعلى نحو القضية الشخصية بأن يشفي غليل المؤمن ومن يريد ما هو اكثر من الحكم والفتوى.

وقد ذكرت الدليل في بعض مسائل رسالتي العملية وعلى نحو موجز ومقتضب مع لحاظ صيغ التخفيف ضمن القواعد الشرعية والضوابط الفقهية ولعل فيه خروجاً عن الإزدياد المطرد في هذا الزمان لموارد الإحتياط، ووجوه الجمع بين البدل والمبدل عنه كما في الجمع بين الوضوء والتيمم، او بين الوظيفتين الإختيارية والطارئة او الإضطرارية كما في الجمع بين التمام والقصر في الصلاة ، وما في هذا الجمع من صبغة التشديد .

نعم سيأتي اولئك العاملون بالإحتياطات الكثيرة يوم القيامة في استبشار ورايات نجاة وامان لأن الأخذ بالأحوط من مصاديق التقوى، من هنا تبدو اهميته ولكن موضوعيته لا تتعارض مع الحاجة الى التفكيك بين الوظيفتين حسب الأصول وسماحة الشريعة اذ يجب ان يحتل التخفيف موضعاً مهماً من غايات الفقيه باعتباره حزء منصوصاً من عمله وثمرة من ثمار تحصيله، وفي الخبر عن الصادق عليه السلام انه قال: "ما اعاد الصلاة فقيه قط، يحتال لها ويديرها حتى لا يعيدها"، وخرج منه بالمخصص او التخصيص ما جاء به النص من الشكوك ونحوها مما لا يمكن علاجه وتداركه الا بالإعادة.

تلك الحالات العلاجية وفروع القواعد الإمتنانية يجب ان تترشح على المسلمين بواسطة الفتوى والبيان لتكون آلة ارفاق مشروع ونوع تدارك وتحصيل الفراغ، فمن حقهم ان ينهلوا من فيض علوم من يرجعون اليه بكيفية وصيغ الأفعال العبادية كمقلدين له أو مأمومين باعتباره اصبح مؤهلاً لتحصيل الحجة على معظم الأحكام عن ملكة استنباط، والإفتاء في المسائل الإبتلائية فيأخذ أتباعه بقوله في الفرعيات من غير ان يطالب بالدليل، ولتهجم على مواطن الشك والتردد في النفوس والإنفعال وتقضي والى الإبد على مرتكزات الوسواس وتبعث في النفوس

الإطمئنان والغبطة والأمل في رحاب الرسائل العملية.

والفتوى الصائبة عون في التصدي لأغواء الشيطان وهي من الطرق العقلائية التي تحول دون القول على الله بغير علم، مع التحذير من التمادي في التخفيف او قل التخفيف الذي لا يستند الى الدليل والذي يمكن اعتباره تفريطاً وتضييعاً وعندئذ فالإحتياط مقدم عليه، ولا يمكن لمثل هذا التخفيف ان يرى النور مع غياب الدليل ووجود العلماء العاملين واهل البصائر من المؤمنين كمصداق لتعاهده تعالى لهذا الدين وتفضله بحفظه.

ولا يمنع هذا من القول بحاجة الفقيه الى الورع والفطنة والحذر من اعطاء الأولوية لزيادة الأتباع وكثرة المقلدين من خلال اختيار كل ما فيه تخفيف وتيسير، فالمدار على الحجية والدليل.

بحث فقهي

الأول : موضوع التقليد الأحكام الفرعية العملية مما له اثر شرعي، فلا يجري التقليد في اصول الدين ومسائل اصول الفقه ولا في علوم العربية من النحو والصرف والبلاغة ونحوها، والأمور العرفية، والموضوعات الصرفة، فلو تردد المقلد في طهارة شيء كالثوب او ان نجاسة اصابته فليس عليه تقليد مرجعه فيه، نعم يقبل قول المرجع على انه مخبر ثقة عادل.

الثاني : يتعلق التقليد بكيفية اداء التكاليف العبادية الخمس وخصوصياتها وهي الواجبات والمحرمات والمندوبات والمكروهات والمباحات، وكذا المعاملات التي لا تحتاج في تقومها الى قصد القربة كحيازة المباحات والأطعمة والأشربة، والعقود كالبيع والإجارة والنكاح، والإيقاعات كالطلاق والإقرار مما يتم وفق احكام الكتاب والسنة النبوية الشريفة.

الثالث : العدالة شرط في الفتيا والقضاء وهي ملكة اتيان الواجبات، وترك المحرمات والإصرار على الصغائر ومنافيات المروءة ويكفي منها حسن الظاهر والسيرة، وتثبت العدالة بالعلم والإختبار وشهادة عدلين والشياع المفيد للإطمئنان بل يكفي فيها مطلق الثقة لأنها من الموضوعات ولا يعتبر في البينة او الثقة ان يكون من اهل الخبرة.

الرابع : يجوز للمكلف اختيار الاحتياط طريقاً لتحصيل الامتثال وهو اتيان الفعل المكلف به على نحو يحرز فيه ادراك الواقع وهو جائز وان استلزم التكرار وتعدد الوجوه المحتملة للتكليف سعياً لافراغ الذمة بشرط ان لا يكون ناتجاً عن الوسواس ولا موجباً للحرج او اختلال النظام، لذا قد تكون معرفة موارد الإحتياط متعسرة في الغالب على عامة الناس، وهذا العسر احد المقدمات التي تبين الحاجة والتيسير في التقليد.

الخامس : لا تقليد في الضروريات كوجوب الصلاة والحج والصوم، ولا في اليقينيات اذا حصل له اليقين الذي هو عبارة عن اعتقاد جازم ثابت مطابق للواقع فلا تصل النوبة الى الإجتهاد او التقليد الذي هو نوع طريق لاتيان الفعل العبادي.

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ الآية ١٧٠

الإعراب واللغة

واذا: الواو استئنافية، اذا: ظرف للزمان متعلق بـ(قالوا).

قيل: فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو او هم.

ما انزل الله: ما: اسم موصول في محل نصب مفعول به.

انزل الله: فعل وفاعل والجملة صلة الاسم الموصول (ما).

بل: حرف اضراب وعطف.

أو لو: الهمزة للإستفهام الإنكاري، والواو: حرف عطف وقيل حالية، لو: شرطية لا تحتاج الى جواب.

وألف الشيء: اذا وجده ولزمه وآنسه.

في سياق الآيات

تبين الآية وحدة الموضوع في هذه الآيات، فبعد الخطاب العام جاءت هذه الآية لتذم الكفار وتبين وجهاً من وجوه اتباع خطوات الشيطان ولو بالواسطة.

الأول : صلة هذه الآية با لآية السابقة ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ [1] وفيها وفيها مسائل :

الأولى : الإتصال الموضوعي بين الآيتين، وإرادة ذم إتباع الهوى، والإصرار على الجحود .

الثانية : جاءت آية السياق ببيان قبح ما يأمر به الشيطان وجاءت هذه الآية لبيان فعل مذموم لأتباعه .

الثالثة : تضمنت الآية السابقة ذكر ثلاثة وجوه من المنكرات التي يأمر بها الشيطان وهي :

الأول : السوء والمعصية .

الثاني : الفحشاء والكبائر من الذنوب والإجهار بها .

الثالث : الإفتراء على الله عز وجل في باب الأحكام والسنن، وأخبرت آية البحث عن إصرار الكفار على ملة الضلالة التي ورثوها من آبائهم مع مجئ المعجزات، وهذا الإصرار من أي من الوجوه لثلاثة أعلاه الجواب إنه منها جميعاً فقولهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من القول على الله بغير علم،

---

[1] سورة . البقرة ١٦٩

ويترشح عنه إرتكاب المحرمات، قال تعالى ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١)

الرابعة : أختتمت آية البحث في ذم الآباء الكفار وأنهم لا يهتدون، وعدم الهداية من الضلالة والغواية وفتنة الشيطان والنفس الأمارة بالسوء .

الخامسة : تضمنت آية البحث ذم الكفار بأنهم لا يعقلون، والجهالة والغفلة من السبل التي ينفذ منها الشيطان إلى إغواء الإنسان .

السادسة : يفيد الجمع بين الآيتين دعوة الناس إلى التدبر بآيات التنزيل ومعجزات الأنبياء، قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢)

السابعة : توظيف العقل في أداء الواجبات العبادية وفي محاربة الشيطان، والتوقي من حبائله .

الثامنة : صحيح أن آية السياق بينت ما يأمر به الشيطان من السيئات ولكن آية البحث أخبرت بعدم التخلية بين الإنسان وأسباب الغواية، بدليل قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾فلا بد من توجه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للناس بما فيهم الكفار، وفيه دلالة على قانون مستديم هو صيرورة كيد الشيطان ضعيفاً بفضل الله على الناس وصدهم .

الثاني : الصلة بين هذه الآية وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾ (٣) وفيها مسائل :

---

(١)سورة . البقرة ٢٢٩

(٢)سورة . النور ٦١

(٣)سورة . البقرة ١٦٨

الأولى : جاءت آية البحث بصيغة الجملة الخبرية أما آية السياق فهي بصيغة الإنشاء ولغة الأمر والنهي .

الثانية : لما حذرت آية السياق من إتباع خطوات الشيطان أخبرت آية البحث بأن فريقاً من الناس ضلوا باتباع الغواية وركوب جادة العناد .

الثالثة : إتباع ما أنزل الله من الشكر لله عز وجل على نعمة أكل الحلال المستطاب.

الرابعة : بيان جهاد المسلمين في كل زمان في سبيل الله بدعوتهم الناس للإيمان بالتنزيل ومحاربة الشيطان .

الخامسة : لما أخبرت آية السياق عن عداوة الشيطان للناس (إنه عدو مبين) أخبرت آية البحث عن أثر من آثار هذه العداوة باصرار الكافر على الإقامة على حال الكفر والضلالة التي كان عليها أبوه .

السادسة : إتباع الأب الكافر في كفره من مصاديق قوله تعالى ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (١)

السابعة : بيان رحمة الله بالناس ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ يدعوهم القرآن إلى أكل الطيبات وإلى إجتناب الشهوات والبغي وإستحواذ النفس الغضبية .

الثامنة : من خطوات الشيطان قول فريق من الكفار ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (٢)

---

(١)سورة . الأنعام ١١٢

(٢)سورة . البقرة ١٧٠

فجاءت آية البحث لتحذير الناس من هذا القول، لذا وردت بلغة الإجمال وعدم التعين ليتعظ غيرهم من الناس ويتجنبوا محاكاتهم في هذا القول وإن كانوا متحدين معهم في مغادرة الأب الدنيا على الكفر .

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ [1] وفيها مسائل :

الأولى : إبتدأت كل من الآية بقول مع التباين بينهما . إذ يتصف القول في آية البحث بأمور :

الأول : إنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الثاني : عدم تعيين القائل إذ جاءت الآية بصيغة المبني للمجهول (قيل) .

الثالث : الإخبار عن وقوع القول في الزمن الماضي وإبتداء الآية بالعطف على الآية السابقة (وإذا)

الرابع : وقوع القول في الحياة الدنيا .

الخامس : توجه القول إلى القوم الكافرين بما فيه وعظهم وإنذارهم .

السادس : مجئ القول بلغة الخطاب لجمع المذكر وإرادة الذكور ولأناث من الكفار .

السابع : مجئ الإجابة بلفظ (قالوا) وبما يفيد الإصرار على الجحود .

ويتصف القول في آية السياق بأمور :

الأول : مجئ القول بصيغة الفعل الماضي المبني للعلوم (وقال) .

الثاني : عطف القول على مضامين الآية السابقة بحرف العطف الواو

---

(1) سورة . البقرة ١٦٧

الثالث : وقوع القول في عالم الآخرة .

الرابع : صدور القول من فريق من أهل النار كانوا تابعين لرؤساء الكفر والضلالة .

الخامس : عدم جلب المنفعة أو دوفع الضرر والعذاب عن الكفار برغبتهم بالتبرأ من أسيادهم وأمرائهم .

السادس : مجئ القول على نحو التمني (لو أن لنا كرة) أي أنهم يائسون من العودة إلى الدنيا .

الثانية : مع أن موضوع آية البحث يتعلق بالحياة الدنيا فقد إبتدأت بصيغة الظرف المضارع (وإذا) ، بينما جاء موضوع آية السياق بخصوص عالم الآخرة ومع هذا ورد الكلام فيها بصيغة الماضي لإرادة القطع والتحقيق .

الثالثة : الأخذ بالنصيحة الواردة في آية البحث باتباع التنزيل واقية من دخول النار .

الرابعة : حينما يندم الكفار يوم القيامة، ويتمنون العودة إلى الدنيا يأتيهم الإحتجاج من عند الله بأنه قد قيل لهم باتباع التنزيل ونبذ الكفر .

وأخرج عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا ذنت من وجوههم شوت وجوههم ، وإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيدعون خزنة

جهنم إن ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ فيقولون ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[1][2].

الخامسة : الذين يصرون على إتباع آبائهم في الكفر والضلالة تكون عاقبتهم في الآخرة تبرأ بعضهم من بعض مع إستمرار العذاب عليهم .

السادسة : مضامين خاتمة آية السياق عاقبة للذين ذكروا في خاتمة آية البحث إذ ورد فيها ذم للذين ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وخاتمة آية السياق هي ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

السابعة : تعلقت آية البحث بالكفار الذين ورثبين الشرك والضلالة من آبائهم . أما موضوع آية السياق فهو التبرأ يوم القيامة التابع والمتبوع في الكفر، فهل يشمل تبرأ الأبناء من آبائهم الكفار لأنهم إتبعوهم في الكفر الجواب إن هذا التبرأ أمر حاصل ولكن القدر الميتفن من آية السياق هو التبعيه الآنية في إرتكاب المفاسد بين الآمر والمأمور من الكفار، وقد يكون الأب آمراً ورئيساً في الكفار والابن تابعاً له في الظلم والتعدي وقد يكون العكس .

الثامنة : ذكرت آية البحث رؤية الكفار العذاب يوم القيامة، أما آية البحث فانها تحذر وتنذر من هذا العذاب، وتدعوالناس إلى التوقي والنجاة منه بالتصديق بالتنزيل ومعجزات الأنبياء .

الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ [1] وفيها مسائل :

([1])سورة . غافر ٥٠

([2]) الدر المنثور ٢٢٧/٧.

الأولى : إصرار الكفار على نهج الضلالة لا يكون حاجباً دون مجئ الوعظ وأسباب الهداية لهم .

الثانية : بيان أضرار الكفر على صاحبه في الآخرة بالخلود في النار، وتمني العودة إلى الدنيا مع الإقرار باستحالته وعدم تحققه، قال تعالى ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢)

الثالثة : جاءت آية البحث بالقول و الإحتجاج على الكفار، أما آية السياق فوردت بصيغة المثال القريب من الناس .

الرابعة : إنعدام وجود المستمع لدعوة الكفار التي هي كصوت زجر الغنم والصياح عليها، وفيه إشارة إلى إفتضاح بطلانها، بينما أخبرت آية البحث عن لزوم التصديق بالقرآن وإتباع التنزيل لانه حق وصدق .

الخامسة : لما نعت آية البحث الكفار بأنهم لا يفقهون شياً ولا يتدبرون في الحقائق ذكرت آية السياق وصفاً آخر ومصداقاً لهذا النعت وهو أنهم لا يسمعون ولا يتكلمون وعن الحق معرضون .

الثاني : الصلة بين آية البحث ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾ (٣) وفيها مسائل :

الأولى : بيان رحمة الله بالنار بتوالي التنزيل ومجئ الآيات من عند الله وتفضله بالوحي إلى الأنبياء .

الثانية : كتمان التنزيل وإخفاء بشارات لم يمنع من الدعوة إلى الأيمان والإقرار بالآيات، وتلك آية في فلسفة الإبتلاء في الحياة الدنيا التي تتقوم

---

(١)سورة . البقرة ١٧١

(٢)سورة . البقرة ٢١٠

(٣)سورة . البقرة ١٧٤

بهداية الناس إلى منازل الإيمان، وتقريبهم من سبل الهداية، وإبلاغهم بوظائفهم العبادية .

الثالثة : إن الذين يكتمون التنزيل لا يضرون إلا أنفسهم، لأن الدعوة إلى التصديق به تأتي إلى الناس جميعاً بدليل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ [1]

الرابعة : النسبة بين الكفار والذين يتلون آيات التنزيل هي العموم والخصوص المطلق، فالكفار الذين ذكرتهم آية البحث أعم وأكثر.

الخامسة : كل من الآيتين تتضمن الإنذار والوعيد .

الثالث : الصلة بين آية البحث وقوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ [2] وفيها مسائل :

الأولى : إتحاد الموضوع في الآيتين من جهة إستحقاق الكفار للندم لإختيارهم متاع الدنيا عوضاً وبدلاً عن الثواب العظيم في الآخرة .

الثانية : مع أن آية السياق تتعلق بأهل الآية السابقة لها الذين يخفون التنزيل فانها تنطبق من جهة الدلالة والأثر على أهل آية البحث وإصرار الكفار على إتباع سنة آبائهم في الشرك.

الثالثة : الذي تأتيه الدعوة باتباع التنزيل ويبقى مصراً على الإنقياد لمفاهيم الضلالة التي كان عليها أبوه يصدق عليه أنه إشترى الضلالة بالهدى.

الرابعة : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله إشتروا الضلالة بالهدى .

---

(1) سورة .البقرة ١١

(2) سورة . البقرة ١٧٥

الثاني : وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله اشتروا العذاب بالمغفرة .

الثالث : قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا اشتروا الضلالة بالهدى .

الرابع : قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءن في أصبرهم على النار.

الخامس : او لو كان آباؤهم لا يعقلون شياً ولا يهتدون فما أصبرهم على النار.

الخامسة : بيان سوء عاقبة المكذبين بالآيات وما سوف يلاقون من العذاب الأليم يوم القيامة.

السادسة : دعوة الناس جمعياً للتدبر والتفكر بالآيات وإختبار الذي هو واجب كل مكلف .

السابعة : مع أن آية البحث دعوة للإيمان، وحث على التصديق بالتنزيل إلا أنها تتضمن بلحاظ آية السياق الوعيد والتخويف بشدة العذاب يوم القيامة على الإمتناع عن التصديق بالكتب السماوية النازلة من عند الله وما فيها من أسباب الهداية والصلاح .

الثامنة : ذكرت آية البحث الدعوة إلى الإيمان (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله) وهو من الهدى وأسباب المغفرة التي ذكرتها آية السياق .

التاسعة : إتباع التنزيل والتجافي عن سنة الآباء الكفار نجاة من النار .

اعجاز الآية

تعتمد الآية اسلوب المخاطبة لبيان الحجة وتوبيخ الكفار واسقاط ما في ايديهم، وكيف ان الكافر يكون سبباً لذم أبيه اذا كان قد ورث عنه الكفر والضلالة وتكشف الآية عن بعض وجوه وأسس عقائد الضلالة وكيفية نشوئها، الأمر الذي يسهل على المسلمين معالجتها وعدم الإفتتان بها، فالآية نور وبصيرة وفي الآية اشارة لوجود المانع الذاتي عند الكفار عن الإسلام

يتمثل بخلل في طريقة الإختيار.

تبين الآية تجليات الدعوة إلى عبادة الله وبلوغها للناس جميعاً ومنهم المشركون لدفعهم عن منازل الجحود بالحجة والبرهان، إذ تدعو الآية إلى التصديق بما أنزل الله وهي مما أنزل الله، أي الإيمان بمضامنيها أيضامن لزوم مغادرة المقامات التي كان عليها الآباء الكفار مع بيان المائز بين الأبناء المخاطبين في الآية وبين آبائهم بأن الأبناء عاصروا نزول آيات القرآن وكل واحدة منها معجزة بذاتها وموضوعها وحكمها وهي دعوة مستقلة إلى عبادة الله، كما أن إنضمامها إلى آية أخرى دعوة إضافية أخرى .

وتختصر الآية الكريمة قصة كاملة في الجواب وتبين معالم مدرسة الإحتجاج في الإسلام وما لاقاه المسلمون في الدعوة إلى الله، وما تحملوه من الأذى والصدود من القوم الكافرين وتظهر الآية حاجة الناس جميعاً للتنزيل، فالمسلمون يتخذونه موضوعاً وبرهاناً في الدعوة إلى الإسلام، والناس يتدبرون فيه ويؤمرون باتباعه والعمل بأحكامه،

وتتجلى في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ مفاهيم النصح والأمر بالصلاح وعن أبي شمامة الصائدي قال : قال الحواريون : ياروح الله أخبرنا من الناصح لله ؟ قال الذي يؤثر حق الله على حق الناس وإذا حدث أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ الذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا)[1].

ومن إعجاز الآية الذم الصريح للآباء الكفار، وإزاحة ما يعلق في إذهان أبناهم من محاكاتهم والرغبة في عدم الخروج عن طريقتهم وسيرتهم، وبينت الآية قانوناً كلياً وهو لزوم عدم الصدود عن القرآن وكنوزه وأحكامه من

---

(١) الدر المنثور ١٢٧/٥.

أجل إتباع أهواء الضالين ويمكن تسمية الآية آية ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وورد هذا اللفظ في القرآن مرتين[1].

وتبين الآية رحمة الله عز وجل بالناس وعلى نحو متعدد، إذ توقف توجه الدعوة إلى الكفار لدخول الإسلام والعمل بأحكام التنزيل، وهذا التوثيق نعمة إضافية من جهات:

الأولى :صيرورة التنزيل هو ملاك الهداية والإيمان.

الثانية : للتنزيل غايات حميدة باتباع الناس له.

الثالثة : لم تختص الدعوة بالتصديق بالقرآن بل تضمنت إتباعه والعمل بسننه، فتارة يكون العمل بالأحكام على نحو تدريجي كما في تحريم الخمر، قال تعالى﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾[2]، ثم جاء التحريم مطلقاً.

الرابعة : بقاء التنزيل في الأرض وعدم مغادرته للناس، بحيث هناك طرفات في كل زمان أحدهما يدعو للعمل بالتنزيل والآخر يتلقى هذه الدعوة.

وهذا الإستمرار والتتابع من إعجاز القرآن الذاتي والغيري، فقد أراد الله لآيات القرآن أن تحفظ نفسها بالتلاوة والعمل من قبل المسلمين، وجاءت هذه الآية لحفظ آيات وسور القرآن بدعوة الناس إليها، إذ تلقي هذه الدعوة وظائف على المسلمين في العمل بأحكام القرآن، فهم يأمرون بما يفعلون من الصالحات وهو إتباع القرآن.

الخامسة : توثيق رد المشركين على الحث على الإيمان والندب إلى الهداية.

---

(1) أنظر سورة لقمان ٢١.

(2) سورة النساء ٤٣.

السادسة : إتصاف رد المشركين بالقبح الذاتي وخلوه من الحجة والبرهان.

السابعة : الإحتجاج على الكفار بضلالة آبائهم وظلم النفس بالإقتداء بهم.

ومن إعجاز الآية خلوها من الكناية والتعريض إذ جاءت بالإفصاح والتصريح ولغة الأمر لأن مضامينها حاجة للفرد والجماعة لذا جاءت بصيغة الجمع ﴿قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا﴾.

وتبين الآية أن كفر الأباء ووراثة الأنبياء عنهم الكفر والضلالة لايسقط التكليف عن ذات الأبناء بلزوم التصديق بالتنزيل وإتباعه، ومن لطف الله عز وجل تذكيرهم بواجباتهم وضرورة نبذ تركة الشرك التي خلقها الآباء، قال تعالى ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

ويمكن تسمية الآية آية(**اتبعوا ما انزل الله**) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في آيتين وبذات المعنى[2].

الآية سلاح

معرفة الخلل والوهن والفساد في مذاهب الكفار، وفيها اعانة للمسلمين في محاربتهم للمشركين ومحاصرتهم وفضح اعتقادهم الباطل.

لقد أنعم الله عز وجل على المسلمين بالمدد السماوي وليس من حصر لوجوه هذا المدد من الظاهر الجلي ومنه الذي يدرك بالتدبر والتفكر، وكل آية من القرآن مدد وعون للمسلمين ووسيلة مباركة لإرتقائهم في سلم

---

(١) سورة يس ٦.

(٢) انظر سورة لقمان ٢١.

المعارف الإلهية، ومنها هذه الآية التي تحث المسلمين على دعوة الناس إلى الإيمان، فهي وإن وردت بصيغة الجملة الخبرية (وإذا قيل لهم) فانها تدعوا المسلمين إلى القوى للناس باتباع التنزيل،

وبيان الإعجاز في آيات القرآن وادعي إجماع علماء البديع بأن الكناية أكثر تأثيراً الإفصاح، والتعريض أبلغ من التصريح . والمجاز اشد قوة من الحقيقة، ولادليل عليه.

وقد جاءت آية البحث بالنص بالدعوة إلى التنزيل وذكره على نحو الحقيقة، والتصريح في ذم الآباء الكفار لأن الآية تأديب للناس وجهاد في سبيل الله، وحرب على الضلالة، وحجة يوم القيامةعلى الكفار .

ومن مصاديق إتباع التنزيل وجوه :

الأول : الإيمان بالله ونبذ الشرك وترك الأنداد .

الثاني: الإمتثال للواجبات والفرائض كما في قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [1]

الثالث : إجتناب ما نهى الله عنه والإبتعاد عن الخبائث .

الرابع : إحلال الحلال وتحريم الحرام .

الخامس : الإنصياع للأمر بالمعروف، والإمتثال للنهي عن المنكر .

السادس : التصديق بالنبوة والكتب السماوية النازلة .

السابع : الإمتثال لقوله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

---

(١)سورة .النساء٧٧

وهذه الآية رحمة نازلة لهداية الناس إذ أن إتباع التنزيل رشاد وسكينة وسبيل نجاة في النشأتين، قال تعالى ﴿هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾[1].

في الآية إرشاد للمسلمين لصيغ الإحتجاج وكيفية الإصلاح بين الناس وتقريبهم إلى منازل الهداية ولما إحتج الملائكة على جعل آدم خليفة في الأرض ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[2]، رد عليهم الله عز وجل بأنه يعلم مايجهله الملائكة وغيرهم، ليكون من علمه تعالى توجه الدعوة للناس جميعاً باتباع التنزيل، وتلتقي الكتب السماوية في الدعوة إلى عبادة الله والتنزه من المعاصي التي تسوق العبد إلى العذاب الأليم.

وتحث الآية على جعل موضوعية للعقل في الإتباع والإصلاح، فليس المدار في التقليد والمحاكاة على النسب والأبوة بل لابد من تحرى إتخاذ العقل سبيلاً للإختيار السليم.

وفي الآية ترغيب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الناس جميعاً مع بيان موضوع الأمر وهو الدعوة لإتباع الكتاب النازل من عند الله فان قلت قد ورد قوله تعالى ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

والجواب المراد من الآية أعلاه إقامة الحجة على الكفار وتخلفهم عن وجوب المبادرة إلى التوبة والإتعاظ بالأنذارات، بالإضافة إلى أن المراد من الإتباع في آية البحث أعم من الإنذار ويشمل العمل بالسنن والتقيد بأمور الحلال والحرام وتلقي البشارات، والقيام بذات الأمر بالمعروف والنهي عن

(١)سورة .طه ١٢٣

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة يس ١٠.

المنكر، أي يقال للكافر إتبع التنزيل ومعاني الحكمة فيه فيتوب إلى الله، فيكون داعية بين أقرانه وفي السوق والمنتدى وداخل السكن.

اسباب النزول

ذكر قولان في اسباب نزول الآية:

الأول: "ان النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم دعا اليهود الى الإسلام فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا اعلم منا، فنزلت هذه الآية"، عن ابن عباس.

الثاني: انها نزلت في كفار قريش، عن الضحاك.

ولا تعارض بين القولين، ومن اعجاز الآية انها جاءت على نحو القضية المهملة لتنبسط على آنات الزمان المتعاقبة.

مفهوم الآية

موضوع هذه الآية يتعلق بالآية السابقة من جهة اغواء الشيطان واتباع الكافرين له ويظهر وجهاً من وجوه السوء والفحشاء والقول على الله بغير علم، فكل عاقل يدرك ان الإنقياد لما امر الله عز وجل به واجب عقلي وشرعي وهو ضرورة وحاجة لكل انسان الا ان الشيطان يجعلهم باغوائه يتبعونه ليظهر هذا الإتباع بوسائط مادية وهي جعل سنن الآباء في مقابل احكام الشريعة ولولا الغشاوة والعناد لأدركوا مدى البون الشاسع وعدم امكان اهلية سنن الأنبياء للمعارضة والمزاحمة ولو كانوا يتبعون الآباء فاولى لهم ان يتبعوا اباءهم من الأنبياء والذين كانوا يتفاخرون بهم، ومن مفاهيم الآية ان مدار الأتباع على الهداية والتقوى وتوظيف العقل لإدراك الآيات وضرورة الإنقياد لما ورد في التنزيل.

وبسبب عناد وجحود الكافرين جاء الذم لآبائهم، فكانوا سبباً بفضحهم وتقبيح افعالهم وهذا الذم ايذاء اضافي للكافرين ونوع ارشاد للهداية وحث لترك ما كان عليه الآباء، ودعوة للرجوع الى التنزيل الذي يخاطب العقول ويهدي الى الرشد ومن مفاهيم الآية انها مدح سماوي للمسلمين سواء بتخليهم عن العناد والجهالة، او بتلقي الأحكام الشرعية بالوراثة عن الآباء.

الآية لطف

من الناس من إتبع سخط الله وإختار العناء والإقامة في مقامات الضلالة واتبعوا الهدى، وورث أبناؤهم ذات النهج وتعاقبن عليه أجيال، قال تعالى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (١)

فكانت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حاجة للناس ودعوة للإقلاع عن هذا الإتباع ولم تذكر الآية إتباعه بالنص والجواب تدل الآية على إتباعه بالواسطة لأن التنزيل يدعو إليه قال تعالى في خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندري . . . ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه) (٣).

ومن اللطف في الآية أمور :

الأول : الدعوة إلى الآيات بالقرآن .

---

(١)سورة . الروم ٤١

(٢)سورة .الأنفال ٦٤

(٣) الدر المنثور ٣٠٩/٢.

الثاني : الشهادة السماوية بأن القرآن نازل من عند الله . وأن جبرئيل واسطة كريمة لتبليغه.

الثالث : ما يتلوه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات ليس من عنده وليس وجباً بالمعنى والمضمون إنما هو وحي بالنص .

الرابع : بيان قبح الصدود عن التنزيل .

الخامس : لزوم البينونة بين الأبناء وما كان عليه الآباء إذ كانوا مشركين، وهذه البينونة من عمومات قوله تعالى ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (١)

السادس : بعث النفرة من الجهل والغفلة والحيل عن جادة الصلاح.

ومن الإعجاز في الشريعة الإسلامية أن المسلمين يكون مجتمعين ومتفرقين يكون عدة مرات في اليوم وعلى نحو الوجوب العيني في الصلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٢) للدلالة على التبرأ من الشرك والضلالة.

لقد جعل الله عز وجل الناس بالناس، يقوم بعضهم بهداية بعضهم الأخر إلى سبل الهداية، وإذ تخلف قوم في منازل الكفر وورث الأبناء منهم مفاهيم الضلالة فان الله عز وجل أكرم من أن يخلي بين الإنسان وأرباب الضلالة، فالآباء الكفار غادروا الدنيا مقهورين ولم يبق لهم إلا الذم الخالد المتجدد بدليل آية البحث التي نعتتهم بأمرين:

الأول : لايعقلون شيئاً من أمور الدين والدنيا.

الثاني : لايهتدون إلى سبل النجاة.

---

(١)سورة .آل عمران ١٣٧

(٢)سورة . الفاتحة ٦

وفي هذا النعت بعث للنفرة في النفوس من سيرتهم وسنتهم وتبين الآية وجوب بر الوالد لإبنه بلزوم دعوته إلى إتباع التنزيل وإتيان الصالحات، لا أن يكون الأب نداً للكتاب والسنة في توجيه قول وفعل الإبن.

وتبين الآية معاني البهجة في الحياة الدنيا بالدعوة إلى الإيمان فالقائل في قوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ في غبطة من جهات:

الأولى : إختيار الإيمان.

الثانية : الحرص على إتباع القرآن.

الثالثة : إيجاد حلاوة الإيمان والصلاح ومحبة محاكاة الناس له.

الرابعة : وجود التنزيل بين ظهراني الناس وقريباً منهم يدعوهم كل يوم بلسانه ولسان المؤمنين، فان قلت الآية أعم، وقد يكون القائل والداعي إلى الإيمان ليس بمؤمن والجواب هو من الحجة على الآمر والمأمور، وترغيب لكل منهما بالإسلام، قال تعالى﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[1].

إفاضات الآية

مع إصرار الكفار على الشرك وإحتجاجهم بالبقاء على سنة الآباء تأتيهم الدعوة المتكررة للإيمان وتقدير الآية . اتبعوا ما إنزل الله على رسوله واهج واسنن الكفر، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أي أنهم يصرون على الإقامة على الباطل فلم يقولوا (بل اتبعنا) وتتكرر الدعوة للتنزيل في العبادات والمعلامات والأحكام، فاذا جاء وقت الفريضة دعي الناس

(1) سورة المدثر ٣١.

لأدائها، واذا جرت معاملة ربوية ذكّر أطرافها بحرمة القرض الذي يجر فاتك، قال تعالى ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [1]

وإذا جاء الكافر في الحكم جاءت الدعوة لإتباع التنزيل بالحكم بالعدل، وجاءت الآيات السابقة بذكر الإتباع في الكفر والظلم وتبرأ رؤساء الكفر من أتباعهم يوم القيامة مع تغشي العذاب لهم جميعاً تابعاً ومتبوعاً لوحدة الموضوع في تنقيح المناط، فكل واحد منهم ظالم لنفسه ولغيره، أما آية البحث فأنها تنهي وفي الحياة الدنيا عن إتباع الكفار وان كانوا من الآباء لتدل بالأولوية القطعية على حرمة إتباع الأقران من الكفار .

وتدعو الآية إلى توظيف العقل في مرضاة الله، والتدبر في مناهج الهداية . وأن الإنسان مكلف بالإيمان بالله والتصديق بالتنزيل ولم يترك ليصل إلى أفراد التكليف وإدراك وجوبه بعقله ووجدانه وعالم التجربة . بل تأتيه الدعوة من الله والرسول والناس لقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ مما يدل على تكرار وتجدد الدعوة .

وعن هشام بن حسان الحسن قال : بلغني إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا إلى فاصبحوا بين أسير وقتيل.

لقد ذكرت آية البحث إمتناع فريق من الكفار عن ركوب جادة الإيمان ليس بسبب كراهيته، والنفرة منه، بل بسبب الأنفة والجهالة المترشحة عن الإستكبار والعناد والإعتذار بسنة الآباء، ليكون في الآية حجة عليهم لأنها تدل بالدلالة التضمنية على إقرارهم بالتنزيل وتسليمهم بأن القرآن حق وصدق وكتاب نازل من عند الله.

---

(1) سورة البقرة ٢٧٥

وتفيد الآية في دلالتها الثناء على المسلمين الأوائل لأنهم تخلوا عن ملة الآباء الكافرين وكانا الذي يفارق دين الآباء يسمى صابئ، وبالأسناد عن رجل يقال له ربيعة بن عباد، من بني الديل، وكان جاهليًا فأسلم -قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: "يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحولُ ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب[١][٢].

لقد وصفت الآية الآباء الذين ماتوا على الكفر بأنهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون مع أنهم يمتلكون العقل والقوة والقدرة على التمييز وتصريف الأمور في التجارات والصناعات، ذلك أنهم لم يتدبروا في ماهية الدنيا وعواقب المور ولايهتدون إلى السعي لمنازل النعيم في الآخرة فجاءهم العذاب والبلاء ثم الذم في القرآن، وتحمل أوزار الأبناء الذين يصرون على إتباع نهجهم، قال تعالى﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٣]، وعن أبي عمرو الزجاجي قال: كان الناس في الجاهلية يتبعون ما تستحسنه العقول والطبائع فردهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى اتباع الشرائع فالعقل الصحيح ما يستحسن محاسن الشريعة ويستقبح ما تستقبحه[٤].

وجاء القرآن بذم أهل الجاهلية ونعتهم بأنهم لايعقلون وإلا فان العقول تستحسن إتباع الأنبياء والتنزيل، وفي حديث جعفر الطيار في حضرة النجاشي عندما دعاهم ليستمع إليهم بعد أن بعثت قريش عبدالله بن ربيعة

---

(١) تفسير ابن كثير ٥١٤/٨.

(٢) أي أن أبا لهب يقول على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه صابئ كي يصرف الناس عنه.

(٣) سورة المائدة ٥١.

(٤) حلية الأولياء١٠/٣٧٦.

المخزومي وعمرو بن العاص لرد جعفر وإصحابه إلى قريش قال جعفر: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه، الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعد عليه أمور الإسلام. فصدقناه وآمنا به[١].

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بحرف العطف الواو في إشارة إلى عطف مضامين هذه الآية على الآيات السابقة، وفيه دعوة إضافية لمسلمين والناس في التدبر بمعاني العطف في المقام ودلالات الإتصال والتدخل بين مفاهيم هذه الآيات والمقاصد السامية منها .

ولم تحدد الآية القائل (وإذا قيل) لأن بناءه للمجهول ولغة المضارع يفيدان التنكير والتكثير، وذكرت الآية التنزيل بكونه متبوعاً تنقاد له النفوس فلا بد أن فيه كفاية للعباد من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٢] وتكررت مرتين كل من مادة :

الأول : القول .

الثاني : الإتباع .

(١) تفسير ابن كثير ٢٩٠/٦.

(٢)سورة .النحل ٨٩

الثالث : الآباء وهناك تباين في فردي القول والإتباع، ولكن لفظ الآباء متحد فقول يهدي إلى الفلاح وهو دعوة للعمل بأحكام التنزيل وقول مضاد يدعو إلى الباطل والبقاء في مواقع الضلالة والجحود، قال تعالى ﴿لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]

وحينما توجهت الدعوة الحق إلى الكفار لم يتدبروا فيها، ويتفكروا في منافع إتباع التنزيل والحاجة إليه ولم يقولوا انظرونا نجمع أمرنا ونعمل النظر في معجزات التنزيل وكيف أنه يختلف عن كلام البشر بل بادروا إلى رفض الدعوة، وإظهار العناد وأصروا على إختيار الكفر الذي كان عليه آباؤهم ومن الناس من لايدرك أباه أو يتركه في حال من اليتم، فالمراد من الآباء في الآية على وجوه :

الأول : الآباء.

الثاني : النهج الذي عليه الأمة والجيل السابعه .

الثالث : سنة الضلالة المتوارثة .

ومن إعجاز الآية أنها لم تكتف بذكر الدعوة إلى الإيمان ومغالطة الكفار بل ذكرت بطلان هذه المغالطه،ودفعت حجتهم، فالتنزيل علوم سماوية مستحدثة، وما كان عليه الآباء تجارة كاسدة لم تجلب لهم إلا الخسارة والندامة والحسرة، فكانت النعمة على الأبناء بنزول القرآن وتجليات إعجازه والدعوة المستمرة إلى الإيمان والتصديق به .

إبتدأت الآية بظرف المستقبل من الزمان (إذا) والذي يتضمن معنى الشرط، لذا جاءت الآية بقولهم الذي هو جواب ورد على الدعوة إلى

---

(1)سورة .يونس ٣٥

الإيمان، لتبين الآية جهاد المسلمين في سبيل الله، وثباتهم في منازل الإيمان من غير أن يتسرب الشك والريب إلى نفوسهم بسبب عناد الكفار وإستكبارهم.

لقد بدأت الآية بالدعوة إلى الإيمان بالقول واللسان، وتحتمل وجوهاً:

الأول : إنها مقدمة ومرتبة سابقة للدعوة بالسيف والقتال.

الثاني : الدعوة باللسان مستقلة وقائمة بذاتها، والآية من مصاديق قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[١].

الثالث : أمر الكفار بالتصديق بالتنزيل متصل، ويأتي مقدمة للدعوة بالسيف، وبصورة مستقلة، وأثناء القتال، وبعد إنقضاء المعركة.

والصحيح هو الأخير، بالإضافة إلى دلالة الآية على المعنى الأعم وان القول والدعوة إلى الإيمان مطلقة وتأتي حتى من الكفار أنفسهم عندما يغزو الإيمان قلوبهم، إذ أن الآية تبين عذوبة التنزيل، ورقة كلماته، وميل الأسماع إليه، وإدراك الناس أنه فوق كلام البشر.

ومن إعجاز الآية تكرار مادة تبع ولفظ الآباء، فقد طلب من الكفار أن يتبعوا التنزيل وما فيه خيرهم وصلاحهم، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٢]، فاجاب الكفار في ذات موضوع الإتباع، فهم لم يدّعوا الإستقلال في القول والفعل وكأنهم إعترفوا بحاجتهم إلى الإتباع ولكنهم إختاروا الإتباع الذي يقودهم إلى النار لذا ورد في بيان ووصف الصراط المستقيم الذي يسأل المسلمون الله الهداية إليه بأنه ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[٣]، فاتباع التنزيل هو نعمة وسبيل

---

(١) سورة النحل ١٢٥.

(٢) سورة الأسراء ٩.

(٣) سورة الفاتحة ٧.

الذي أنعم الله عز وجل عليهم من عباده الصالحين، وإتباع الأباء في كفرهم وضلالتهم ضرر في النشأتين.

ومـن إعجـاز آيـة البحـث تعلـق إتبـاع الكفـار بـنهج الآبـاء ولـيس باشخاصهم، فلم يقولوا(نتبع آباءنا) بل قالوا ﴿نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ والقرآن يفسر بعضه بعضاً، قال تعالى﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾[1].

ولم يأت الذم في الآية إلى فعل الآباء بالذات، بل جاء إلى الآباء أنفسهم وفيه مسائل :

الأولى : بعث النفرة من الكفار، ودعوة الناس للإبتعاد عنهم.

الثانية : إقامة الحجة على الكفار.

الثالثة : إرادة الإشارة إلى موضوع وهو أن الفعل القبيح للكفار أعم من الذي يتبع الأبناء الذين تتوجه لهم الدعوة للإيمان.

وأختتمت الآية بالإحتجاج على الأبناء بما فيه ذم الآباء الكفار، وعدم أهليتهم لأن يكونوا متبوعين إذ أنهم لايعقلون كيفية وسبل جلب المصلحة ودفع المفسدة.

ومن إعجاز الآية أنها ذكرت الآباء بخصلتين مذمومتين وهي أنهم لا يعقلون ولا يهتدون إلى الخير والفلاح، ليكونا مجتمعين ومتفرقين حجة وسبباً لبعث النفرة في نفوس الأبناء من سيرة وسنة أهل الكفر، قال تعالى﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف ٢٨.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

من غايات الآية

في الآية مسائل :

الأولى : بيان الفضل الإلهي في إقامة الحجة على الناس .

الثانية : تجدد الدعوة إلى الله، وأتباع الأنبياء وجهاد الأولياء وإستحضار المسلمين البرهان للدلالة على وجوب تقوى الله، قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (١)

الثالثة : مع نزول القرآن هناك دعوات وحث للناس للتصديق به والعمل بأحكامه.

الرابعة : تدعوالآية المسلمين إلى تحقيق مصاديق متجددة ومتكثرة لقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾

الخامسة : دلالة مفهوم الآية على الثناء على المسلمين لأنهم إ تبعو ما انزل الله، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢)

السادسة : عصمة المسلمين من إظهار الكفار الجحود والعناد فمن بركات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٣) بأن يزداد الذي يدخل الإسلام إيماناً، ويغادر فريق من الناس منازل الكفر ومن يغادرها فان إشراقات الدعوة إلى الحق والهدى تطل عليه بالقول الكريم بالترغيب بالعمل بالقرآن .

---

(١)سورة . آل عمران ١٠٤

(٢)سورة .آل عمران١١٠

(٣)سورة . الأنبياء١٠٧

السابعة : النهي عن إتباع أهل الجهالة والغافلين عن وظائفهم العبادية وإن كانوا آباء .

الثامنة : إذا كان الآباء الكفار لم يهتدوا فان آية البحث جاءت لهداية أبنائهم والناس جميعاً .

التاسعة : يحدث الإحتجاج والجدال بين المؤمنين والكفار مرة أو مرات متعددة فتأتي الآية القرآنية بذكره وتثبيته ليكون وثيقة سماوية خالدة تفضح مفاهيم الكفر والضلالة .

في الآية مسائل :

الأولى : دوام وتجدد الدعوة إلى الإيمان والعمل بأحكام القرآن.

الثانية : لقد أنزل الله القرآن وسّخر من يحث الناس على التصديق به، قال تعالى في خطاب للمسلمين ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ﴾[1].

الثالثة : بيان فضل الله في نزول القرآن، وإخبار الآية عن لزوم العمل به.

الرابعة : أهلية القرآن لأن يكون متبوعاً في أمور الدين والدنيا، وفي الآية دلالة على كفاية ما فيه من الوامر والنواهي والأحكام والسنن للناس، في عياداتهم ومعاملاتهم، قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[2].

الخامسة : بيان التضاد بين العمل بأحكام القرآن والبقاء على نهج وسنة الآباء الكفار.

---

(1) سورة آل عمران ١٠٤.

(2) سورة الزمر ٣٦.

السادسة : إصرار الكفار على الشرك والضلالة يضرهم بالذات، ويكون حجة عليهم.

السابعة : تدل الآية بالدلالة التضمنية سلامة القرآن من التحريف لصدق اسم التنزيل عليه في كل زمان ومكان بلحاظ كبرى كلية وهي تجدد الخطاب والدعوة إلى الإيمان إلى يوم القيامة.

الثامنة : ترغيب المسلمين بدعوة الناس للقرآن، ويترشح عن هذه الدعوة أولوية التفقه في الدين ومعرفة إعجاز القرآن ولو في الجملة.

التاسعة : إخبار الكافر عن الإثم الذي يلحقه بسبب تبعية إبنه له في الضلالة، بالأبناء يصبحون آباءً، لذا فان الذي تتوجه له الدعوة لإتباع القرآن ويستجيب لها ينفع نفسه وأهله، قال تعالى ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1].

العاشرة : الذي يصر على الكفر لايعقل ولا يهتدي سواء السبيل.

الحادية عشرة : التحذير والإنذار من إتباع ومحاكاة الكفار.

التفسير

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

الأولى : اخبار عن قيام وظهور الدعوة الى الإسلام ومخاطبة الكافرين بها، وهذا من التفسير بالمفهوم بالإضافة الى المنطوق، وربما جاء الفعل (قيل) مبنياً للمجهول للكثرة وتعدد توجه الدعوة مصدراً وغاية، فكل جماعة او شخص من الكفار يتلقون الدعوة من المتعدد ايضاً.

الثانية : تدل الآية في مفهومها على عز الإسلام وظهور دعوته والتمكن

---
[1] سورة التحريم ٦.

من تحدي الكافرين بدعوتهم افراداً وجماعات.

الثالثة : بعد ان كان المسلمون وهم في مكة بداية البعثة في خوف ووجل، والكفار يستخفون بهم اصبح الكفار الآن يحاولون ايجاد الإعتذار لتخلفهم عن دخول الإسلام.

الرابعة : القرآن لم يتركهم والحالة هذه فهو يكشف زيف وبطلان ما يعتذرون به.

الخامسة : ترى من القائل في الفعل المبني للمجهول ﴿قِيلَ﴾ فيه وجوه:

الأول : النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : المسلمون.

الثالث : القرآن بدعوته الكفار والناس جميعاً للإقرار به كتاباً منزلاً من عند الله ولتنزيله منزلة القول والخطاب وللأهمية الموضوعية والإعتبارية له في باب العقائد، ومن اعجاز القرآن الذاتي أهليته للخطاب والاحتجاج.

الرابع : الذي أسلم من أهل الكتاب.

الخامس : الكفار والمشركون أنفسهم، يتداولون أمر الاسلام والآيات الباهرات ويقول أحدهم للآخر "لماذا لا تعلنوا اسلامكم".

السادس : الذي يريد ان يسلم منهم ليعرضوا ويبينوا سبب عدم اسلامهم، كما لو كان سألهم عما هم عليه من الكفر أمر وجيه ومقبول، ام انه جحود واستكبار.

السابع : القائل هو القرآن، وهذا من الاعجاز الذاتي للقرآن، فاذا حصل تقصير في التبليغ يقوم القرآن بذات الوظيفة، واذا أدى المسلمون وظيفتهم في التبليغ والانذار فأن القرآن عون وناصر لهم.

وهذا الخطاب حقيقة عقائدية تتجدد عند بعثة كل رسول، وموضوع

الآية يقبل هذه الوجوه ويدل على ذلك القرآن والسنة والتأريخ.

السادسة : الضمير (هم) في ﴿ قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعود الى الكفار الذين ابوا الإلتحاق بالإسلام واختاروا البقاء على دين آبائهم مع ما رأوا من الآيات والتنزيل، وقال الطبرسي: وقيل يعود الى الناس من قوله ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فعدل عن المخاطبة الى الغيبة، وذكره الرازي ايضاً، أي انه من مصاديق ما يسمى في البلاغة بالإلتفات، ولكن لفظ الناس في الآية المتقدمة مطلق يشمل المسلمين ايضاً الا ان يراد بلفظ الناس في الآية المتقدمة معنى اخص فيحتاج معها الى قرينة، بل ان القرينة بخلافه فان ذيل الآية والتقييد باتباع الآباء على الباطل يحدد المراد من الضمير وانهم الكفار والمشركون.

السابعة : ومن التفسير بالمفهوم ان القرآن منع من استحداث افكار ضلالة جديدة وحصر الصراع بين ما ورثه الكفار من آبائهم وبين الإسلام، واتحاد العدد وعدم تعدد اسباب العداوة وجهاتها نوع تخفيف عن المسلمين في باب العقيدة والجهاد.

الثامنة المراد بما انزل الله هو القرآن والآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واسباب الهداية واحكام الحلال والحرام نسبت مجتمعة الى الله عز وجل في تنزيلها بلحاظ الأصل وعموم الحكم ولإقامة الحجة وبيان لزوم الإتباع واظهار ما هم عليه من الضلالة.

التاسعة : لم تذكر النبوة لا لنقص فيها بل لما قد يتوهمه هؤلاء من وحدة السنخية في الآدمية وبقائهم معتزين بالآباء وما هم عليه من العقائد الفاسدة، فجاءت هذه الآية بنفي الإلتقاء وان النسبة بين التنزيل وما عليه الآباء هو التباين موضوعاً ومحمولاً وجهة صدور كما في احتجاج ابراهيم عليه السلام مع نمرود، فان ابراهيم عليه السلام قال له ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾[1]، ودعوة الآية لاتباع التنزيل تعني الإقرار بالنبوة للملازمة بينهما ولوحدة الموضوع في تنقيح المناط.

ترى إلى من يعود الضمير (هم) في قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ فيه وجوه :

الأول : المراد الكفار مطلق .

الثاني : الذين يستجيبون للشيطان في فعل السوء والفاحشة والإفتراء على الله .

الثالث : آية البحث تتمة لوصف وذم الكفار الذين يتبرأ بعضهم من بعض كما في الآية السابقة إذ تبين هذه الآية سيرتهم في الدنيا التي ساقتهم إلى التبرأ وسط العذاب .

الرابع : إرادة بيان حال الذين ظلموا في قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [2]

الخامس : بيان مصداق من مصاديق الكفر للدلالة على وهن حجتهم، وإفتضاح مخالطتهم .

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة[3].

وتدل الآية بالدلالة التضمنية على بلوغ آيات القرآن للكفار وإستماعهم له وتلاوته عليهم لآن الدعوة لإتباعه تبين علمهم به وتمثيل الآية وجوهاً :

الأول : إخبار الكفار بأن القرآن وآياته نازلة من عند الله .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٨.

(٢)سورة .البقرة ١٦٥

(٣) انظر الآية ١٦٦-١٦٧.

الثاني : إرادة مضامين آيات القرآن التي تتلى على الناس ويسمعها المومن والكافر قال تعالى ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ (١)

الثالث : دعوة المسلمين للناس لدخول الإسلام .

الرابع : مناجاة الكفار في منتدياتهم، ونصح بعضهم بعضاً .

ولا تعرض بين هذه الوجوه وكلها من مصاديق الآية الكريمة لتعدد جهات وكيفية بلوغ الدعوة إلى الإيمان إلى الناس، قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (٢)

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لن يستكمل مؤمن إيمانه حتى يكون هواه تبعاً لما جئتكم به(٣).

قوله تعالى ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾

الأولى : أي ان كفار قريش فضلوا البقاء على دين الآباء وعبادة الأوثان عنادا وجحودا.

الثانية : الآية مدرسة في علم الإجتماع والإحتجاج ولزوم توظيف العقل وعدم جواز التقليد في اليقينيات والضروريات.

الثالثة : في الآية بيان للأثم الذي يصيبهم بسبب مقابلة الدليل والحجة بالتقليد الذي يتعارض معهما.

الرابعة : الآية تذم التقليد المناوئ والمخالف للحق والاسلام والذي

---

(١)سورة .الحج ٧٢

(٢)سورة .المدثر٣١

(٣) الدر المنثور ٣٠٨/٢.

يؤدي الى اتباع الهوى.

الخامسة : فيها اخبار عن إتصال وتوالي مضامين الكفر لما يدل عليه التتابع والتعاقب بين الآباء والأبناء من غير فصل في حمل افكار الضلالة والجحود.

السادسة : ترد مادة (تبع) بمعنى التوالي من غير فصل كما ورد في الحديث: "اتبع وضوءك بعضه بعضاً"، أي الحقه موالياً من غير فصل بين اجزائه، لذا تدل الآية على وجود الكفر وافكار الضلالة في الأرض وكأنها متوارثة، الأمر الذي يجعل نزول القرآن والبعثة النبوية الشريفة حاجة لأهل الأرض.

السابعة : الآية تدل على ظهور الإسلام ورسوخ اركانه ونفاذه الى النفوس بدعوة الذين ورثوا الكفر والشرك والإحتجاج عليهم.

الثامنة : الإعتذار الواهي من الكفار بانهم اختاروا اتباع ضلالة الآباء يدل على عظيم آيات القرآن وخلوه من النقص باقرار الأعداء والمشركين اذ انهم لم يحتجوا الا بقصور في تفكيرهم.

التاسعة : لقد ظهرت اعباء الفترة في النبوة بين عيسى عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتي تزيد على خمسمائة سنة مما استلزم جهاداً اضافياً من المسلمين لطرد ما تراكم من افكار الضلالة من عقول الناس بعد اعتيادهم عليها.

العاشرة : في الآية ذم للآباء وانهم يتحملون اوزار ابنائهم كما يتحملون اوزار كفرهم وشركهم وما فيهما من الآثام.

بحث بلاغي

في هذه الآية ورد قوله تعالى ﴿ مَا أَلْفَيْنَا ﴾ اما وقد جاء في سورة لقمان ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾[1] اعتبر في البلاغة من علم المتشابه ومن قسم ابدال كلمة باخرى في باب اعتبار الأفراد وهو صحيح الا ان الدراسة العلمية والتحقيق القرآني يستلزم البحث في وجوه الإلتقاء والإفتراق بين الآيتين بما هو اعم من الفارق في اللفظ، ولابد ان وراءه اسراراً من اسرار القرآن وهو مناسبة لإستظهار بعض كنوزه وخفاياه العلمية فالمقارنة ودراسة وجوه الإلتقاء والإفتراق لا تنحصر بالمتشابه بالمعنى البلاغي.

والظاهر ان النسبة بين ألفينا ووجدنا من جهة المعنى عموم وخصوص مطلق وليس التساوي كما يدل عليه ظاهر القول بالتشابه فالف فيها عنوان اضافي وهو الإنس أي انه ايجاد مع الإنس والميل له والإعتياد وعليه وانه لا يكون على نحو دفعي، فهذه الآية تدل بالدلالة التضمنية على رضا الكفار بفعل آبائهم من الجحود والكفر.

ان التباين الجهتي في المفردات وبعض الالفاظ لابد ان يكون له تأثير على معاني ومفاهيم الآية.

كما ان الدراسات في باب المتشابه التي ندعو اليها يجب ان لا تنحصر باوجه الإختلاف بل لابد ان تشمل اوجه الإتفاق والإلتقاء وقد تكون اكثر اهمية واظهر دلالة وابين حجة واكثر نفعاً كما لو كان من باب المطلق والمفيد او المجمل والمبين.

---

(١) سورة لقمان ٢١.

بحث عقائدي

جاء لفظ الآباء على نحو الجمع فهل يقصد به:

الأول : الآباء الصلبيون.

الثاني : الآباء والأمهات أي ان المراد بالآباء هم الآباء والأمهات وورد ذكر الآباء للتغليب الذي يعتبر منه الأخف كالأبوين والقمرين الا ان يكون المذكر هو الأثقل.

الثالث : الآباء والأجداد وما يتوارثونه وهل يمكن ان يكون المراد بالآباء رؤسائهم في الدين والإعتقاد؟ الجواب لا، لأن الكلام يحمل على الحقيقة الا مع القرينة الصارفة والمجاز، نعم يمكن ان يكون هؤلاء من ضمن عموم لفظ الآباء ولتأثر الآباء بهم، أي ان اتباع رؤساء الضلالة بالواسطة أي بواسطة اتباع الآباء.

الرابع : لفظ الآباء يشمل الذين أخذوا منهم الاعتقاد ورؤساءهم في الضلالة، فقد ورد في الحديث: "ان الأب ثلاث: أب ولدك، وأب علمك، وأب زوجك".

الجواب: ان الوجوه الاربعة تصلح جميعاً لمعنى الآباء في الآية في دلالة على النهج العام وتوارث الضلالة.

ولا يشمل اللفظ الأنبياء من بني اسرائيل بقرينة الفينا أي وجدنا، بالإضافة الى مجيء الآيات بتفاخرهم بآبائهم من الأنبياء ممن تقدم زمانه على زمانهم كابراهيم واسحاق ويعقوب عليهم السلام وان مادة وموضوع الإفتخار هي النبوة والإسلام ،كما لا يشمل ابناء الأنبياء لوصية الأنبياء لهم وتعاهد الأبناء للوصية واعلانهم الإلتزام بها قال تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[١].

وتتضمن الآية الكريمة أمراً موجهاً الى الناس بنبذ اعتقاد ابائهم اذا كان فاسداً وباطلاً، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾[٢] لتقييدها بايمان الآباء، وهذه الآية من الآيات المقيدة ولأن القدر المتيقن من الإحسان في الآية هو حسن المعاملة في الدنيا وانها متعلقة بالأبوين، والجد ايضاً ان كان حياً، (وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن الإحسان في قوله تعالى ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[٣] فقال: ان تحسن صحبتهما وان لا تكلفهما ان يسألاك شيئاً وان كانا مستغنيين)، فاختيار اتباع الآباء على الضلالة فعل مستقل يقوم به الأبناء ويتصف بالضلالة المركبة من الخطأ في التقليد على الباطل.

وصحيح ان الأب سبب تكويني في وجود الولد وتربيته واعداده واطعامه لكن لا ملازمة بينها وبين اتباعه فيما يعتقد اذا كان اعتقاده، لأن التوحيد خطاب تكليفي موجه لكل مكلف بالغ عاقل مختار ولأنه أمر يقيني، واعتقاد جازم ثابت مطابق للواقع وللمسؤولية العقائدية التي يتحملها الإنسان كخليفة في الأرض تتجسد باعلانه الإسلام والتقيد باحكامه.

---

(١) سورة البقرة ١٣٣.
(٢) سورة الأحقاف ١٥.
(٣) سورة البقرة ٨٣.

بحث اخلاقي

الولد ميراث كريم للوالد، يتركه خلفه في الدنيا فيكون سبباً في رحمة ومغفرة تدرك الأب بعد وفاته اذ تنعكس ثمار عمله الصالح على الأب ايضاً على نحو الثواب، او يكون مصدراً لأذى الأب وان كان قد غادر الدنيا بما يفعله من الآثام التي تعود في جانب منها الى سوء التربية والتأديب وعدم تعليمه ما يجب عليه اداؤه وما يجب ان يتجنبه.

وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مر عيسى بن مريم بقبر يعذب صاحبه، ثم مرّ به من قابل فاذا هو لا يعذب، فقال: يا رب مررت بهذا القبر عام أول وهو يعذب ومررت به العام فاذا هو ليس يعذب، فأوحى الله اليه أنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً وآوى يتيماً، فلهذا غفرت له بما عمل ابنه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ميراث الله عز وجل من عبده المؤمن ولد يعبده من بعده).

ولقد أولى الأنبياء والصالحون اهمية خاصة لإعداد ابنائهم واشفقوا عليهم فاحسنوا تأديبهم وتعليمهم احكام الدين وتوجهوا الى الباري عز وجل بالدعاء لهم كما ورد في التنزيل ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾[1]، وفي دعاء للإمام السجاد عليه السلام خاص بولده : واجعلهم ابراراً اتقياء بصراء سامعين، مطيعين لك، ولأوليائك محبين مناصحين، ولجميع اعدائك معاندين مبغضين، والغاية تعليم المؤمنين كيفية الدعاء لابنائهم وما يجب عليهم فعله للولد ومنه الدعاء له خصوصاً وان الدعاء سلاح الانبياء.

ومما هو ثابت وعليه الإجماع وجوب بر الولد بوالديه، يعرفه المسلمون صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وانثاهم، فقد جعلت الشريعة حقوقاً للوالدين

---

(1) سورة الأحقاف ١٥.

على الولد من العطف عليهما وتوفير ما يحتاجان اليه وان لم يسألا ذلك وتهيئة مستلزمات الحياة الكريمة، وفق الإمكان واليسر مع اطاعتهما بالحق ودروب الهداية وبما لا يتعارض مع احكام الشريعة، ولكن هذا لا يمنع من وجود حقوق للولد على ابويه واهمها ان يترك له ميراثاً وتركة ايمانية تتمثل بالإعتقاد الصحيح، بل ان هذه الحقوق تبدأ باختيار الزوجة الصالحة التي تكون اماً للولد وتشترك في ترتبيته واعداده واختيار اسم حسن له.

وعن زيد بن علي عن ابيه عن جده الحسين عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما"[1].

وعنه عن آبائه عن علي عليه السلام قال: "اتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجل فقال يا رسول الله ان ابي عمد الى مملوك لي فاعتقه بهيئة المضرة لي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انت ومالك من هبة الله لأبيك، انت سهم من كنانته يهب لمن يشاء اناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ويجعل من يشاء عقيماً، جازت عتاقة ابيك يتناول والدك في مالك وبدنك".

ولا تعارض بين الأمر المولوي بالاحسان للوالدين وبين النهي عن تقليدهما بالباطل.

قوله تعالى ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ﴾

الأولى : نفي التعقل والتبصر في الأشياء جاء في الآية مطلقاً والظاهر انه مقيد بلحاظ الوجدان لأنهم لابد وان يعلموا اشياء من شؤون الحياة فينحصر نفي التعقل بامور الدين وان كان الاستعمال اعم من الحقيقة والمجاز كما يبدو من خلال الاستفهام في الآية فهم لا يوظفون عقولهم لما فيه نجاتهم في الآخرة فكأنهم لا يعقلون شيئاً مما يدل بالدلالة التضمنية على ان الوظيفة

(1) الوسائل ٤٦٨/٢١.

الأساسية للعقل هي اتيان الصالحات واجتناب المحرمات.

الثانية : الأصل في الكلام هو الإطلاق لذا يمكن القول ان ما نظنه تعقلاً منهم ليس بتام، فعند التحقيق والتدقيق ترى فيه خللاً سواء في المقدمات او في ذات الفعل او في النتائج والمقاصد والغايات، فالعقل ملازم للإيمان، والضلالة وعدم الرشاد ملازمان للكفر.

الثالثة : الآية ذم للتقليد الذي يبتنى على اساس الأبوة والنسب والتبعية التكوينية او القبلية او الإجتماعية من غير ملاحظة لقواعد الشريعة، وما في الآية من السؤال الإستنكاري يدل على قبح هذا الأتباع، فلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يفقهون من أمر الدين، وليس لهم رأي بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات وما نزل به القرآن من التكاليف فهل يتبعونهم، الجواب بالنفي يدل عليه العقل والنقل والوجدان، وعليهم ان يتعاملوا مع ذات الآيات اذ لا موضوعية او حضور للآباء.

الرابعة : الإستفهام في الآية يعطيها تفسيراً اعم ويفتح باباً للإحتجاج وهو ان الاباء اثناء نزول هذه الآيات غير موجودين، وكانوا على الشرك او ملة اخرى لأنهم لم يروا انبثاق نور الإسلام والآيات التي رافقته والتي جرت على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فبقاؤهم على دينهم وملتهم قياس مع الفارق.

الخامسة : كأن في الآية حذفاً وانهم لا يعقلون شيئاً من امور الدين وما يجب عليهم وانهم لا يهتدون الى وظائفهم الشرعية.

السادسة : في الآية توبيخ لهم باتباع من لم يجب عليهم اتباعه، فلعل الآباء لو كانوا احياء لأصبحوا مسلمين ولما ظلوا على ملتهم، للتباين في الموضوع والزمان والبرهان فاصل المبنى الذي اعتمدوه فاسد.

السابعة : ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ﴾ أي انهم أموات حال التنزيل، فلو كان

الآباء أحياء لآمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم سيتبرأون من اعتقاد الابناء يوم القيامة ويقولون لهم: لو كنا أحياء أيام الرسالة لآمنا وجئنا بالشهادتين.

ان فضح الآباء الكفار عند أبنائهم رحمة بالطرفين وبالناس جميعاً، من وجوه:

الأول : تبعث الآية النفرة في نفوس الناس من إتباع الآباء إذا كانوا كافرين.

الثاني : عدم الزيادة في أثقال الأباء الكافرين باتباع الأبناء لهم.

الثالث : تفقه الناس في الدين، ومعرفة وجوب التنزه عن إتباع الآباء الكفار.

ليكون من إعجاز القرآن ملاحقة الكفر والكافرين، فحتى الذي يموت من الكفار يأتيه الذم بما ينفع الموجود من الناس ومن مصاديق العبرة والموعظة في القرآن التي هي طريق ومقدمة للتوبة والصلاح، قال تعالى﴿الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾[1]،

بحث منطقي

المغالطة في الإصطلاح السعي الى تغليط الخصم وهي على ثلاثة اقسام:

الأول: ان تأتي للمصلحة وسلامة القصد والغاية وتسمى امتحاناً.

الثاني: احراج الخصم وتعجيزه واظهار اصراره على الباطل وتسمى عناداً.

الثالث: سوء الغاية وارادة الضرر وعدم النفع بقصد التفوق والرياء

---

(١) سورة البقرة ٢٧٥.

وستر النقص في التحصيل العلمي ويمكن ان نسميه بالمغالطة السلبية، كما ان ذكر المغالطة على نحو الإطلاق ينصرف اليه.

ورد الكفار واحتجاجهم باتباع الآباء من القسم الثالث، لذا فانه لن يضر المسلمين بل هو حجة له ومقدمة عقلية لإرتقاء المواجهة الى القتال.

ظاهر المفسرين ان الآية ذم للآباء والتقليد، والآية ذم للمخاطبين بالذات وللآباء بالعرض، فقد اختلطت اذهانهم بين المتشابهين وجعلوا لأنفسهم الحكم الخاص بغيرهم بسبب قلة التمييز وسوء القياس والإصرار على العناد والمغالطة.

فجاءت الآية لتخليصهم من منازل المغالطة وكيفية النجاة والسلامة من الإشتباه، والاستفهام الإستنكاري فيها لكشف اسباب غلطهم، وكأن الآية دواء وعلاج لهم ووقاية من امراض المغالطة، وتعلم صناعة المغالطة كدراسة طالب الطب والطبيب خواص السموم لمداواة الناس، خاصة وان الجحود والعناد والإصرار على الكفر مبني في الأصل على المغالطات السلبية والخصومات وحب الرياسات وما يتفرع عنها من اوهام، مما يستلزم تهذيب النفوس منها وطردها من الاوهام والعقول، والجهاد لخلو المجتمع من العناد وصيغ الإحتجاج بالباطل كما انها تحث على اعتماد صناعة البرهان.

وقسمت المغالطة من حيث مادتها وكيفيتها الى:

الأول : المغالطات اللفظية.

الثاني : المغالطات المعنوية وهي كل مغالطة غير لفظية.

ومغالطة هؤلاء وجحودهم من القسمين معاً، لأن جحودهم كان لفظياً ومعنوياً، فجاءت الآية الكريمة انذاراً وتوبيخاً ومعارضة وابطالاً لما يدعون واظهاراً للخلل الواقع فيما اعتمدوه من مقدمات وقواعد للقياس.

قوله تعالى ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

الأولى : ان الآباء الذين يعتذر الكفار باتباعهم لا يستطيعون الإهتداء الى سبل الرشاد وطرق الهداية.

الثانية : من وجوه عدم اهتداء الآباء هو انعدام وجودهم بين الاحياء ساعة الاعتذار، وان كان موضوع الآية الأساسي هو عدم اهتدائهم اثناء حياتهم.

الثالثة : الآية توبيخ وذم لسيرة الآباء وتوكيد على لزوم التخلي عن اتباعهم.

الرابعة : يبدو في نظم وسياق الآيات وصيغة التوبيخ ان نهج الاباء وكذا اتباعه انما هو من خطوات الشيطان.

الخامسة : ان الشيطان اعم من ابليس ومن شياطين الجن فيشمل شياطين الإنس ايضاً اولئك الذين لا يهتدون ولا يصيبون سبل الرشاد.

السادسة : الذم الوارد في الآية طريق لتخلي الكفار عن التقليد الباطل.

السابعة : دعوة للجميع للإستبصار ورؤية الآيات والتفكر بما انزل الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثامنة : تبين الآية الحاجة الى الاسلام، وتوثق الخلل والنقص العقائدي في الفترة السابقة للاسلام.

التاسعة : من التفسير بالمفهوم ان الآية تنهى المسلمين عن الإلتفات الى عقائد الآباء الوثنية ونبذ العادات الإجتماعية المبنية على الكفر، ولزوم التوجه الى الإسلام والأخذ من القرآن والسنة النبوية الشريفة والأحكام الشرعية وقواعد السلوك وسنن الحياة المختلفة.

قوله تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الآية ١٧١

الإعراب واللغة

(ومثل) الواو: استئنافية، مثل: مبتدأ، قال النحاس ت ٣٣٨ "وخبره كمثل الذي ينعق وقد تقصينا معناه".

صم: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم، فهم: الفاء عاطفة، هم: مبتدأ. النعيق: صوت الراعي بغنمه يقال نعق الراعي بغنمه ينعق بالكسر نعيقاً ونعاق: أي صاح بها وزجرها.

والصُم جمع أصم مثل أحمر وُحمر، وهو الذي تعطلت عنده حاسة السمع، وفي الدعاء: "عصيتك بسمعي ولو شئت لأصممتني" أي لعاقبتني وجعلتني لا أسمع شيئاً.

البُكم: جمع أبكم، يقال: بكم يبكم من باب تعب فهو أبكم أي أخرس لا يقدر على النطق، وقيل: ان الأخرس هو الذي خلق لا يقدر على الكلام، والأبكم الذي يقدر على النطق ولكنه لا يعقل.

والظاهر ان النسبة بينهما التساوي خصوصاً مع قرينة الوصف بالصُم، والعمي والخرس والبكم هنا مجازي لإرادة الذم والتوبيخ ولعدم توظيفهم الحواس في الطاعة ولأن قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] يمكن ان يكون خطاباً انحلالياً، أي ان كل حاسة من حواس الإنسان خَلقت لتؤدي وظائفها في طاعة الله.

(1) سورة الذاريات ٥٦.

في سياق الآيات

بعد النهي عن اتباع الشيطان وذم الكفار باتخاذهم التقليد الفاسد في العقائد جاءت هذه الآية لبيان حالهم على نحو المثل المحسوس ذماً وتوبيخاً.

الأول : صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ...﴾[1]، وفيها مسائل:

الأولى : تقدير الجمع على وجوه:

الأول : ومثل الذين كفروا إذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألقينا عليه آباءنا.

الثاني : ومثل الذين كفروا لايعقلون شيئاً ولا يهتدون.

الثالث : قالوا بل نتبع آباءنا كمثل الذي ينعق بما لايسمع.

الرابع : واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه اباءنا صم بكم عمي.

الخامس : قالوا بل نتبع ما عليه أباءنا فهم لا يعقلون.

السادس : فهم لا يعقلون ولا يهتدون.

الثانية : إبتدأت الآية بحرف العطف (الواو) وفيه دلالة على إتصال موضوع هذه الآية مع الآية السابقة، والنسبة بينهما هي العموم والخصوص المطلق فاية البحث هي الأعم في موضوعها، فلما ذكرت الآية السابقة الجدال والإحتجاج بين المؤمنين الأمرين بالمعروف والكفار الذين يمتنعون عن إتباع القرآن ويصرون على الإعلان عن إتباع آبائهم الكفار، جاءت هذه الآية في بيان صفات الذم للكفار وبما فيه توبيخهم.

---

(١) سورة البقرة ١٧٠.

الثالثة : جاءت آية البحث بذم الذين كفروا وبيان الخصال القبيحة التي يتصفون بها، وجاءت آية السياق بالدعوة للنجاة من هذه الخصال، وللإرتقاء في سلم المعارف باتباع التنزيل وأحكام الشريعة السماوية.

الرابعة : إتحاد صفات الأبناء والآباء من الكفار بأنهم لا يعقلون ولا يفقهون أمور دينهم وسبل سلامتهم يوم الدين، قال تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

الخامسة : يفيد الجمع بين الآيتين ذم الأبناء والآباء الذين توارثوا الكفر، وهو نوع مقدمة لإشتراكهم بالعذاب الأليم في الآخرة.

السادسة : تضمنت آية السياق أمرين:

الأول : دعوة الكفار إلى إتباع القرآن والعمل أحكامه.

الثاني : تجافي الكفار عن دعوة الحق وذكرهم لعلة الجحود وهي إتباع الأباء في الضلالة، وجاءت آية البحث لتخبر عن خطأ مبناهم وأنهم لم ينصقتوا للدعوة لإتباع التنزيل بسبب أنهم(صم بكم عمى).

السابعة : بيان مصداق لرأفة الله بالناس، وتفسير لصفة الفضل والنعم المتعددة التي تترشح من قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[2]، بأن الله لايحجب لايحجب الرزق الكريم والطيبات عن الكفار والجاحدين.

الثامنة : إبتدأت كل من الآيتين بحرف العطف(الواو).

التاسعة : جاءت آية البحث بلغة المثل، أما آية السياق فوردت بصيغة الجملة الخبرية.

---

(١) سورة الأنفال ٢٢.

(٢) سورة الأنفال ٢٩.

العاشرة : إتحاد موضوع الآيتين، وكل منهما تتعلق بالكفار وتتضمن ذمهم، وإسقاط ما في أيديهم.

الحادية عشرة : لما ذكرت آية السياق عناد وإصرار الكفار على الضلالة وإعراضهم عن الإستماع للتنزيل وإتباع أحكامه جاءت هذه الآية بوصفهم بأنهم صم بكم عمي وأنهم لايعقلون.

الثانية عشرة : إذا كان الكفار لايسمعون ولايعقلون فلماذا يدعون إلى الإيمان كما في آية السياق(وإذا قيل لهم) الجواب المراد في آية البحث الذين يصرون على الكفر بعد توجه الدعوة لهم للإيمان، فاذا دعي الناس لإتباع القرآن فان فريقاً منهم يتوبون إلى الله ويستجيبون للدعوة قال تعالى﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ*وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[1].

الثالثة عشرة : لما أختتمت آية السياق بذم الكفار الذين تركوا الشرك والضلالة إرثاً لأبنائهم، ووصفتهم بأنهم لايعقلون، وعاجزين عن الهداية لما فيه مصلحتهم ونفع أبنائهم من بعدهم جاءت هذه الآية في ذم الكفار مطلقاً الآباء والأبناء منهم.

الرابعة عشرة : تصف كل من آية البحث والسياق الكفار بأنهم لا يعقلون، وفيه دعوة للناس جميعاً لتوظيف العقل لأمور الدين والدنيا، وتدل الآيتان في مفهومهما على الثناء على المؤمنين إذ إختاروا الإيمان وتلقوا خطابات الإكرام والتكليف وذات التكليف هو إكرام أيضاً، ومصداق لحب الله للناس، ولطف بهم لأنه طريق إلى الجنة، فلذا يتلو كل مسلم ومسلمة في الصلاة اليومية﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2].

---

(1) سورة النصر ١-٢.

(2) سورة الفاتحة٦.

الخامسة عشرة : نعتت الآية السابقة الآباء الكفار بوصفين:

الأول : أنهم لايعقلون شيئاً.

الثاني : لايهتدون ، ونعتت آية البحث الكفار المعاصرين للتنزيل بأحدهما وهو(فهم لايعقلون) وفيه آية إعجازية تتجلى بامكان توبة الكافر، وتوظيفه حواسه للتدبر في الخلق ووجوب عبادة الله، وجاءت الفاء(فهم) لأن تعطيلهم لحواسهم أمر حال ومستمر وملازم للكفر.

الثانية : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ...﴾[1]، وفيها مسائل :

الأولى : تضمنت آية السياق الصلة المذمومة بين الشيطان وأوليائه التي تتقوم بالإغواء والضلالة وجاءت آية البحث لبيان كيف يستجيب الكفار للشيطان إذ أنهم صموا آذانهم عن دعوة الحق، وإمتنعوا عن بيان ما يتوصلون إليه من الحجة على وجوب عبادة الله.

الثانية : لايقدر الشيطان على الإستحواذ إلا على الذين هم صم بكم عمي، ليفيد الجمع بين الآيتين جعل الناس يلجأون إلى التنزيل ينطقون بالذكر والدعاء، ويتدبرون في الآيات والمعجزات الحسية وكونية كانت أو نبوية أو تنزيلية، قال تعالى في الثناء على أرباب العقول﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[2]، وعن عبد الله بن بسر: أن رجلاً قال : يا رسول الله إن شرائع الإِسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أستن به ، قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله[3].

---

(1) سورة البقرة ١٦٩.

(2) سورة آل عمران ١٩١.

(3) الدر المنثور ٢٩٧/١.

الثالثة : ذكرت آية السياق أن الشيطان يأمر بالقول على الله بغير علم فهل الصم البكم العمي، الذين ذكرتهم آية البحث خارجون بالتخصص أو التخصيص من هذا الأمر بلحاظ أنهم بكم لا يتكلمون، الجواب إن الصمم والبكم من الإستجابة للشيطان، إذ أن معنى الصم عن إعراضهم عن دعوة الحق، والبكم تخلفهم عن واجباتهم العبادية وإمتناعهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإمتثال له قال تعالى﴿فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[1].

الرابعة : نعتت آية البحث الكفار(فهم لايعلقون) ومن مصاديق عدم إخضاع الحواس والجوارح للعقل ووظائفه أمور:

الأول : عمل السيئات.

الثاني : إتيان الفاحشة والإقامة عليها.

الثالث : القول على الله بغير علم، لتتضمن كل من الآيتين الإنذار من الكفر وبيان أضراره على الإنسان في سلوكه في الدنيا وسوء عاقبته في الآخرة.

الخامسة : تخاطب آية السياق الناس جميعاً، أما آية البحث فتتعلق بالذين كفروا خاصة.

السادسة : يفيد الجمع بين الآيتين أن الشيطان يسعى في إغواء الناس، ولكن لايستجيب له إلا الذين كفروا.

السابعة : إن فعل السوء والفحشاء والإفتراء على الله يجعل صاحبه لايسمع ولاينطق ولا يرى وان كان يمتلك حاسة السمع والنطق والبصر.

الثامنة : بيان وجوه من الإبتلاء في الحياة الدنيا ولزوم حذر الإنسان من

---

(1) سورة الأحقاف ٢٦.

غلبة النفس الشهوية والغضبية.

التاسعة : الجمع بين الآيتين يدعو المسلمين للتوجه إلى الله عز وجل بالشكر على نعمة الهداية، والإحتراز من الشيطان ووسوسته.

العاشرة : من معاني آية البحث أن الكافر يدعو الهته فلا تنفعه كمثل الراعي يسمع صوت الشاة ولا يفهمه، وهو الذي يريده الشيطان للإنسان، فيجعله لايعقل ولا يميز بين الخير والشر، والصلاح والسوء.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّبًا...﴾[1]، وفيها مسائل :

الأولى : يتعلق موضوع آية السياق بالناس على نحو العموم الإستغراقي، وفضل الله عليهم بالرزق الكريم، قال تعالى ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾[2].

الثانية : إقامة الحجة على الكفار لتخلفهم عن شكر الله عز وجل على النعم العظيمة التي تفضل بها عليهم.

الثالثة : تأكيد رحمة الله بالناس جميعاً، وتفضله بالرزق الكريم على البر والفاجر، والمؤمن والكافر، قال تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[3].

الرابعة : جاءت آية السياق بأمر ونهي، أمر كريم بالأكل من الطيبات ونهي عن إتباع الشيطان، فأصر شطر من الناس على الكفر والجحود والميل

---

(١) سورة البقرة ١٦٨.

(٢) سورة الملك ٢١.

(٣) سورة الأسراء ٢٠.

إلى الشهوات، فجاءت آية البحث بذمهم وبيان جهالتهم وإقامتهم في منازل الغفلة، قال تعالى ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(1).

الخامسة : يفيد الجمع بين الآيتين إقامة الحجة على الكفار لجحودهم بالنعم، وعدم توظيف حواسهم لشكر الله والتدبر بعظيم صنعه وإحسانه إليهم، قال تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(2).

السادسة : لقد خاطبت آية السياق الناس ونهت عن إتباع الشيطان وعن غلبة النفس الشهوية والغضبية، وجاءت آية البحث بالإخبار عن تعطيل الكافر لعقله مما يجعل الشيطان ينفذ إلى سلوكه ولسانه.

السابعة : جاءت آية السياق بصيغة الأمر والنهي وبما فيه النفع الخاص والعام، وتضمنت آية البحث إعراض فريق من الناس عن مضامين آية السياق.

الثامنة : يفيد الجمع بين الآيتين أن الكفار إتبعوا خطوات الشيطان فصاروا لايفقهون ولا يعقلون وظائفهم وما ينجيهم يوم القيامة.

التاسعة : توجه الخطاب في آية السياق للناس جميعاً بأن يأكلوا من طيبات الرزق، مما يدل على رحمة الله بالناس في الدنيا وأن الرزق الكريم لايحجب عن الكفار وأن الله عز وجل لايستدرجهم في موارد الرزق كي ينتقم منهم.

العاشرة : ذكرت آية السياق أن الشيطان عدو مبين للناس، وتجلت مصاديق العداوة بأثر الكفر على صاحبه بأن صار كالبهيمة التي لا تفقه

(1) سورة الفرقان ٤٤.

(2) سورة ابراهيم ٧.

الموعظة، فهي تسمع الصوت والزجر ولكن لا تفقه معناه، وإن علمت بالمزاولة القصد من الزجر فانه لاينفعها، والأصل أن الإنسان يمتاز عن البهائم بأنه يدرك معنى الزجر ويحرص في مستقبل الأيام على إجتناب ما نهي عنه إلا أن إتباع خطوات الشيطان برزخ دون هذا الحرص.

الحادية عشرة : حينما يرى ويعلم الناس حال الكافر كما أخبرت عنه آية البحث وأنه لا يسمع ولا ينطق ولا يرى ما ينفعه في دنياه وآخرته فان آية السياق أخبرت بأنه من إتباع خطوات الشيطان.

الثانية عشرة : لما تضمنت آية السياق الأمر إلى الناس بأكل الحلال الطيب الذي هو فضل من الله عز وجل فمن الشكر له سبحانه التنزه من الكفر والضلالة.

الثانية : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة التالية، وفيها وجوه:

الأول : صلة هذه الآية بالآية التالية ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾[1]، وفيها مسائل :

الأولى : التباين في موضوع الآيتين مع المجاورة بينهما، فآية البحث تتعلق بالكفار، وآية السياق إكرام وثناء على المسلمين.

الثانية : تتضمن آية السياق الأمر للمسلمين بالأكل من الطيبات والرزق الحلال، ولا يعني هذا حصر هذه النعم عليهم من بين الناس، بدليل لغة العموم في قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾[2].

الثالثة : جحود الكفار وإعراضهم عن الآيات لم يمنع المسلمين من التنعم بالطيبات والإنقطاع إلى ذكر الله، وعن أنس قال: قال رسول الله

---

(1) سورة البقرة ١٧٢.

(2) سورة البقرة ١٦٨.

صلى الله عليه وآله وسلم : الإيمان نصفان : فنصف في الصبر ، ونصف في الشكر [١].

الرابعة : بيان قانون كلي في بني آدم وإلى يوم القيامة، وهو زيادة النعم على المؤمنين، ونقصها عند الكافرين لأن المؤمن يتوجه إلى الله بالشكر على النعمة فيزيده الله، والكافر لا يعقل، أي لا يوظف عقله في مرضاة الله فيبتلى بالضلالة ومنها عدم التدبر في سبل الرزق الكريم وإحراز إتصاله، وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أعطى أربعاً أعطي أربعاً ، وتفسير ذلك في كتاب الله من أعطي الذكر ذكره الله لأن الله يقول { اذكروني أذكركم } ، ومن أعطي الدعاء أعطي الإجابة لأن الله يقول ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة لأن الله يقول ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن أعطي الاستغفار أعطي المغفرة لأن الله يقول { استغفروا ربكم إنه كان غفاراً } [٢].

الخامسة : هناك تباين موضوعي بين الآيتين، إذ تتعلق آية البحث بالذين كفروا، أما آية السياق فتخص المسلمين.

السادسة : بيان فضل الله على المسلمين في الرزق الكريم ودعوتهم لشكر الله عز وجل على النعم، بينما لا يدرك الكافر الحاجة إلى هذا الشكر في الدنيا والآخرة.

السابعة : وجوب عبادة الله على الناس جميعاً، ولحوق الإبتلاء بالذي يصد عن عبادته، ويجحد بنعمه.

الثاني : صلة هذه الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ

---

(١) الدر المنثور ١/١٠٧.

(٢) الدر المنثور ١/٢٩٦.

مِنَ الْكِتَابِ...﴾[1]، وفيها مسائل :

الأولى : جاءت كل من آية البحث والسياق بصيغة الجملة الخبرية، وبيان حال قوم إختاروا الإعراض عن سبل الهداية والإيمان.

الثانية : تقدير الجمع بين الآيتين على وجوه :

الأول : مثل الذين كفروا يكتمون ما انزل الله.

الثاني : مثل الذين كفروا لايكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم.

الثالث : ومثل الذين كفروا لهم عذاب أليم.

الثانية : الجمع بين الآيتين رحمة بالناس ودعوة للكفار للتدبر في أسرار التنزيل وإتخاذها بلغة للعبادة.

الثالثة : ذكرت آية البحث حال الكفار في الدنيا وذكرت آية السياق سوء عاقبتهم في الآخرة، وتلك آية في التكامل بين الموضوع والحكم، وبين الدنيا والآخرة، وتعلق الجزاء الأخروي بحال العبد في الدنيا.

الرابعة : أختتمت آية البحث بذم الكفار ونعتهم بأنهم (لا يعقلون) وأختتمت آية السياق ببيان عاقبة الكفار بقوله تعالى﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مما يدل على أن التخلف عن توظيف العقل في طاعة الله، والسعي في الخيرات، والتخلية بين النفس والشهوات طريق وسبب للخلود في العذاب يوم القيامة.

الثالث : صلة هذه الآية بقوله تعالى﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾[2]، وفيه مسائل :

---

(1) سورة البقرة ١٧٤.

(2) سورة البقرة ١٧٦.

الأولى : ذكرت آية البحث الذين كفروا، ومن مصاديق كفرهم وجحودهم إنكارهم للتنزيل وصدودهم عن آيات القرآن وما فيها من المواعظ والحكم والأحكام.

الثانية : أخبرت آية السياق أن الكتاب وهو القرآن نزل بالحق والصدق، وفيه حجة على الكفار في إعراضهم عنه وعن الحق.

الثالثة : لأن الكفار في آذانهم وقر ولا يبصرون لايعلمون أن القرآن نزل بالحق والصدق.

الرابعة : من رشحات الصم والبكم الذي لحق الكفار أنهم في شغاف بعيد وأذى شديد، وفي هذا البيان وشواهد الخارجية والوجدانية دعوة للناس للإيمان.

الخامسة : أن معاني الحق الذي نزل القرآن به بلحاظ آية البحث أمور:

الأول : ضلالة الذين كفروا.

الثاني : ذهاب نداء الكافر في مهب الريح، وعدم إنتفاعه من أيام حياته من الأوامر والنواهي التي جاءت في الكتاب والسنة.

الثالث : فقد الكافر للحواس التي تؤهله للنجاة في النشأتين.

الرابع : غياب ملاك العقل والحكمة عن الكفار مجتمعين ومتفرقين.

السادسة : يفيد الجمع بين الآيتين إقامة الحجة على الناس في التبليغ والدعوة إلى عبادته، قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1].

السابعة : دعوة الناس جميعاً ومنهم الكفار إلى التدبر في نزول القرآن

---

(1) سورة المائدة ٦٦.

والعمل بأحكامه وسننه.

الثامنة : إذا كان الذين إختلفوا في الكتاب في شقاق وخلاف شديد، فان الكفار لايفقهون لزوم التصديق بالكتاب والعمل بمضامينه.

التاسعة : جاءت كل من آية البحث والسياق ليتوب الكافر ويتدبر في التنزيل ويعمل بمضامينه، قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[1].

العاشرة : تقييد نزول الكتاب بأنه بالحق والصدق والعدل حجة على الكفار في لزوم التصديق به وبالنبوة، ومن الحق في المقام الإخبار عن حال الكفار وحالهم من الصم والبكم والعمى، قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[2].

اعجاز الآية

تتجلى في هذه الآية منافع مدرسة المثال في القرآن وجعلها موضوعاً للتدبر والتفكر وكشف وجوه القبح عند الكفار.

وصفت الآية الكفاربأنهم لايسمعون ولا ينطقون ولا يبصرون مع أنهم في الحقيقة يمتلكون هذه الحواس، فلذا جاءت الآية بصيغة المثل لتقريب المعنى وإرادة خصوص موضوع وحكم لا يعملون فيه حواسهم.

وجاءت الآية بصيغة الجمع وبلحاظ التلبس بالكفر والجحود(الذين كفروا) وفيه دعوة للناس لنبذ الكفر لما يترشح عنه من الخصال المذمومة وإضراره بالنفس.

ومن أعظم النعم على الإنسان الحواس التي عنده وتعددها، والتباين في

(١) سورة ص٢٩.

(٢) سورة الزمر ٢٣.

وظائفها، والتداخل فيما بينها وإجتماعها في تحصيل البيان للموضوعات كي يقوم العقل بالتمييز والفصل بينها، فاخبرت آية البحث عن تخلف حواس الكافر وعقله عن القيام بوظائفها، ليكون من المقاصد السامية للآية دعوة الناس للنجاة من براثن الكفر.

وتدعو الآية الإنسان في كل سني عمره إلى نبذ مفاهيم الكفر، وقد تكل وتتعب الحواس في آخر العمر ولكنها تستطيع الإحساس بلزوم الإيمان بالله ونبذ الكفر والضلالة، وجاءت خاتمة الآية حجة متصلة على الإنسان في كل أيام حياته بالتذكير بأن نعمة العقل مصاحبة له ولا يكل العقل بل يزداد مع التجارب والشواهد والوجدان إدراكاً وتعطي الآية نصيباً للحواس وإتخاذها بلغة للإيمان، وهو نوع تجد، وعن علي عليه السلام قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم " اقرأ عليّ القرآن ، قلت : أقْرَأهُ عليك وعليكَ أنْزِل ، قال : إني أحِبّ أنْ أسْمَعه من غيري[1].

وإبتدأت الآية بالمثل ثم جاءت بالنعت والوصف المقترن بالذم على التلبس بالكفر والجحود.

وبلحاظ صدور النعق والكلام غير المفهوم من الكفار وهو ظاهر الآية ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾[2]، والمدار على الظاهر إلا مع وجود قرينة صارفة في التفسير والتأويل.

فان الآية بشارة للمسلمين بعجز الكفار عن إيجاد النصير والمدد من الناس وإن إستغاثوا بهم، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[3]، وفيه شواهد كثيرة إذ أن عدداً من القبائل إمتنعت

---

(١) التحرير والتنوير ٣/٢٤٠.

(٢) سورة البقرة ١٧١.

(٣) سورة التوبة ٧٤.

عن نصرة قريش أو الخزرج معها، وشطر منها دخلت في عهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد صلح الحديبية، وذهب بعض الكفار إلى ملك الروم وإلى اليمن لطلب النجدة والإجهاز على الإسلام في بدايات الدعوة فلم يستجب لهم أحد، وهو من مصاديق آية البحث.

وحال الكفار هذه مرآة ومقدمة لسوء حالهم في الآخرة عندما ينادون فلا مجيب لهم لقيام الحجة عليهم، إذ يتضرع أهل النار بخزمتها من الملائكة لسؤال الله التخفيف عنهم، ولكن الخزنة لايردون، ثم أجابوا بعد حين ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[1].

ويمكن تسمية الآية آية(**ومثل الذين كفروا**) ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية.

الآية سلاح

تقدم الآية للمسلمين صورة عن حال الكفار بوصف تقريبي وكيف انهم غلقوا على انفسهم باختيارهم طرق الرشاد والهداية، وفي الدلالة التضمنية للآية جواب للسؤال عن عدم ايمان هؤلاء الكفار.

لقد أنعم الله على الإنسان بالحواس الخمس السمع، البصر، الشم، الذوق، اللمس، ولو رأى شيئاً وأغمض عينه فان صورته باقية في الذهن وتجاويف الدماغ لتتضمن الآية ذم الذين كفروا لجحودهم نعمة الحواس وترك الواجب الذي يتجلى بتسخير هذه الحواس في مرضاة الله، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]، بتقريب أن

---

(1) سورة غافر ٥٠.

(2) سورة الذاريات ٥٦.

كل حاسة تصلح لأن تعبد الله أو قل يعبد الإنسان بواسطتها الله عز وجل ويتوصل إلى وجوب الصلاح والتقوى.

فالآية الكريمة تستنهض الهمم، وتوقظ الحواس عند الذي يسمعها مطلقاً ويلتفت إلى لزوم تسخيرها للبصيرة، لذا كان الناس يلجون أبواب التوبة ويدخلون الإسلام ويهجروا منازل الكفر، وعند عبد الله بن الزبير قال: لما كان يوم الفتح أسلمت هند بنت عتبة وأسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عكرمة في عشر نسوة من قريش فأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالأبطح فبايعنه فدخلن عليه وعنده زوجتاه وابنته فاطمة ونساء من نساء بني عبد المطلب فتكلمت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله! الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختار لنفسه لتمسني رحمك يا محمد! إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة ثم كشفت عن نقابها فقالت: هند بنت عتبة فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مرحباً بك " فقالت: والله يا رسول الله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من خبائك ولقد أصبحت وما على الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من خبائك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وزيادة أيضاً " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن القرآن وبايعهن.

ثم قالت أم حكيم امرأة عكرمة: يا رسول الله! قد هرب عكرمة منك إلى اليمن وخاف أن تقتله فأمنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو آمن فخرجت أم حكيم في طلبه فأدركته وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فجعل نوتي السفينة يقول له: : أخلص! قال: أي شيء أقول؟ قال: قل: لا إله إلا الله قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا! فجاءت أم حكيم على هذا من الأمر فجعلت تقول: يا ابن عم! جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس لا تهلك نفسك! وقالت: إني قد استأمنت لك رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم أنا كلمته فأمنك فرجع معها. قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته ليجامعها فتأبى عليه وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة فيقول: إن أمراً منعك مني لأمر كبير! فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم عكرمة وثب إليه وما على النبي صلى الله عليه وسلم رداء فرحاً بعكرمة ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف عكرمة بين يديه ومعه امرأته متنقبة ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا رسول الله! علمني خير شيء أقوله فقال: " تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله " فقال عكرمة: ثم ماذا؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تقول: أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر .

فقال عكرمة ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتكه " . فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها أو مسير أوضعت فيه أو مقام لقيتك فيه أو كلام قلته في وجهك أو أنت غائب عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها وكل مسير سار فيه إلي موضعاً يريد بذلك المسير إطفاء نورك واغفر له كل ما نال مني من عرض في وجهي أو وأنا غائب عنه فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله! أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ولا قتال كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله ثم أجتهد في القتال حتى أقتل قال: فما زال يقاتل في سبيل الله حتى قتل رحمه الله.

وروي أنه لما كان يوم اليرموك ترجل عكرمة فقال له خالد: لا تفعل فإن مصابك على المسلمين شديد فقال: دعني يا خالد! فإنه كانت لك سابقة مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قاتل قتالاً شديداً حتى قتل فوجد به بضع وسبعون من بين طعنة وضربة ورمية.

وقال عبد الله بن مصعب: استشهد يوم اليرموك الحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو فأتوا بماء وهم صرعى فتدافعوه كلما دفع إلى رجل منهم قال: اسق فلاناً حتى ماتوا ولم يشربوه قال: طلب الماء عكرمة فنظر إلى سهيل ينظر إليه فقال: ادفعه إليه فنظر إلى الحارث ينظر إليه فقال: ادفعه إليه فلم يصل إليه حتى ماتوا رحمة الله عليهم[1].

وتبين الآية موضوعية الحواس في حياة الإنسان وإختياراته وهي وسائل إجتناب البلاء وأسباب الهلكة والحيطة والحذر من الشيطان وفي التنزيل ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[2].

ولا يميل الطبع إلى الشئ القبيح، وتنفر منه النفس، وإذا إزدادت مرتبة النفرة سمي مقتاً، فجاءت الآية لمقت مفاهيم الكفر، وجعل الكفار يعلمون سوء الإقامة في منازل الجحود والمعصية، وإذا فقد الإنسان أحد الحواس فان الله عز وجل يخلفه بقوة إضافية في حواسه الأخرى بما يخفف عنه وطأة هذا الفقدان، وهو أمر ظاهر للوجدان، وجاءت آية البحث لتكون خلقاً عاماً للناس وجعلهم يدركون الآيات وفيها رحمة وتخفيف عن الكفار أنفسهم بدعوتهم للإيمان بأسرار التنزيل

---

(١) التوابين ٣٤/١.

(٢) سورة الأعراف ٢٧.

مفهوم الآية

ما في الآية من ذم وخزي للكافرين سكينة للمسلمين ومنع من الإندفاع في جدالهم ومحاولات اقناعهم وهدايتهم وتخبر الآية بالدلالة الإلتزامية عن اتصاف المسلمين بالحكمة واتخاذهم العقل سبيلاً للتمييز بين الحق والباطل وتوظيفهم للحواس المتعددة لمعرفة الحق واتباع الرسول.

وفي الاية اشارة الى فلسفة خلق الحواس عند الإنسان وهي لزوم توظيفها للإيمان واتباع الأنبياء وما انزل الله من السماء، فهي من المصاديق الجزئية للتطامن والخشوع لله عز وجل .

فالحواس خلقت وسائل واسباباً وآلات لطاعته سبحانه.

ومن مفاهيم الآية مسائل:

الأولى : بيان التباين الموضوعي بين المؤمنين وعبدة الأوثان.

الثانية : الثناء على المسلمين لأنهم يسمعون ويعون الكلام، ويتدبرون فيه، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1].

الثالثة : مجئ الآية بلغة المثل إخبار عن الملازمة بين الكفر والعي والقهر.

الرابعة : بعث النفرة من الكفر لما يترشح عنه من خصال القبح وأسباب الذم.

الخامسة : دعوة الكفار إلى التوبة وما فيها من أسباب المعرفة والسمع والنفقة والتدبر.

---

(١) سورة الزمر ١٨.

السادسة : جاءت الآية بصيغة المثل وهو من إعجاز القرآن لما فيه من إقامة الحجة على الكفار بتمتعهم بحواسهم وهو من رحمة الله عز وجل بهم في الدنيا، وأن المثلية هذه تنقطع بالتوبة والإنابة والصلاح.

السابعة : دعوة المسلمين للتفقه في الدين، وأداء الفرائض وإصلاح أنفسهم وعدم الإنشغال الزائد بالأمل بهداية الكفار، إذ بينت الآية السابقة إصرارهم على البقاء على الكفر وإعراضهم عن الدعوة لإتباع التنزيل، وإجهارهم بتقليد الأباء الكفار.

الثامنة : أخذ المسلمين الحائطة والإحتراز من الكفار الذين لايفقهون مواضع المصلحة وكيفية دفع المفسدة.

إفاضات الآية

كما أن لذة القلب تثبيت الإيمان في النفس والشوق للقاء الله، فان لذة النظر تتجلى بهية في بديع صنع الله، ولذة السمع في الإنصات لآيات الله عز وجل والتدبر في معانيها ودلالاتها، وفي الحكمة قيل بالحواس العقلية الخمس وهي الحافظة، والواهمة، والمفكرة، والمخيلة، والحس المشترك.

وتدعو الآية إلى الإنتفاع الأمثل من حاسة السمع والنطق والبصر في الحياة الدنيا بلحاظ أنها دار بلا حساب، قبل فوات الأوان ومغادرة الدنيا قهراً والعجز عن العمل، قال تعالى ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾[1]، وقيل طمس الوجوه (أن تعفى أثر الحواس فيها)[2] ليكون الرأس خالياً من أعضاء الحواس، وقيل زوال العينين ورجوعهما إلى القفا وكأنه عقوبة للكفار لأنهم لم يعملوا الحواس في مرضاة الله.

---

(١) سورة النساء ٤٧.

(٢)المحرر الوجيز ١٣٧/٢.

وتبين الآية نوع ملازمة بين تعطيل الحواس وبين التخلف عن الإدراك وتوظيف العقل الذي هو نعمة عظيمة بها تأهل الإنسان للخلافة في الأرض، وبترك الصدور عنه يكون الفساد والجحود، فجاءت هذه الآيات للتخفيف عن الناس بحثهم على الرجوع إلى التنزيل وإتباعه وليكون من شكر الله على نعمة الحواس والعقل توظيفها في طاعة الله.

الآية لطف

يأتي الذم في القرآن ليكون مقدمة للتوقي من عذاب يوم القيامة، وهو من إعجاز القرآن ومصاديق الرحمة التي في ثنايا آياته، إذ تبعث آية البحث على النفرة من الكفر لما فيه من سلب التنعم بالحواس وجعلها هامدة ساكنة، وتميل النفوس إلى لغة المثل، لما فيه من تقريب المدركات العقلية بلباس الأمور الحسية لرفع الحواجز بين النص ومعرفة الناس بمضمونه والمراد منه، ومن اللطف في الآية الكريمة إنحصار تمثيل عموم الكفار بفرد واحد ويحتمل وجوهاً:

الأول : كل الكفار متحدين كالذي ينعق ويزجر البهائم.

الثاني : الآية إنحلالية، والمراد كل واحد من الكفار كالذي يزجر البهائم، أي النسبة بينهم التساوي في حال الغفلة.

الثالث : إرادة المعنى الأعم، وشمول الفرد والجماعة بالمثل الوارد في الآية.

والصحيح هو الأخير ويتصف بأنهم مجتمعين ومتفرقين لايهتدون إلى طريق الحق والصلاح.

ولا يتعارض هذا المعنى مع ولوج شطر منهم باب التوبة لأن هذا الولوج يخرج الإنسان من الذم الوارد في الآية لتبدل الحكم بتغير الموضوع، ولكل حاسة إدراك مخصوص، فما تحس به الآلة الباصرة غير الذي تدركه آلة

السمع، وكل واحدة من الحواس تجلب اللذة للنفس بادراك المحبوب من المحسوسات ويقود إلى العلم بقانون جلي وهو أنها أمور مخلوقة وأن الخالق هو الله عز وجل فتجب طاعته بعبادته ورجاء دوام فضله، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: حبب إليّ من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة [1].

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بلفظ المثل وموضوعه لتقريب المعنى إلى الأذهان، وتكرر لفظ المثل في الآية لإرادة للبيان وتأكيد التشبيه، ومن الإعجاز في أمثلة القرآن أن مصاديقها معروفة للناس في كل زمان ومكان، فالنعيق الصياح على الغنم، وهو أمر معروف عند أهل الحضر والمدر، وفي المدينة والريف ويتباين الضمير في قوله تعالى ﴿يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ ففاعل ينعق غير فاعل يسمع، فالذي ينعق ويصيح هو الراعي، أما الذي يسمع فهي البهيمة التي لاتعني أو تفقه التفصيل والبيان والغاية منه، إنما ينحصر سمعها بوصول الصوت إلى أذنها، ليكون من منافع تكرار لفظ(مثل) أن المثل الوارد في الآية موضوع قائم بذاته منفصل عن مسألة الكفر والجحود.

والأصل أن الحواس نعمة رزقها الله الإنسان لتكون آلات للتفقه في الدين والتمييز بين الحق والباطل، وتلقي دعوة الحق بالتصديق، ودعوة الباطل بالصدود وقد ذكرت الآية السابقة هذا المعنى والتفصيل بقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [2].

ولم يختص موضوع والفاظ الآية بلغة المثل، إذ إنتقلت إلى وصف حال الكفار وبما هو أشد قبحاً مما ورد في المثل، فاذا كانت الأنعام تسمع

---

(١) الكشاف ٣٠٠/١.

(٢) سورة لقمان ٢١.

خصوص الصوت والصياح عليها فان الكفار (صم بكم عمي) أبوا إلا تعطيل الحواس، وموضوع هذا التعطيل هو إصرارهم على الكفر والجحود، فهم يرون زينة الدنيا، ويسمعون اللهو ويتبادلون الأحاديث في التجارات والمعاملات والأمور الخاصة، ولكنهم عندما يصلون إلى العبادة وما يجب عليهم ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾[1].

وعن ابن عباس في آية البحث قال: كمثل البقر والحمار والشاة ، إنْ قلت لبعضهم كلاماً لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك ، وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك[2].

واختتمت الآية بقوله تعالى ﴿فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ ليفيد ترشح الجهالة والغفلة عن تعطيل الكافر لحواسه في التكاليف والواجبات الشرعية، فلم تقل الآية(وهم لايعقلون) بل جاءت بفاء العاقبة لبيان قانون كلي وهو أن الإصرار على الإمتناع عن الإنصات لدعوة الحق يؤدي إلى الحرمان من الإنتفاع الأمثل من نعمة العقل والتدبر في الأمور لأن الحواس تعطي للعقل مفاهيم ضرورية، ولا تكسب إلا بالحواس.

ومن فضل الله على الناس أن الدعوة إلى الإيمان لاتختص بالقول والذكر بل تمتلأ الأرض بالشواهد التي تجذب الناس إلى مسالك التقوى، قال تعالى ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3]، وهل الآية إلى ترك الكفار وشأنهم وعدم تكلف العناء والمشقة في دعوتهم إلى الإيمان، الجواب لا، ففي دعوتهم والناس جميعاً إلى الإيمان الأجر والثواب

---

(1) سورة البقرة ١٩.

(2) الدر المنثور١/٣٦.

(3) سورة آل عمران ١٣٧.

بدليل الآية السابقة التي جاءت فيها الدعوة على نحو التنكير والبناء للمجهول (وإذا قيل لهم) وقيل: فليس للناعق من ذلك إلا النداء الذي يتعبه ويصبه[1].

ولكن الدعوة إلى الهداية والصلاح متجدد ومستمرة وفيها الأجر والثواب، إنما جاء المثل لإقامة الحجة على الكفار، وتتأتى هذه الحجة بدعوتهم للإيمان ومخاطبة حواسهم وعقولهم، قال تعالى ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وذكرت آية البحث صفات مذمومة للكفار وهي على قسمين:

الأول : ماجاءت بصيغة المثل وهي:

الأولى : إطلاق الكفار أصواتاً غير مفهومة، ولايكترث بها أحد، لإرادة التشبيه بأن تأثير الكفار في الناس معدوم، إذ أن الآية أخبرت بأن الذي ينعق هو الكافر، وفيه دلالة على المائز بين المؤمنين والكفار، بأن دعوة المؤمنين لعبادة الله يسمعها الناس ويفقهون معانيها ومنافعها وغاياتها.

الثانية : ضياع عمل الكفار هباءً فلا تسمع الأصنام كلامهم، وفيه إشارة إلى حرمان الكفار من الشفاعة يوم القيامة وان إستغاثوا، قال تعالى ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[3].

الثالثة : إصابة الكفار بالصمم وعدم سماع آيات التنزيل وما يترشح عن هذا السماع طوعاً وقهراً من التدبر في معاني ودلالات الآيات وأسرار نزولها من عند الله، ونعتت الآية الكفار بالصمم أي أنهم لو إجتمعوا فان خصلة

---

(١) المحرر الوجيز ١/١٨٥ .

(٢) سورة يس ١٠.

(٣) سورة غافر ١٨.

عدم السمع مصاحبة لهم، وتخبر لغة الجمع في الآية(صم بكم) عن إجتماع الكفار على الضلالة.

الرابعة : عجز الكفار عن الكلام وبيان الحجة، أو إقامة البرهان عن على إتباعه آبائهم على الكفر والجحود.

الخامسة : إصابة الكفار بالعمى وإفتقارهم إلى البصيرة.

الثاني : ماجاء بالوصف بالذات وليس المثل، وهو قوله تعالى﴿فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ لبيان حقيقة وهي أن العناد والإستكبار يمنع من إدراك العقل للحقائق، ويحول دون تمييزه بين الحق والباطل، والهدى والضلالة

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى : الآية مدرسة في المثل القرآني، وبعثه النفرة في النفوس من الكفر ومفاهيم الضلالة.

الثانية : في الآية ذم وإنذار للكفار، ودعوة لهم لنبذ الكفر.

الثالثة : بيان حال العز التي عليها المسلمون ومراتب المنعة التي بلغوها بأن يتلون الآيات التي تتضمن توبيخ الكفار.

الرابعة : في الآية رحمة بالكفار لما تدل عليه من زجرهم عن محاربة الإسلام، وتخفيف عن المسلمين في حجب شطر من الناس عن عداوة الإسلام.

الخامسة : تساهم لغة المثل في الآية بوضوح قبح الكفر ولزوم إجتنابه.

السادسة : دعوة المسلمين لشكر الله على نعمة الهداية للإيمان.

السابعة : التحذير من الركون للكافرين وإتخاذهم أولياء أو بطانة، قال تعالى ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

الثامنة : الآية مدد للمسلمين في سبل الإحتجاج، والدعوة إلى الله عون لهم في معرفة أحوال الناس، وهذه المعرفة سبيل لإختيار كيفية ومرتبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التاسعة : حصانة المسلمين من اللغو ولغة التعدي والإفتراء التي عليها المشركون، قال تعالى ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[٢].

العاشرة : سلامة المسلمين من تعطيل الحواس بدلالة آية البحث فهي وان جاءت بصيغة الجملة الخبرية إلا انها تتوجه للمسلمين بالخطاب مما يدل على سماعهم وإنصاتهم للآيات وتدبرهم في معانيها ودلالاتها.

التفسير

قوله تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾

الأولى : من اعجاز القرآن انه البس المعنوي والمعقول لباس المحسوس مع البرهان مرافقاً وثمرة ومادة للإحتجاج.

الثانية : التمثيل الوارد في الآية يساهم في دفع النفوس الضعيفة للنجاة من مستنقع الجهالة والضلالة.

الثالثة :لغة الذم والتقبيح في القرآن لا تعني دائماً التوبيخ وحده فالأهم فيها التأديب والتنبيه والتقريع من اجل الإصلاح.

---

(١) سورة النساء ١٤٤.

(٢) سورة النساء ١٤٠.

الرابعة : الآية من مصاديق الرحمة لما فيها من لغة التوبيخ قبل ان يأتي عالم العقوبة الخالي من الإنذار والإمهال.

الخامسة : ظاهر الآية انها عبرة وموعظة للمسلمين في وصف حال الكفار.

السادسة : وصفهم بالصم والبكم والعمي لا يعني عدم انتفاعهم من هذه الآية على نحو السالبة الكلية بدليل الإستثناء بقوله تعالى ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

السابعة : هذا الاستثناء من اهم افراد الإعجاز في هذه الآية وان انشغل المفسرون عنه في بيان تقدير معنى الكلام في الآية ومدى ما فيه من التأويل والقلب.

الثامنة : الآية تصف حال الذين كفروا في تلقيهم الدعوة الإسلامية.

التاسعة : تظهر الآية الكريمة مساعي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين في اطلاعهم على آيات القرآن وحثهم على دخول الإسلام واراءتهم الحجج والبراهين.

العاشرة : مثل الذين كفروا في عبادتهم للأصنام ودعائهم لها مع انها لا تنفع ولا تضر، ولا تعقل ولا تفهم كمثل الراعي مع الاغنام وما يطلق من أصوات ونداءات بلغة الآدميين عليها لجمعها او تفريقها وتوجيهها في سيرها فهو يعلم ان الاغنام والبهائم لا تفهم كلامه، هذا هو المعنى الأول، اما الثاني فان الكفار كمثل الغنم التي لا تفهم دعوة الهداية والرشاد، وباستثناء ادريس فقد عمل الأنبياء برعي الأغنام لكي يحبوا القطر ولمعرفة سياسة الناس ومداراتهم وتبليغهم بصيغ الحكمة والموعظة والإنذار بلحاظ التباين في مداركهم والتفاوت في الحال.

الحادية عشرة : تأويل الآية يستوعبهما الا ان المعنى الأول هو المتبادر والمنصرف اليه الذهن وان كان في ظاهره حذف، وفي مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام في الآية قال: "ان البهائم اذا زجرها صاحبها فانها تسمع الصوت ولا تدري ما يريد، وكذلك الكفار اذا قرأت عليهم وعرضت عليهم الإيمان لا يعلمون مثل البهائم"، وقريب منه منسوب الى ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة.

الثانية عشرة : ان الكفار يرددون وينعقون بما لا يدركون معناه، فهم في تيه فكري وعقائدي، ولكنه لا يرقى الى المعنى الأول الذي يعني اقامة الحجة عليهم.

الثالثة عشرة : في الآية اخبار بان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلغ الرسالة واوصلها حتى الى الكفار.

ان عدم ايمان الكفار يحتمل وجوهاً:

الأول : النقص في عدد الآيات التي بلغت هؤلاء بحيث انها لا ترقى الى اقناع العقلاء بما هم عقلاء.

الثاني : عدم اطلاعهم على المعجزات.

الثالث : الخلل الذاتي عند الكفار وافتقارهم الى اسباب القبول.

الرابع : عدم بلوغ الدعوة اليهم، او انها بلغتهم ولكنها لم تكن بالصيغ الكافية للإقناع واقامة الحجة.

والأرجح هو الثالث وهو وجود الخلل الذاتي والنقص عند الكفار مع ان الحجج كانت ظاهرة للجميع وان آيات القرآن تطرق الأسماع وتنفذ الى النفوس وتدعو العقول الى تدبرها، ولكنهم يقيمون على الإعراض عنها للجهل المركب، وهو الإعتقاد الجازم القطعي عند الإنسان بموضوع ما، وهو خلاف الواقع.

بحث بلاغي

قال الزركشي بخصوص الآية نقلاً عن سيبويه تقديره مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به[١].

وفي الكتاب: وانما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا، واختلف في كلام سيبويه هل هو تفسير معنى او تفسير اعراب فيكون في الكلام حذفان.

ولكن الكلام العربي مطلقاً يحمل على ظاهره وعندنا قاعدة تقول بحجية ظواهر القرآن خصوصاً انها تتضمن المعنى الأعم والأرجح، وظاهر الآية يفيد الإطلاق من غير تقييد بالنظر الى حالهم مع المسلمين، فالإطلاق يفيد ان الكفار على حال النعق والإرباك حتى في نواديهم ومجتمعاتهم البعيدة عن المجتمع الإسلامي.

الباء: زائدة والمراد من القول بانها زائدة لا يعني أنها كلام زائد او خال من النفع وافهام المخاطب بل ان الكلام تام بدونها وحذفها لا يخل بالمعنى هذا في الصناعة النحوية ولكن الحكيم سبحانه لا يصدر منه ما هو زائد وهو منزه عن العبث.

ان عدم الإخلال بالمعنى عند الحذف لا يعني ان وجود الحرف له دلالات اضافية على نحو الحقيقة او الإعتبار.

ونسب الى الأكثر القول بجواز الإطلاق الزائد في القرآن نظراً الى انه نزل بلسان القوم ومتعارفهم.

ونسبة القول بالجواز الى الأكثر تحتاج الى تحقيق خصوصاً وان شطراً منهم يأتي به على المتعارف بين النحويين، ومنهم من سمى الزائد صلة، وآخر اطلق عليه مقحماً.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢٥٢/١.

ان علوم القرآن اعم واوسع من ان تحيط بها القواعد النحوية او قواعد العلوم المختلفة.

قوله تعالى ﴿ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾

الأولى : وردت ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بصيغة الجمع، والمشبه به بصيغة المفرد مما يعني ان الكفار بهذه الصفة من الكلي المتواطئ أي على مرتبة واحدة، لأن البهائم في عدم الفهم على مرتبة واحدة فالإنسان اختص بالعقل الذي غاب او فقد وظيفته عند الكفار ساعة رؤيتهم الآيات والحجج.

الثانية : التشبيه في الآية نكتة اعجازية ويساعد في تفسير الآية، فهم لا يسمعون من الدعوة والحجج والآيات الا الصوت دون المعنى والفهم.

الثالثة : جاءت الدعوة بالزجر والتوبيخ والذم لما هم عليه وان ازدادت الدعوة وكثر النداء وظهرت صيحات الله اكبر فانهم لا يلتفتون الى مضامينها ويرون كثرة المسلمين ويسمعون صلاتهم وكثرة قراءة القرآن من حولهم ولكن هذا لا يتعدى عندهم الآذان لأنهم غلقوا مسالك السمع باختيارهم.

الرابعة : الآية بشارة بعدم حدوث ضرر واضرار بالمسلمين بسبب جحود وعناد وتحد الكافرين فانهم كمثل الذي ينادي في مكان فارغ ولا يؤذي الا نفسه، والصدى صوت يسمعه المصوت عقيب صوته راجعاً اليه من جبل او بناء مرتفع.

قوله تعالى ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾

الأولى : اعجاز بلاغي، ببضع كلمات اعطى القرآن الوصف القائم لحال الكفار واخبر انهم اصبحوا في حال لا ينفع معها التبليغ والإنذار.

الثانية : كأن هذه الآية ممهدة لآية السيف، فقد اصبحت آذانهم مسدودة عن سماع الحجة والإنصات لصوت الحق.

الثالثة : فيها بشارة النصر لعدم التكافيء في القدرات ولعل فيها حثاً على

المباغتة.

الرابعة : بكم عن بيان حجتهم لأنهم اصبحوا لا يستطيعون الإحتجاج وانكشف للناس وهم وزيف ما كانوا يعتذرون به.

الخامسة : بكم عن التحدث بالآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، انهم يتجاهلون في مجالسهم الخاصة هذه الآيات واختاروا العمى على النظر ببصيرة للآيات العقلية والحسية التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادسة : لقد أراد الله للآيات ان تكون ظاهرة مبصرة بما يجعل الذي لا يؤمن بها يستحق الذم والتوبيخ.

السابعة : الذي لا يوظف حواسه وجوارحه في المعارف الإلهية يعتبر كالذي فقدها، ومما اشتهر في الفلسفة "من فقد حساً فقد علماً"، والاعراض عن الآيات والكفر بها تعطيل للحواس.

قوله تعالى ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

الأول : مع عدم توظيف الحواس الثلاث الأهم اصبحوا ممن لا يعقل الأمور ولا يميز بين الحق والباطل وليس عنده القدرة على اختيار الطريق الأنسب.

الثاني : بالجحود والكفر يصبح الانسان آلة للإضرار بنفسه وبغيره ويستولي عليه الشيطان ويسهل عليه انقياده، لأن الشيطان سلط على بني آدم من حيث تغيب عنهم عقولهم ويتحكم فيهم الهوى والنفس البهيمية.

الثالث : الآية في منطوقها سلاح بيد المسلمين ومادة لإختيار الصيغ الجهادية المناسبة مع الكفار وبما يأمر الله عز وجل ويأتي به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابع : كأن الآية توطئة لمرحلة جديدة معهم هي مرحلة السيف او ادنى منها قليلاً.

الخامس : الآية في مفهومها بيان لحال القصور والغفلة عند الكفار وانها

السبب الكامن وراء عدم اسلامهم.

السادس : موضوع الآية مناسبة كي يشكر المسلمون الله عز وجل على نعمة العقل والبصيرة والإستماع الى الآيات، أي ان المسلمين استطاعوا ان يوظفوا ما رزقهم الله عز وجل من الحواس في معرفة ما يجب عليهم.

السابع : في الآية نوع سكينة للمسلمين اذ انها تصف الحال المتردية التي يستطيع الشيطان من خلالها ان ينفذ بوساوسه الى الإنسان.

الثامن : ان المسلمين في مأمن وحرز منه لأنهم يمتلكون المناعة والحصانة الذاتية.

التاسع : بالإسلام يستطيعون سماع الآيات ورؤيتها واتباع الإحكام الشرعية.

العاشر : قسم العقل الى قسمين:

الأولى : عقل مطبوع وهو جزء من الانسان في أصل خلقته والذي ورد به الحديث القدسي: "ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، إياك آمر وإياك أنهى، وإياك أعاقب، وإياك أثيب".

الثانية : العقل المسموع وهو الذي يأخذ العلم ويتلقى التكاليف ويمتثل للخطاب الإلهي وأحكام النبوة.

وهذا التقسيم استقرائي للبيان والتفصيل، والآية تنفي عنهم القسم الثاني من العقل أي انهم لم يجعلوا العقل يقوم بما يجب عليه خصوصاً وانه مناط التكاليف.

الحادي عشر : في الآية حذف دلت عليه القرائن، وهو انهم لا يعقلون الذنب العظيم الذي يرتكبون وما ينتظرهم من العقاب.

الثاني عشر : لا يعقلون حتمية انتصار الرسالة وافتضاح أمرهم واضرارهم بانفسهم وانهم كالانعام بل أضل سبيلاً.

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٣٧	الصلة بين أول وآخر الآية
٦	قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾		
٦	القراءة	٤١	من غايات الآية
٧	الإعراب واللغة	٤٥	تفسير ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا﴾
١٠	في سياق الآيات	٥١	آيات ذم الانداد
٢٣	إعجاز الآية	٥٢	بحث عرفاني
٢٥	الآية سلاح	٥٣	تفسير قوله تعالى ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ
٢٧	مفهوم الآية	٥٩	تفسير قوله تعالى ﴿كَحُبِّ اللهِ﴾
٣٠	الآية لطف	٦٠	تفسير قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾
٣٤	إفاضات الآية	٦٣	بحث عرفاني

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٥	تفسير قوله تعالى ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾	٨٩	إفاضات الآية
٦٧	تفسير قوله تعالى ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾	٩١	الصلة بين أول وآخر الآية
٧٠	تفسير قوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾	٩٤	من غايات الآية
٧٢	قوله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾	٩٦	تفسير قوله تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾
٧٢	الإعراب واللغة	١٠١	تفسير قوله تعالى ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾
٧٣	في سياق الآيات	١٠٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾
٨١	إعجاز الآية	١٠٥	قراءة قرآنية في سكن الإنسان في الكواكب الأخرى
٨٣	الآية سلاح	١٠٧	بحث كلامي
٨٤	مفهوم الآية	١٠٨	بحث إعجازي
٨٧	الآية لطف		

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١١٠	قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾	١٢٦	من غايات الآية
١١٠	الإعراب واللغة	١٢٨	تفسير قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾
١١١	في سياق الآيات	١٢٩	تفسير قوله تعالى ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
١١٧	إعجاز الآية	١٣١	بحث بلاغي
١١٩	الآية سلاح	١٣٤	بحث أخلاقي
١٢٠	مفهوم الآية	١٣٦	تفسير قوله تعالى ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾
١٢١	الآية لطف	١٣٧	تفسير قوله تعالى ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾
١٢٣	إفاضات الآية	١٣٧	تفسير قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾
١٢٥	الصلة بين أول وآخر الآية	١٤٠	تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٢	بحث كلامي	١٥٩	إفاضات الآية
١٤٣	قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾	١٦١	الصلة بين أول وآخر الآية
١٤٣	القراءة	١٦٥	من غايات الآية
١٤٣	الإعراب واللغة	١٦٨	تفسير قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً﴾
١٤٥	في سياق الآيات	١٧٢	بحث بلاغي
١٥٢	إعجاز الآية	١٧٢	تفسير قوله تعالى ﴿ طَيِّبًا ﴾
١٥٥	الآية سلاح	١٧٦	في علم الحديث
١٥٦	اسباب النزول	١٧٦	تفسير قوله تعالى ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾
١٥٧	مفهوم الآية	١٧٩	تفسير ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾
١٥٨	الآية لطف	١٨١	قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨١	الإعراب واللغة	٢١٠	قوله تعالى﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾
١٨١	في سياق الآيات	٢١٠	الإعراب واللغة
١٨٩	إعجاز الآية	٢١١	في سياق الآيات
١٩٠	الآية سلاح	٢١٩	إعجاز الآية
١٩٢	مفهوم الآية	٢٢٢	الآية سلاح
١٩٣	الآية لطف	٢٢٥	اسباب النزول
١٩٦	إفاضات الآية	٢٢٥	مفهوم الآية
١٩٧	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٢٦	الآية لطف
١٩٨	من غايات الآية	٢٢٨	إفاضات الآية
٢٠٠	تفسير قوله تعالى﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ ﴾	٢٣١	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٠٣	قوله تعالى﴿ الْفَحْشَاءِ﴾	٢٣٥	من غايات الآية
٢٠٣	تفسير قوله تعالى﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾	٢٣٧	تفسير قوله تعالى﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾
٢٠٤	بحث اصولي	٢٤١	تفسير قوله تعالى﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾
٢٠٨	بحث فقهي	٢٤٣	بحث بلاغي

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٤٤	بحث عقائدي	٢٧٠	مفهوم الآية
٢٤٦	بحث أخلاقي	٢٧١	إفاضات الآية
٢٤٧	تفسير قوله تعالى﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾	٢٧٢	الآية لطف
٢٤٩	بحث منطقي	٢٧٣	الصلة بين أول وآخر الآية
٢٥١	تفسير قوله تعالى﴿ وَلاَ يَهْتَدُونَ	٢٧٦	من غايات الآية
٢٥٢	قوله تعالى﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ	٢٧٧	تفسير قوله تعالى﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ ﴾
٢٥٢	الإعراب واللغة	٢٨٠	بحث بلاغي
٢٥٣	في سياق الآيات	٢٨١	تفسير قوله تعالى﴿ مَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾
٢٦٤	إعجاز الآية	٢٨١	تفسير قوله تعالى﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾
٢٦٦	الآية سلاح	٢٨٢	تفسير قوله تعالى﴿ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾